



الخلافة
في
الدستور الإسلامي

الإمام الشيخ محمد جواد الشري

تقديم

محمد باقر الشري



تحقيق وتعليق

مع دراسة وافية

محمد نعيم السماوي







الخلافة

في

الدستور الإسلامي

الإمام الشيخ محمد جواد الشري

تقديم
محمد باقر الشري

تحقيق وتعليق مع دراسة وافية
محمد نعمة السماوي

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م

دار المرتضى
للطباعة والنشر والتوزيع
لبنان ـ بيروت ـ ص. ب: ١٥٥/ ٢٥ الغبيري ـ هاتف: ٠١/ ٨٤٠٣٩٢

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

محمد باقر الشري

كأنه كتب عليّ أن تفيض روحا أعز اثنين في الوجود أمام ناظري، وهي أصعب اللحظات التي يمرّ بها إنسان، فعندما توفيت الوالدة الجليلة عام ١٩٨٣م، كان من اصعب ما مرَّ في عمري، انها «انطفأت» بينما كنت بصدد تقديم الطعام لها دون أن تنبس شفتاها بكلمة أنين واحدة!!

وعندما كنت إلى جانب الامام الشقيق الشيخ محمد جواد في مستشفى هنري فورد ساهراً طوال الليل، كان قد انتابه «ضيق تنفس»، فأعطي مهدئاً للألم، وكان يئن لأول مرة في فترة مرضه، واطمأننت إلى وضعه فانصرفت الى مكان مجاور لغرفته، اكتب بعض الخطرات، بعد أن شعرت بشيء من صفاء الذهن، وعندما عدت لأتفقده، رأيته «يغفو» دون أن يصدر عنه ما يدل على أنه فارق هذه الدنيا إلى الأبد!!

حتى أنني عندما نظرت إليه.. قلت للممرضة أن نومه هكذا قد يتعبه، فلماذا لا يكون نومه على الجانب الأيمن بدلاً من الأيسر، قالت: ان نومه هكذا مريح... بعد أن أخذ دواءً ضد الوجع... ولكنني قلت لها، وقد انخلع قلبي من الجزع: انني لا أراه يتنفس... فظنت أنني «متوهم»... ولكن عندما طلبتُ منها أن تقترب منه ووضعت يدها على صدره،

وتحسست جبينه، أخذت تركض في ممر المستشفى واستدعت زميلاتها وزملاءها بمن في ذلك طبيبين متمرنين، ويبدو أنهم كلهم هنالك متمرنون، وإذا بهم يقدّمون لي العزاء... وقد انتابني شعور بالذهول والإحباط، لا أظن أن انطباعه سوف يزول الى آخر العمر...

وان «ملابسات» مفارقته الحياة، تصلح بحد ذاتها لأن تكون موضوعاً مستقلاً ومطوّلاً حول مدى «مصداقية» شعارات حقوق الانسان والتقدم العلمي في حقل الطب وحول كراهية «التمييز»... في الولايات المتحدة!!

بعض مواقفه المشهودة

والآن... نتجاوز عن كل هذه الأمور، رغم خطورتها، لنحاول أن نتذكر بعض مآثر ومواقف وجهاذ وكفاءة هذا الانسان العظيم. وهي ليست شهادة من أهله، لأن أي واحد يعرفه يمكن أن يتحدّث عنه أفضل مني، وإذا كانت هنالك جوانب يجب «الاضاءة» حولها عن شخصيته، وقد لمسناها عن قرب، فليس من الانصاف أن نشارك في «التعتيم» عليها، بل يكون من الواجب التوقف عندها، ولأن السكوت عنها هو سكوت عن قول الحق، ولأن «الساكت عن اعلان الحق شيطان أخرس».. ولعل ذكر بعض هذه المآثر التي لا يمكن حصرها كلها، يكون فيه عزاء لمحبيه وعارفي فضله. وإذا كان يجوز للمرء أن يكتب تجاربه ومذكراته الشخصية، فلماذا لا يجوز لأخ يتابع سيرته، أن يكتب بعض «المذكرات»، عن سيرة حياة شقيقه، وخاصة إذا كان للراحل مكانة عامة تخرج به عن نطاق السيرة الفردية؟

* * *

في خطاب ألقاه العلامة فضل الله احتفالاً بالامام الشيخ محمد جواد شري في منطقة النبعة في برج حمود، وفي نادي «جمعية أسرة التآخي» في مطلع الستينات، شبّه آية الله العلامة فضل الله الامام العلاّمة الشيخ محمد

جواد شري بجمال الدين الأفغاني مصلح الشرق العظيم.

وفي خطاب ألقاه آية الله العلامة الشيخ محمد مهدي شمس الدين في بلدة القماطية تكريماً للعلامة شري، قال كلاماً لا يشبهه في البلاغة غير رسالته التي ارسلها بـ«الفاكس» بعد رحيل الامام شري، وتليت في «المركز الاسلامي في اميركا» وتركت صدى طيباً في أوساط الجاليات اللبنانية والعربية ومختلف الطوائف التي تقدر فضل وعلم ومواقف الراحل العظيم.

وفي كلمة كان قد ألقاها الامام السيد موسى الصدر في بلدة كيفون في الفترة نفسها عام (١٩٧٤) بدعوة من رئيس بلدية كيفون السيد عبد الهادي سعد، تكريماً للإمام شري، قال الامام الصدر فيه كلاماً عبَّر فيه عن مدى ما يكنّه في قلبه من تقدير عميق لهذا الرجل وقال ما معناه: «إذا كان القادة تصنعهم الأمم التي ينسبون اليها، فان هذا المصلح العظيم ذهب وصنع أمة في ديار الغربة متجاوزاً الصعوبات قاهراً العقبات»...

بين الامام شري والامام الصدر

وفي رسالة بعث بها الى الامام شري قبل غيابه بأسابيع، أعرب الامام الصدر عن شوقه ورغبته في زيارة الجاليات في اميركا، وطلب من الامام شري النصيحة على هذا الصعيد، فأرسل إليه الامام شري جواباً يقول فيه: لو لم يكن لزيارتك من فائدة غير فائدة اللقاء مع اللبنانيين والعرب الاميركيين وشرح اوضاع الجنوب للفاعليات أو الفعاليات الاميركية السياسية والروحية، أوجب التعجيل بهذه الزيارة فتكون في أقرب وقت!

وقبل أن آتي الى زيارة الشقيق في تلك الفترة، اتصلت بالامام الصدر، وكنت على اطلاع على «مشروع» رحلته الى اميركا وسألته: هل جاءك جواب من الامام الشقيق؟ قال: نعم... وقلت: وهل كان الجواب كما تريد؟ قال: «لم يكن الجواب كما أريد، بل كان أفضل مما أريد!».

وبالفعل طبعت الدعوات لمأدبة كبرى يحضرها اللبنانيون والعرب المسلمون من جميع انحاء اميركا في «المركز الاسلامي في اميركا»... وكان الشقيق في ذلك الوقت لا يزال في أوج نشاطه وعطائه، ولكن سخرية القدر، شاءت أن تكون «المأدبة الكبرى» التي أعدّها الامام الشري للامام الصدر، دون تنفيذ، بسبب التغييب الفجائي للامام الصدر، وهو الغياب الذي يمكن أن يعتبر حتى الآن: «فضيحة العصر» بالنسبة للعرب والمسلمين، وهو الذي يؤرّق الضمائر الى عقود قادمة، وسوف يبقى «مساحة مظلمة» من التاريخ العربي المعاصر..

التقدير المتبادل العميق

وقد لا يعرف الكثيرون مدى عمق التقدير المتبادل الذي كان يربط الامام شري بالامام الصدر، ففي احدى الفترات التي احتدم فيها الصراع حول رئاسة المجلس الشيعي في لبنان، كان هنالك صراع حاد بين «عشرات العلماء» الذين غاظهم بروز الامام الصدر على الساحة اللبنانية، وبين الامام الصدر، توصل عدد من السياسيين ورجال الدين إلى «حل وسط» وهو أن لا يكون رئيس المجلس الشيعي من بينهم، ولا يكون الامام الصدر نفسه، بل يكون هذا «الحل الوسط» الذي يُرضي الامام الصدر نفسه والآخرين على السواء، هو مطالبة الامام شري، بالقدوم الى لبنان وتسلّم مسؤولية رئاسة المجلس الشيعي الوليد، وقد طلب مني كشقيق وكمهتم بالوضع الشيعي، أن أتولى «شرح» الوضع له، واستمزاج رأيه في هذا الموضوع، فكان جوابه واضحاً وحاسماً: ان هذا الأمر (أي انشاء المجلس الاسلامي الشيعي الأعلى) قد نهض به شخص الامام الصدر، ومن حقه هو، أن يتولى قيادته، ونحن لدينا هنا مهام نرجو أن يوفقنا الله لإكمالها!»، وعندما طلب مني «بعض العلماء» أن أرسل للشقيق «نص خطاب» للامام الصدر، وهم

يعترضون على الكثير من نقاطه، طالبين أن يُبدي الشقيق رأيه فيه، علّه يشاركهم الرأي في «انتقاده وتخطئته»، ارسل إليّ يقول: انه اطّلع على هذا الخطاب وهو يدل على أن الرجل قدير ويعرف بالضبط ماذا يقول!».

مؤامرة يكشفها الامام شري ضد الامام الصدر

وفي فترة من الفترات، وفي أوليات نشاط الامام الصدر في لبنان، شنّت عليه اوساط معيّنة حملة «شائعات» بالنسبة لموقفه من الوجود الفلسطيني، واتهامه بالانحياز لـ«أجهزة» الدولة اللبنانية «ضد» الفلسطينيين، اجتمع ممثلون عن الفصائل الفلسطينية في «مكان ما» بالولايات المتحدة، وقد عرف الامام شري من بعض مريديه في قلب الاجتماع، «تفاصيل» تؤكد، بأن هذه الفصائل تعتبر الامام الصدر، معادياً لها، وانها «اتخذت قراراً» يتعلق بمصيره كله، ولم يستطع الامام شري النوم... ولما كان الأمر حساساً، فقد اقتضى أن ينتقل بنفسه الساعة الواحدة ليلاً إلى منزل السيد نسيب سويدان، شقيق الأستاذ عبد العزيز سويدان (نائب رئيس مجلس البحوث العلمية السابق في لبنان) وطلب منه أن يحضّر نفسه للسفر فوراً الى بيروت والذهاب مع أخيه عبد العزيز المقرّب جداً من الامام الصدر، وابلاغه حقيقة «ما يدبر» له.. وأن يأخذ حذره، وأن يتخذ موقفاً يقطع فيه الطريق على «المؤامرة المدبّرة على حياته»... وكان هنالك ما هو أهم من هذا الموقف النبيل عند الامام شري، لقد أوصى الامام شري الموفد الذي أرسله الى الامام الصدر، أن لا يذكر له أن الامام شري قد أرسله، لكي لا يعتبر الامام الصدر ذلك، «منّة» عليه، ولأنه يوفده ارضاءً لربه وضميره، ولأنه لا يجوز له، وقد وصلت اليه هذه المعلومات أن «يتكتم» بها، ولأن حياة «إنسان ثمين» تتوقف على معرفته بها، وضرورة تلافي آثارها، وبالفعل كان الامام الصدر، بعد أن وجد هذه المعلومات «أكيدة»، بدليل، أن تهديدات كانت قد وجّهت إليه في لبنان في تلك الفترة،

فقد أخذ بالنصيحة التي جاءت اليه من وراء البحار، دون أن يعرف «هوية» صاحب النصيحة، ولكنه تأكد له أنها من «مصدر موثوق»، ولأنه يثق أيضاً بناقلها الحاج نسيب سويدان وشقيقه الأستاذ عبد العزيز . . .

أهم كتاب في الخلافة... منذ الخلافة!!

وما دمنا قد تعرّضنا لعلاقة الإمام شري بهذه القيادات . . . والشيء بالشيء يذكر، فانني أذكر أنه خلال الاحتفال بالذكرى الأولى لقيام الثورة الاسلامية في ايران، وكان العلامة فضل الله يزور طهران، ويحضر الاحتفالات التي كانت تضم وفوداً اسلامية «في قاعة مجلس الخبراء» (مجلس خبركان) وفي نفس مبنى مجلس النواب في عهد الشاه، والذي تحول فيما بعد الى «مجلس الشورى الاسلامي»، ناداني آية الله فضل الله ليقول: اسمع ما يقوله «أبو صالح» . . . والمقصود بـ«أبو صالح» العلامة المرحوم الشهيد السيد مهدي الحكيم نجل المرجع الشيعي الأعلى السابق في النجف الأشرف آية الله العظمى السيد محسن الحكيم(قدس سره)، فتقدمت من السيد مهدي (أبو صالح) لأقول له: نعم يا أبا صالح؟ فقال: «إن كتاب شقيقكم «أمير المؤمنين» هو أهم كتاب عن الخلافة منذ الخلافة!»، وأرجو، تبلغه ذلك عن لساني، قلت له: «أفضل أن تتصل به أنت، ليسمع ذلك منك مباشرةً»! وبالفعل قيّض للسيد مهدي أن يبلغ الامام شري ذلك بنفسه، عندما جاء الى الولايات المتحدة لاجراء عملية في عينيه، فاتصل بالامام شري من واشنطن وأبلغه رأيه في كتابه «أمير المؤمنين» . . . وهو يتضمن بحثاً في أحداث الـ٥٦ سنة الأولى من عمر الاسلام، والتي تبدأ ببعثة النبي وتنتهي بنهاية خلافة الامام علي عليه السلام، وقد وصفته جريدة اميركية في صفحتها الثقافية، بأنه «أهم كتاب في علم السياسة» الاسلامية .

وإذا كان هذا الكتاب يتعرض لـ«موضوع حسّاس» وهو موضوع

«الخلافة في الدستور الاسلامي»، فانه لم يمنع مؤلفه من القيام بمساعٍ حثيثة لجمع الشمل بين «المدارس الاسلامية» الفقهية المختلفة، ولما كان الشّيعة قد تعرّضوا للإجحاف والغبن على مرّ العصور الاسلامية، بسبب استئثار الحكّام بالسلطة، فقد رأى الامام شري الفرصة سانحة عام ١٩٥٩م، لكي يلتقي «أعلى مرجع سني في العالم» وهو شيخ الأزهر المرحوم الشيخ محمود شلتوت، وهو شيخ منفتح وغير متعصب، لكي يقنعه بأن يبادر السنّة من جانبهم الى إزالة «العُقَد» بينهم وبين الشيعة، وذلك باصدار فتوى من شيخ الأزهر، المعروف باعتداله وابتعاده عن النعرات في ذلك الوقت، «يعترف» فيها بالمذهب الشيعي الامامي الجعفري الاثني عشري، واعتباره مذهباً صحيحاً في نظر السنّة، بل يجوز للسني أن يصبح شيعياً وبالعكس (وهذا التعبير مقتبس من فذلكة الفتوى)، دون أن يكون المسلم بذلك قد خرج عن جوهر دينه، «وما كان دين الله ليأخذ بالعصبية بين المذاهب».. وهي فتوى اتجهت النية عند صدورها لجعلها «عيداً سنوياً»... وقد تركت أصداء في العالم الاسلامي.

من محضر لقائه مع عبد الناصر

وقد سبق الفتوى لقاء مطوّل بين الامام العلامة، والرئيس عبد الناصر، عرض فيه الامام شري لـ«المظالم» التي لحقت بالشيعة على مرّ التاريخ الاسلامي، وامتدت هذه المظالم الى العصر الحديث، حيث أنه في فترة من الفترات، قُطِعت «رؤوس» بعض الحجاج الايرانيين الشيعة، بتهمة انهم «أحدثوا» (نجّسوا) في البيت الحرام (الكعبة)... مما أدى الى قيام الحكومة الايرانية في ذلك الوقت (قبل الثورة الاسلامية بحوالي ثلاثين سنة) بقطع العلاقات مع السعودية... وقد تبين فيما بعد، أن هؤلاء الحجّاج، لم «يلوثوا» أرض الكعبة عمداً، لأنهم يقدسونها، ولكن اثنين منهم كانا قد اصيبا «بضربة شمس» أدت «لاستفراغهما» أي غثيانهما، داخل الحرم..

وقال الامام شري للرئيس جمال عبد الناصر: إنك بصدد إنجاز مشروع الوحدة التي تضم الجمهورية العربية المتحدة، المؤلفة من مصر وسوريا مع العراق الذي يضم أغلبية شيعية عدديّة، وبعض الجهات التي لا تريد الوحدة بين «الجمهورية العربية المتحدة» والعراق، «تهوّل» على الشيعة، بأنه إذا تمت وحدة العراق مع مصر وسوريا، فان شيعة العراق «سيذوبون» في محيط سني، وأحسن «دواء» لذلك كله، هو أن يبادر شيخ الأزهر «أعلى مرجع سني في العالم» لانصاف الشيعة، والاعتراف بصحة مذهبهم، ومساواة مذهبهم بالمذاهب الأربعة وتدريسه في الأزهر، (رغم أن محاولات التقريب بين المذاهب، قد استمرت قبل ذلك بحوالي ٣٠ سنة دون التوصل الى فتوى أو قرار واضح يتعلق بالمذهب الشيعي)، وقد راقت «الفكرة» للرئيس عبد الناصر، فعلّق في النهاية قائلاً: «وهكذا يمكننا التغلب على دسائس الاستعمار التي تريد التفرقة بين ابناء الأمة الواحدة»، ثم اردف عبد الناصر مخاطباً الامام شري: «أريد أن أخبرك عن مسألة شخصية قد لا تعرفها بالنسبة لموضوع السنّة والشيعة.. فبادر الامام شري قائلاً: اعرف هذه الخصوصية! قال عبد الناصر: ما هي؟ فأجابه: إنك متزوج من شيعية... فدهش عبد الناصر وعلّق قائلاً: كنت أظن أن هذا الأمر غير شائع وغير معروف، فقال له الامام شري: «أنه غير شائع ولكننا عرفناه!» (كان عبد الناصر متزوجاً من شيعية من أصل إيراني، وكان أبوها تاجر سجاد في العراق أصلاً)، وعندما عرف الرئيس عبد الناصر، أن هناك التباساً أو «لغطاً» حول من يقف وراء إصدار فتوى «المساواة بين المذاهب» أمر بنشر خبَر في جريدة «الجمهورية» التي تنطق رسمياً بلسان الدولة، بأن فتوى شيخ الأزهر حول «المساواة بين المذاهب» قد تمت بمسعى من العلامة الشيخ محمد جواد شري.

مؤتمر صحفي عن الفتوى في لبنان

والمعروف أن العلامة شري، قد جاء الى لبنان، بعد لقائه الرئيس عبد الناصر وشيخ الأزهر وصدور الفتوى، وعقد مؤتمراً صحفياً في نقابة المحررين، تحدث فيه عن الفتوى وظروف صدورها، وقد استقبل بعد ذلك وفود علماء السنة والشيعة والقيادات السياسية التي جاءت تهنئه بالوصول، وتشكره على مساعيه لاستصدار تلك الفتوى من شيخ الأزهر والتي سوف تساعد على توطيد وحدة المسلمين.. والتي يمكن أن يقال بأن «فكرة» المجمع المسكوني الذي عُقد في الفاتيكان بين الكاثوليك والارثوذكس فيما بعد، قد استوحيت من تلك الفتوى، بعد أن رأى الكاثوليك والأرثوذكس بوادر وحدة وتضامن بين مذهبين رئيسيين اسلاميين وعلى مستوى عالمي...

ومعروف أن الامام الخميني عندما كان في النجف، القى خطابين حيًا فيهما صدور تلك الفتوى، وقد تضمنهما كتاب «دروس في الجهاد والرفض» والذي يضم مواقف وفتاوى وخطباً عديدة للامام الخميني.

كما أن نص فتوى شيخ الأزهر مثبتة على قطعة حجرية في متحف الامام الرضا عليه السلام في مدينة مشهد المقدسة، حيث ضريح الامام الرضا عليه السلام، الإمام الثامن عند الشيعة الإثني عشرية.

مع شيخ الأزهر الآخر في «المركز الاسلامي في اميركا»

وعلى ذكر الأزهر، فاننا نذكر أن شيخ الأزهر الآخر، الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود، الذي تزامنت ولايته للأزهر مع فترة «من ولاية الرئيس السادات السياسية» زار الولايات المتحدة وأراد أن يزور «المركز الاسلامي في اميركا» الذي يشرف عليه الامام شري، وكان الطقس ثلجياً، ولدرجة أن علو الثلج بلغ يومئذ علواً قياسياً، ولكن الحضور تأمن، وامتلأ بهو المركز

الاسلامي على رحبه، حتى أن البعض قدم من كاليفورنيا وبنسلفانيا وفلوريدا وسائر انحاء الولايات المتحدة، بالطائرة، وقد دهش شيخ الأزهر الدكتور عبد الحليم محمود لهذا الإقبال رغم العواصف الثلجية، فالتفت إلى الامام شري قائلاً: هل كل هؤلاء من «إخواننا» الشيعة؟ فقال له الامام شري: إن ٨٠ بالمائة تقريباً من الشيعة، فسأله شيخ الأزهر عن «هوية» الباقين، فقال له: ١٠ بالمئة من السنّة... وأما «العشرة» الثانية... فهي من المسيحيين!

وسأل الامام شري بدوره شيخ الأزهر مداعباً: «لماذا قلت «أخواننا» الشيعة، ولم تقل أبناؤنا «الشيعة».. هل هناك فواصل نفسية بعد أن أفتى «أزهركم» الذي نعتبره أزهر المسلمين جميعاً، باعتبار المذهب الشيعي، أحد المذاهب الخمسة التي يجوز التعبّد بها لدى جميع المسلمين؟ فقال الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر: لا أدري اذا كنت تعلم اننا نحن في مصر نحب «أهل البيت» كثيراً، ونعظّم مقام الامام الحسين، ومقام السيدة زينب بنت علي بن ابي طالب عليه السلام فقال له الامام شري: نرجو من الذين يحبّون أهل البيت أن يتخذوا نفس الموقف الودّي من اتباع أهل البيت!

مواجهة مع «مؤسس» دولة الكويت

ولقد كان للامام شري لقاءات مع ملوك ورؤساء عرب، تؤكد شجاعته الأدبية في الحق... وخلال «جولة» قام بها لتأمين المال من أجل بناء المركز الاسلامي، التقى حاكماً خليجياً، وشرح له أهمية انشاء مركز اسلامي في اميركا، وخاصة إذا كان هذا المركز في منطقة تضم أكبر عدد من العرب والمسلمين الاميركيين (في ديترويت مشيغن)، ولأن «المركز الاسلامي» الذي انشىء في واشنطن والذي كلّف حوالي ١٥ مليون دولار، اشتركت في إنشائه الدول العربية والاسلامية، هو مركز لـ«الرسميين» اكثر مما هو مركز

له قواعد شعبية، يؤمه السفراء والسيّاح للاطلاع على ما فيه من زخرف وفن معماري شرقي فقط.

أما «المركز» الذي نحن بصدد انشائه، فسوف يكون في خدمة عشرات الألوف من المؤمنين المسلمين والعرب الاميركيين... وعندما أصرّ حاكم الكويت، على أن التبرع يجب أن يتم عن طريق الجامعة العربية و«الدول» الاسلامية... قال له الامام شري: أنت حرٌ في موقفك، ولقد أتحنا لك فرصة، أن تسهم في مشروع حيوي يخدم القضايا العربية والاسلامية... ولكن سموك، تريد أن تحرم نفسك من هذه الفرصة... وسوف ترى أن الله سوف يغنينا عن جميع المساعدات الرسمية وسنتكل على انفسنا، وسنبني نحن مركزنا... وهكذا كان، فقد استطاع العرب الاميركيون بقيادة الامام شري أن يبنوا أهم «مركز اسلامي» في اميركا، وأن يقتطعوا من عائداتهم المحدودة، نفقات بنائه وتجهيزه... وقد أصبح صرحاً مرموقاً لدى جميع العرب الأميركيين، مسلمين ومسيحيين...

المواقف السياسية الأخرى.. لها حديث آخر!!

وأما المواقف السياسية الواعية الجريئة التي تبدأ بطرح القضايا العربية والاسلامية على مستوى حاكم الولاية وفي الكنائس وفي وسائل الاعلام، والمناظرات التلفزيونية، وفي البيت الأبيض ذاته، فسوف نعرض نبذاً منها لأنه لا يمكن الاحاطة بها كلها.

في لقاء مع حاكم ولاية مشيغن جورج رامني، أحد المرشحين الجمهوريين للرئاسة الاميركية، شرح الامام شري لرامني «المظالم» التي لحقت بالعرب (والمسلمين) وعن مسؤولية الادارات الاميركية المتعاقبة في عدم رفع أسباب هذا الظلم عن العرب والمسلمين، وبعد أن انتهى اللقاء، ترك ملخصاً مما قاله في «مذكرة» تضمنت القول «بأن الاميركيين يكادون

يفقدون استقلالهم امام الضغوط الصهيونية، فقد يستطيع المواطن الاميركي أن ينتقد الحكومة الاميركية والرئيس الاميركي، ويستطيع أن يشارك في مظاهرات معادية حتى لسياسات الحكومة الاميركية، وقد يصل الأمر درجة إحراق علم الدولة الذي يمثل السيادة الوطنية، ولكنه ليس لديه الحرية الكاملة في أن ينتقد زعماء اسرائيل، ليس لديه شعور بامكانية توجيه نقد صريح لمناحيم بيغن، أو ايغال الون، أو ابا ايبان أو غيرهم من المسؤولين الاسرائيليين (هذه الأسماء كانت متداولة عندما تم اللقاء بين الامام شري وحاكم ولاية مشيغن جورج رامني الذي كان اسمه يتردد كمرشح للرئاسة الاميركية، وقد تولى فيما بعد وزارة الأشغال والمواصلات)، ذلك أن هذه الأسماء تبدو وكأن عليها حصانة، ولا «يجرؤ» أحد على انتقادها والمساس بها.

إذا انقسم العالم الى معسكرين بالنسبة للمسيح

وفي أكبر كنيسة في ولاية مشيغن، تم الاحتفال بذكرى مرور مائتي سنة على استقلال الولايات المتحدة، وقد حادث ذلك يوم «عيد الشكر»، وقد ارتأت محافظة ديترويت وتوابعها، اقامة احتفال يشترك فيه رؤساء الأديان في الولاية، فكان بين الحاضرين كاردينال الكاثوليك الذي تكلم باسم قداسة البابا، ومطران البروتستانت، والحاخام الأكبر في المنطقة والقائد الروحي للمسلمين المعروف على نطاق واسع في الولاية وفي جميع انحاء الولايات المتحدة العلامة الشيخ محمد جواد الشري وكان مما قاله في خطابه يومذاك: بأن مجيء رؤساء الأديان والطوائف الى معبدٍ يخص طائفة معينة أو ديناً معيناً، ليس شيئاً جديداً في حياة المسلمين، فنبي المسلمين محمد بن عبد الله ﷺ دعا المسيحيين في عيد الشعانين للصلاة في مسجد اسلامي، وكان ذلك منذ حوالي الف وثلاثمائة سنة، وقد كانوا من نصارى نجران، وقد حدثت في هذا المسجد عملية «المباهلة» حيث طرح النبي

العربي، تحدياً مع «اخوانه» المسيحيين فقال لهم: ﴿**تعالوا ندعوا أبناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وأنفسكم، ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين**﴾ . . . فإذا أصابتنا اللعنة نكون على خطأ وإذا لم تصبنا نكون على صواب. وقد طلب المسيحيون من نبي الاسلام أن يعدل عن «المباهلة»، لأنهم يؤمنون بأنه على اتصال بالوحي الإلهي، وقال الامام شري في هذا الموقف الذي حضره حشد هائل من «المؤمنين»، من جميع الأديان: «إن العالم إذا انقسم الى معسكرين معسكر مع المسيح ومعسكر ضد السيد المسيح، فان المسلمين يقفون في صف السيد المسيح، لأنهم يؤمنون برسالته ومعجزاته وقداسة أمه العذراء، أما سواهم ممن ينكر صحة رسالة السيد المسيح وينكرون مجيئه، ويعتبرونه «مسيحاً مزيفاً»، فإننا يجب أن ندرجهم في عداد المعسكر المعادي للمسيح. وكانت خُطَبُه في الكنائس اكثر من أن تحصى وقد ساعد جو «التسامح الديني» السائد في اميركا، بموجب القانون، على عرض وجهات النظر الاسلامية في الكنائس المسيحية، وكان رجال الدين المسيحيون يعلّقون على هذه المحاضرات في الغالب بقولهم: «اننا لا نتفق معك في الرأي، ولكننا نحترم منطقك الموضوعي والعلمي، وقد تعرفنا على جوانب من الاسلام لم نكن نعرفها» وحتى من يحضر من اليهود محاضرات عامة يلقيها الامام شري بلغة انكليزية عالية، في الجامعات والمدارس والمحافل الدينية (ولا يمكن منع اليهود أو غيرهم من حضورها)، فانهم كانوا يتظاهرون بمواقف ودية واحترام للمنطق المقنع والحجج القوية التي كان الامام شري يدلي بها في تلك المحافل.

من محضر لقائه مع كارتر

ولعلَّ من أهم المواقف المشهودة للامام شري المواجهة التي حصلت بينه وبين الرئيس كارتر خلال أزمة الرهائن في ايران، بحضور جميع المؤسسات والجمعيات والفعاليات الاسلامية في مختلف انحاء الولايات

المتحدة، حيث استدعى الرئيس كارتر الجميع للتشاور حول قضية الرهائن، وكان الامام شري أول المتكلمين وقد بدا بعمامته ذات الانتماء الفقهي المعين المعروفة، فقال للرئيس كارتر: قد لا يمكن تبرير قضية الرهائن، ولكن يجب فهم دوافعها وأسبابها، فلقد تذكّر المسلمون الايرانيون، عندما جئتم بالشاه من باناما الى نيويورك، انه عندما «طرد» الشاه في الخمسينات من العرش ولجأ الى ايطاليا، فان المخابرات المركزية دبَّرت انقلاباً ضدكم وضد (مصدّق والكاشاني)، وأعادت الشاه الى العرش رغماً عن ارادة الشعب الايراني، وقد جنَّ جنون الشعب الايراني اليوم، لأنه ظنَّ أنكم ستعيدون الشاه مرة ثانية الى العرش، فأقدم على هذا العمل الذي قد لا يمكن تبريره قانونياً، ولكن يمكن فهم اسبابه ودوافعه، وأضاف الامام شري مخاطباً الرئيس كارتر: إن الأرقام «الفلكية» حول ثروة الشاه في الخارج والمسروقة من مال الشعب والتي تقدر بعشرات المليارات من الدولارات، يستحق عليها الاعدام، فكيف إذا عرفنا كما تقول «الاحصاءات» الاميركية نفسها أنه قتل نحو ٦٠ ألفاً من شعبه، إن ما فعله الشاه بشعبه في اعتقادنا هو أسوأ مما فعله هتلر الذي تعتبرونه مثال الطغيان والديكتاتورية، ذلك أن هتلر قتل خلال الحرب العالمية من غير شعبه، أما هذا فقد قتل عشرات الألوف من شعبه، وأضاف الامام شري مخاطباً كارتر (وقد نشرت كلامه في حينه معظم الصحف اللبنانية، ووكالات الأنباء، مع صورة اللقاء مع كارتر، وصورته خلال حديثه مع الصحفيين بعد خروجه من البيت الأبيض، وعلى سلّم البيت الأبيض): اننا نريد أن نقول لك بأن الامام الخميني ليس مجرد رجل حاكم، بل انه في نظر الكثيرين من مريديه وأتباعه هو «ولي».. ونحن نحذّر السيد الرئيس وادارته، من أن أي «عدوان» على «الثورة الاسلامية في ايران» سوف يعتبره جميع المسلمين عدواناً عليهم، وإذا حدث قَتْل ودمار في ايران، فان الأجيال الاسلامية المقبلة، سوف تلعن الذين تسببوا بالقتل

والدمار، وأنا أعيذك أيها الرئيس من أن تكون ذلك الرجل الذي يسجّل التاريخ أنه «اعتدى على شعب يريد الحرية»!!.

«الآخرون» يؤيدونه

وعندما رأت جميع الفعاليات الاسلامية الأخرى التي حضرت اللقاء في البيت الأبيض، أن الامام شري تحدث بهذه الحجة القوية والمنطق الجريء، وقد كان بينها من يريد اعطاء ايحاء سلبي أمام كارتر بالنسبة للثورة الاسلامية في ايران، ورأت هذه الفعاليات، أن الرئيس كارتر لم «يغضب» لهذه الصراحة التي تحدث بها الامام شري، فقد انضمت جميعها الى منطق الامام شري، وأبلغت الرئيس كارتر انها تؤيد بالاجماع وجهة النظر التي طرحها مدير المركز الاسلامي في اميركا.

ولم ينس الامام شري قبل خروجه من البيت الأبيض أن يسلّم كلاً من الرئيس كارتر ومستشاره بريجنسكي نسخة من جزءين لكتابه بالانكليزية The Brother of the Prophet «أخو النبي محمد» الامام علي. وقد كان تعليق صديق الامام شري الدكتور الشيخ محمد عبد الرؤوف رئيس المركز الاسلامي في واشنطن وهو مصري الجنسية مازحاً: «حلو قوي... الرئيس كارتر يشهر اقتناعه بوجهة نظر الامام شري الاسلامية الشيعية!».

في لقاء مع كيسنجر

وفي لقاء مع كيسنجر مستشار الرئيس الاميركي فورد لشؤون الأمن القومي، ووزير خارجية الولايات المتحدة في مطلع الحرب اللبنانية، حيث طلب كيسنجر أن يجتمع الى الشخصيات الدينية والسياسية الاميركية في ولاية مشيغن (وكان كيسنجر ينسب نفسه الى الحزب الجمهوري) كان الامام محمد جواد شري في مقدمة الحاضرين، وقد ابدى وجهة نظره حول «الفتنة الأهلية في لبنان»... معارضاً وجهة نظر كيسنجر القائلة بضرورة «إعادة

النظر في تركيبة لبنان» ولم يرق الاعتراض الذي أبداه الامام شري حول سياسات الولايات المتحدة في لبنان والشرق الأوسط، «للداهية» كيسنجر، ولكنه اضطر الى القفز من موضوع لبنان الى موضوع آخر!!

من ينصح الآخر؟

ومما يذكر، أنني كنت عندما تصلني تفاصيل مواقفه تمهيداً لنشرها في لبنان واطلاع الرأي العام على تفاصيلها، كنت أردف ذلك برسالة للامام أقول فيها: إن هذه المواقف، هي مواقف لا يتصدَّى لها إلاَّ فحول الرجال مثلك، ومواقفك هذه تملأ قلوبنا بالاعتزاز والفخر، ولكنني أرى أنك تعرّض نفسك للمخاطر، في مجتمع تعرف مدى السيطرة اليهودية الصهيونية عليه، علماً أنه هو شخصياً عندما تصله بعض الطروحات التي اطرحها في كتاباتي، كان يبعث لي ناصحاً بعدم الاندفاع، حرصاً على «أمني وحياتي!» وكأنه بذلك كان يجيب على رسائلي بطريقة غير مباشرة بما معناه: «قبل أن تنصحني لماذا لا تنصح نفسك؟!».

كيف شرح لعبد الناصر مسألة النفوذ الصهيوني

وعلى ذكر النفوذ الصهيوني في اميركا، فاتنا أن نذكر أنه خلال لقائه مع الرئيس عبد الناصر، قد سأله الرئيس عبد الناصر بوصفه مقيماً في الولايات المتحدة ومراقباً للأوضاع فيها، هل يتوقع انحسار النفوذ الصهيوني على السياسة الاميركية؟ فأجابه الامام شري: أريد أن «أبسّط» الأمر لسيادتك لكي تتأكد معي بأن انحسار هذا النفوذ أمر صعب في المستقبل المنظور على الأقل (إن لم يكن مستحيلاً).

فمثلما نرى أن عدة ملايين من الشيوعيين المنظمين في الاتحاد السوفياتي (في ذلك الوقت) يمسكون بكل مفاصل الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية ومراكز التأثير، فيحكمون اكثر من ٢٠٠ مليون

سوفياتي، فان في الولايات المتحدة «حزباً» صهيونياً منظماً بدقة قد تفوق دقة تنظيمه الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي، ويمسكون بمفاصل الحياة في اميركا، ولذلك فانني أنصح سيادة الرئيس بعدم تعليق أية آمال جدّية على امكانية حدوث تحول ملموس في سياسة اميركا الشرق أوسطية. بل اكثر من ذلك أنصحك يا سيادة الرئيس بألاَّ تتخلى عن سياسة التوازن بين الشرق والغرب ولأن العرب لا مفرَّ لهم من أن يستعينوا بقوى كبرى لكي تقف في وجه الانحياز الاميركي المطلق للسياسة الصهيونية!!

٥ ملايين دولار مساعدات طبية

ولقد استطاع الامام شري التأثير خلال فترة من فترات النضال الفلسطيني (مجازر ايلول في الأردن) على جمعيات غوث اميركية، بواسطة بعض الفعاليات الاغترابية (مثل المرحوم جيمس خليل) والحصول على «مساعدات» وصلت احياناً الى ما يقدر بخمسين طناً من الأدوية، يصل ثمنها الى «٥ ملايين دولار» ولدرجة أن جمعيتي الصليب الأحمر والهلال الأحمر، والجمعيات الخيرية في لبنان طلبت منه خلال احدى زياراته للبنان، العمل على امدادها بهذا النوع من المعونات، ولم يكن يأل جهداً في إرسال التبرعات من المغتربين بعشرات ألوف الدولارات لتوزع على ضحايا الحرب الأهلية اللبنانية أو الاعتداءات الاسرائيلية في الجنوب، وكانت هذه المساعدات تقتطع عن أفواه المغتربين لترسل تارة باسم العلامة فضل الله، وطوراً باسم الرئيس نبيه بري وحركة «أمل»... وأحياناً يذهب موفدون من «المركز الاسلامي في اميركا» لتوزيعها بأنفسهم على المحتاجين في القرى الجنوبية، بل انه خلال الحرب بين العراق وايران واعتبار صدام معتدياً، جُمعت تبرعات لشراء أدوية واسعافات لضحايا الحرب، وكانت هذه المساعدات ترسل عبر كندا، بسبب عدم وجود سفارة لايران في واشنطن.

ومن المفارقات، أن الخمسين طناً من الأدوية التي ارسلت الى منظمة التحرير والهلال الأحمر الفلسطيني (الذي كان يرأسه فتحي عرفات شقيق ياسر عرفات)، والتي أشرفتُ أنا شخصياً على استلامها في مطار بيروت وتسليمها بعد ذلك للمنظمة لم تحظ «بوصل» واحد من الذين استلموها، الى أن اضطررتُ إلى الاجتماع الى فتحي عرفات، فقدَّم ايصالاً وكتاب شكر أرسلناه إلى الجمعية التي تبرَّعت بالمساعدات، بواسطة السيد جيمس خليل و«المركز الاسلامي في اميركا».

في قانا الجليل... مع الشباب

ولكي نختم هذه الحلقة ببعض المشاهد «المضحكة ـ المبكية»، نذكر أنه خلال محاضرة دعت اليها عدة جمعيات جنوبية في قانا وجويا وغيرها من القرى (نادي جويا الاجتماعي ونادي رابطة الشباب التقدمي في قانا، وجمعيات أخرى وجهت دعوة للاستماع الى محاضرة يلقيها الامام شري في حسينية قانا، خلال زيارة قام بها الى لبنان) بدأ الشباب يطرحون الاسئلة عليه بعد انتهاء المحاضرة، ومن بين هذه الأسئلة سؤال يقول: لماذا لا تقترح، بعد حديثك عن الامكانات العربية والتقصير الرسمي العربي، أن يتولى الشعب بنفسه مواجهة اسرائيل فنحن مائة مليون عربي (في ذلك الوقت) فليقتل منا عشرون مليوناً ويبقى ثمانون مليوناً، فكان جواب الامام شري المفحم والمختصر ولكن أنت هل تريد أن تكون من العشرين مليوناً الذين يقتلون.. أم من الثمانين مليوناً، الذين سوف يعيشون؟!

فلم يُحر السائل جواباً... وسط المرح في قاعة الحسينية، وأردف يقول مخاطباً الشباب: عندما لا يفكر أحدنا بأن «الآخرين» يجب أن يقتلوا، وان يبقى هو حياً، عندئذٍ يبدأ انتصارنا على أعدائنا.

قبل أن نبحث عن المناصب يجب أن نسأل: هل تبقى الأرض؟!

وفي احدى الحفلات التكريمية التي أقامها له حزب لبناني يتزعمه أحد السياسيين وحضره عدد كبير من العلماء، وهم «يطمعون» باقناعه في ان يتولى رئاسة المجلس الشيعي، قال مخاطباً إيّاهم: «قبل أن تفكروا في من يستلم هذا المنصب أو ذاك تعالوا ننقذ الأرض المهددة بالعدوان، والتي قد لا يبقى عليها سكان أو زعماء أو قياديون». . وأضاف قائلاً: «انني أعجب كيف أن الجنوب كله مهدد ونحن منصرفون الى المكائد والتنابذ والتحاسد، وأعجب أن الدولة اللبنانية، لا ترى أن الوضع في الجنوب يهدد كل لبناني، بينما نرى أن تهديد حجر واحد في أي بلد تنتمي اليه أية أمة حيّة، يعتبر تهديداً للبلاد كلها!».

موقـــف

في مطلع ولاية الرئيس امين الجميل، أراد أن يزور الولايات المتحدة لكي «يستنجد» بها ضد سوريا. . وكانت اتفاقية ١٧ أيار قد عقدت، وبمجرد أن وصل الرئيس امين الجميّل الى واشنطن، بدأ اتصالاته عبر بعض «الوسطاء» تمهيداً لزيارة ديترويت بعد هيوستون، وكان أول اتصال جرى مع «المركز الاسلامي في اميركا» والامام شري في محاولة لاقناعه باستقبال الرئيس امين الجميل، وهو (أي الرئيس الجميل) مستعد لأن يكون لقاؤه مع المغتربين في بهو «المركز الاسلامي في اميركا» دون سواه. . . ولما كان الامام شري على علم بما حدث في بئر العبد، عندما قام رجال الأمن بالهجوم على المعتصمين في مسجد الامام الرضا ضد الاتفاقية اللبنانية ـ الاسرائيلية، وسقوط ثلاثة قتلى، فقد أبى الامام شري وأعضاء «البورد» المساومة، ولم يكتف الامام شري بهذا الموقف بل أصدر بياناً ضد الزيارة وطلب القيام بمظاهرة ضد الاتفاقية اللبنانية ـ الاسرائيلية، كان هو على

رأسها! وألقى فيها خطاباً قرب دار البلدية، وقد أحدث موقف «المركز الاسلامي» والامام شري ضجة اعلامية، واعتبر موقفاً لـ«الجالية اللبنانية عموماً والمغتربين من ابناء الجنوب على وجه التحديد».

عندما زار امين الجميل ديترويت

وقد جاء امين الجميل بالفعل، ولكن لم يكن في استقباله أحد يذكر من اللبنانيين الجنوبيين، واكتفى البعض باللقاء معه وابداء اعتراضه على سياسة حكومته، وذلك في مقر المحفل الماسوني الذي حلَّ فيه، والذي كان يتسع لخمسة آلاف كرسي، بقي أكثر من نصفها فارغاً، واقتصر الحضور فيه على فئة محدودة من طائفة واحدة، مع مقاطعة اجمالية حتى من ابناء الطائفة التي ينتمي اليها امين الجميّل، وكان قنصل لبنان في ذلك الوقت، موالياً لاتفاقية ١٧ أيار، وقد بذل جهوداً «مخلصة» ومستميتة لانجاح الزيارة، ولكن تلك الزيارة لم يكتب لها النجاح، وكان موقف الامام شري بالذات عميق المغزى، إذ أنه وضع ثقله الشخصي في موقف وطني واضح، في وقت كاد يتخلى فيه الكثيرون عن موقفهم المعارض لأمين الجميل، بمن فيهم عناصر قريبة من الذين اعتصموا ضد الاتفاقية، وخطب بعضهم مؤيداً إياه فيما بعد، . . . وبعضهم الآخر نصح باستقباله عند وصوله الى ديترويت على أن يقدّم الوفد الذي يستقبله «مطالب» الى الرئيس اللبناني، وكأن المسألة هي مسألة شق طريق أو جرّ مياه أو اصلاح شبكة هاتف. . . وهو كان يسعى للقاء مع المغتربين بأي وسيلة حتى لو انتقدوه و«شتموه» خلال اللقاء!

مجلس رؤساء الطوائف

وكان الامام شري حرصاً منه على وحدة الصف اللبناني في أميركا قد سعى لانشاء مجلس «لرؤساء الطوائف اللبنانية في اميركا» فكان هذا المجلس يضم المطران زايك مطران الموارنة في اميركا الشمالية، والمطران

فيليب صليبا مطران اللبنانيين الارثوذكس في اميركا الشمالية ايضاً، والامام شري ممثلاً المسلمين الاميركيين شيعةً وسنة. . . وان كان الدكتور محمد عبد الرؤوف امام المركز الاسلامي في واشنطن يحضر لقاءات مجلس رؤساء الطوائف بوصفه مصرياً عربياً وممثلاً عن طائفة السنة. . وكانت مهمة هذا المجلس عقد الاجتماعات الدورية، ودراسة أوضاع اللبنانيين في اميركا، وأوضاع اللبنانيين في الوطن الأم لبنان، حيث كانت تدور رحى «الفتنة الكبرى» على ارضه، وقد بذل الامام مع اخوانه من ممثلي الطوائف جهوداً مضنية لتوضيح عدالة القضية الفلسطينية من جهة، وحق لبنان في الأمن والاستقرار وتحرير الأرض من جهة أخرى، وقد عقد مجلس رؤساء الطوائف لقاءات متعددة مع الادارة الاميركية وخاصة في عهد الرئيس ريغان الذي حكم لمدة ثماني سنوات، وكانت معظم الأحداث اللبنانية قد جرت في عهده، كما كان رؤساء الطوائف يعقدون لقاءات مع الوفود العربية في الأمم المتحدة.

وكان السفراء العرب في واشنطن وممثلو الدول العربية في الأمم المتحدة، يرون في تحرك مجلس رؤساء الطوائف عدماً هاماً لجهودهم ولمواقفهم، حتى أن ممثل مصر في الأمم المتحدة الذي اصبح فيما بعد اميناً عاماً للجامعة العربية، وهو الدكتور عصمت عبد المجيد، اقام مأدبة لرؤساء الطوائف، بعد لقائهم مع الرئيس ريغان وأعلن في خطاب ألقاه في المأدبة، بأن تحرك رؤساء الطوائف من اجل توضيح الموقف اللبناني من القضية الفلسطينية ومن اجل انهاء الحرب ـ الفتنة ـ الدائرة في لبنان، هو أهم تحرك لبناني وعربي في تلك المرحلة.

مجلس «أئمة» المراكز

وقبل مجلس رؤساء الطوائف اللبنانية في اميركا، كان الامام شري قد

سعى الى انشاء مجلس لأئمة المراكز والمساجد السلامية في اميركا، إذ لم يكن سعيه مقتصراً على وحدة الصف اللبناني المسلم والمسيحي، بل كان يرى من باب أولى ايجاد تعاون عملي بنَّاء بين ممثلي المراكز الاسلامية في اميركا.. وكانت مهمة هذا المجلس للأئمة تدارس أوضاع المسلمين الاميركيين والأحداث الطارئة على الأرض الاسلامية نفسها، وتوحيد مناهج التدريس الاسلامي في اميركا، وتوحيد الاعياد وغيرها من المسائل الحيوية، وكان تعاون هذه المراكز الاسلامية السنية والشيعية، نموذجاً للعمل الاسلامي المشترك واتخاذ المواقف واصدار البيانات المشتركة حول القضايا الطارئة التي تهم المسلمين، وكان مجرد لقاء الامام الشري مدير «المركز الاسلامي في اميركا» الذي يمثل قاعدة غالبيتها الساحقة من الشيعة مع مراكز اسلامية معظمها سنّي في طول اميركا وعرضها وحتى باشتراك ممثلي مراكز كندا، دليلاً على أن القيادة الديناميكية تستطيع تجاوز الاعتبارات الطائفية، ورغم أن معظم رؤساء المراكز الأخرى من الأخوة السنَّة، فقد كان «للمركز الاسلامي في اميركا» بطابعه المعروف لدى الجميع، المكانة المرموقة والدور الأكبر في قيادة العمل الاسلامي في تلك البلاد، وكان المسلمون من جميع الفئات والمذاهب الاسلامية ينظرون اليه نظرة توحيدية ودية، متجاوزين كل الاعتبارات المذهبية والحساسيات الطائفية.

بعض الذكريات عن زياراته للبنان

ولعلَّ بعض الذكريات عن الزيارات التي كان يقوم بها الامام العلامة محمد جواد شري الى لبنان، تنعش «ذاكرة» الكثيرين لاستعادة مواقفه التي كانت على تماس مع مواقفهم، قبل أن تقع الحرب ـ الفتنة في لبنان.

اللقاء بين الامام والبطريرك المعوشي:

من هذه الذكريات، لقاؤه مع البطريرك المعوشي، بعد أن قام المطران

ابي نادر بزيارته في منزلي في رأس النبع، وكان المطران ابي نادر حينئذٍ مسؤولاً عن العلاقات العامة في البطريركية، وقد رتب للقاء بين الامام شري والبطريرك المعوشي، وقد أخذ البطريرك على عاتقه بناءً لنصيحة بعض الفاعليات السياسية الشيعية، مهمة اقناع الامام شري بالاستقرار في لبنان، تمهيداً لتولي مسؤولية رعاية الطائفة الشيعية، وكانت هذه القيادات قد بدأت تفكر بانشاء مجلس اسلامي يتولى رعاية شؤون الطائفة أسوة بالطوائف الأخرى، وكانت تبحث عن وجه قيادي ديني مؤهل لهذا المنصب. وكانت اهداف زيارات الامام شري المتعاقبة الى لبنان، تنحصر في ضرورة تفقد وطنه، وزيارة والدته وشقيقه وأقاربه، ولم يكن الآخرون يتركونه يستريح، فكانت تنظم له المحاضرات والمآدب وحفلات التكريم واللقاءات مع القيادات الدينية والسياسية والحزبية، وكان خلال وجوده في لبنان شغل الاعلام الشاغل. ولعل من المفيد أن نذكر جانباً من الحوار الذي دار بينه وبين البطريرك المعوشي في ذلك اللقاء الذي تم بينهما في بكركي، وحضرت شخصياً جانباً منه . .

استعرض البطريرك العلاقات بين الشيعة والموارنة وخاصة في جنوب لبنان، على اعتبار أنه هو نفسه (أي البطريرك) من جنوب لبنان، وقد قضى فترة في ابرشيتي صور وجزين، وخلص الى القول: تعال إلى لبنان لأضع يدي في يدك ونعمل سوياً، فكان جواب الامام: اننا نعرف انك أقمت مدة في الولايات المتحدة وتعرف اللبنانيين هناك، فلتتفضل غبطتك وتلبي دعوتنا فتتفقد الجاليات اللبنانية هناك، وخاصة أننا علمنا بأنك بصدد زيارة قريبة تقوم بها الى الولايات المتحدة، وركَّز غبطة البطريرك على أن الموارنة وليس غيرهم من الطوائف الأخرى الاسلامية والمسيحية، هم الأقرب الى الشيعة. فكان تعليق العلامة الشيخ محمد جواد: لقد كان يأتيني الصحفيون في اميركا وخاصة من جريدتي «ديترويت فري برس» و«ديترويت نيوز» وهما

اكبر صحيفتين في الولاية التي نقيم فيها (ولاية مشيغن) وكانوا يسألونني عما اذا كانت «ثورة» ١٩٥٨م، هي «ثورة» طائفية من جانب المسلمين فكنت أنفي لهم عنها طابعها الطائفي، بدليل أن غبطة البطريرك الرئيس الروحي للمسيحيين في لبنان على رأس من تسمونهم «الثوار» المسلمين، ونحن الذين كنا نعتقد في تلك الفترة، انك تمثل رمز الوحدة الوطنية اللبنانية ولا تفرق بين مسلم ومسيحي، لا يمكن أن تقرّ التفرقة بين مسلم ومسلم، فجميع الطوائف في نظرنا قريبة من بعضها البعض، وأنا مع رص الصف المسيحي الواحد، لأن فيه خدمة للبنان، ومع رص الصف الاسلامي الواحد، وهذا ما سعيت إليه عندما نجحت في حمل الأزهر على إصدار فتوى الاعتراف بالمذهب الشيعي، وكان ذلك فاتحة لكي يلتقي الارثوذكس والكاثوليك في المجمع المسكوني في الفاتيكان، ونحن كنا سعداء بهذا التآلف بين الطوائف المسيحية، ونحن في اميركا نسعى عن طريق مجلس «رؤساء الطوائف» اللبنانية الاسلامية والمسيحية، أن نكوّن نواة نموذجية للوحدة الوطنية.

عندئذٍ بدا واضحاً، أن غبطة البطريرك رأى أن الأمر لا يحتاج الى مزيد من البحث، فانتقل ليتحدث عن رسالة قداسة البابا، المتعلقة بالعدالة الاجتماعية وهي عبارة عن كراس وجه فيه البابا «رسالة» إلى المسيحيين في العالم يشرح فيها وجهة النظر المسيحية بالنسبة للقضايا الاجتماعية المعاصرة.

سبب الإلحاح

وكان إلحاح غبطة البطريرك المعوشي آنذاك على ضرورة اللقاء مع الامام شري بسبب اطلاعه على طروحات أدلى بها الامام شري ـ كما صرَّح بذلك مبعوثه الى الامام شري الأب خليل ابي نادر ـ في كنيسة الكلدان حيث

أثار نقاطاً هامة تتعلق بالعلاقات بين الطوائف في لبنان وحول وحدة الأديان، وكان مما قاله ان إحدى الفعاليات اللبنانية المسيحية في ديترويت «وودرو ودي» من برمانا اسمه الاصلي (وديع شيخاني)، بعد أن اطلع على أسلوب الامام شري في طرح الأمور الدينية، قال له مازحاً: لماذا لا تضع لنا «ديناً» يجمع كل الأديان ونرتاح من الفوارق بين الأديان، ما دمت بهذه الروح التوحيدية ولديك هذا الفكر الديني المستنير والعميق؟ فأجابه الامام شري مازحاً أيضاً: هذا الدين الذي تطلبه موجود، ولكن الكثيرين ممن يدّعون اعتناقه لا يطبقون ما فيه من علاقاتهم مع الأديان الأخرى، إنه الدين الاسلامي الذي جاء فيه القرآن مصدقاً لما بين يديه من التوراة والانجيل وهو يقرّ رسالة موسى ورسالة عيسى ويتضمن أسمى ما في الدين من تعاليم ويكمل ما هو مناسب لحاضر ومستقبل الانسان.

على مأدبة الرئيس فرنجية

وعلى ذكر السيد «وودرو ودي»... نذكر أنه خلال مأدبة اقامها الرئيس فرنجية للامام شري في قصره في اهدن، حضرها رئيس الوزراء تقي الدين الصلح، وكان ذلك عام ١٩٧٤م، وبحضور قائد الجيش وفاعليات أخرى، وقد حضرتها الى جانب الامام، بصفتين: صفتي أنني شقيقه الذي يرافقه الى اهدن، وبصفتي الاعلامية ايضاً، وبعد الغداء جلس الجميع في استراحة، سأل الرئيس فرنجية خلالها عن أوضاع المغتربين وعن السيد «وودرو ودي» بالذات لأنه يعرفه شخصياً، فذكرت له من «مآثر» «وودرو ودي» الحميدة، هو قربه من جميع الطوائف ومن «المركز الاسلامي في اميركا» ومواقفه الشجاعة عندما تُلمّ به خسارة أو صعوبة.. وذكرت له على سبيل المثال: أنه عندما احترق نادي «الهيل كريست» الذي كان منسوباً إليه، وهو من أكبر النوادي في مشيغن، جاء يشاهد الحريق بأم عينه... فسأله أحد الصحفيين وهو يرى ناديه الكبير يحترق: ما هو شعورك أمام هذا

المشهد؟ فقال: سوف ابني نادياً أفضل منه! فكان تعليق الرئيس فرنجية مازحاً. . . أنه صديقي وهو رجل طيب، ولكن الأمر ليس مجرد شجاعة. . . كان موقناً بأنه سوف يأخذ تعويضاً من شركة التأمين!

ومن مفارقات تلك المأدبة التي أقامها الرئيس فرنجية تكريماً للامام شري ان الامام شري امتنع عن الطعام بحجة «الحمية». . وكان لا يريد أن يعلن ذلك أدباً أمام الرئيس فرنجية الذي اراد أن يكرّمه. . فقال له الرئيس فرنجية بشيء من العتب الممزوج بغيظ مكبوت. . . لقد أقمتُ لك المأدبة. . . حتى تقول انك تعمل «رجيم»؟! سيّدنا إنس «الرجيم» ليوم واحد. . . ومن اجل خاطري. فما كان من الامام شري إلاّ أن بدأ يتظاهر بالأكل، أو يأكل من غير اللحوم غير المذبوحة ثم أخذ يروي للرئيس وللحاضرين الطرائف. . والقصص والتعليقات حتى يذهلهم عن مراقبته وهو يأكل. .

رحلته الافريقية

وفي فترة من الفترات، ضاقت به الولايات المتحدة على رحبها، فأراد أن يغير الاجواء ـ ولو بصورة مؤقتة ـ متفقداً الجوالي اللبنانية والاسلامية في بلدان غرب افريقيا، فزار نيجيريا وغينيا وسيراليون، وكانت محطة سيراليون أهم المحطات بالنسبة لهذه الرحلة نظراً لوجود تجمع اغترابي لا بأس به هناك، فكانت سيراليون عام ١٩٥٩ لا تزال تحت الحكم البريطاني وكانت السلطة فيها للمندوب السامي البريطاني، ولكن المغتربين كانوا من الاندفاع بعد أن سمعوا بسلوكه ومواقفه في كل من نيجيريا وغينيا، بحيث استقبلوه عند وصوله على طول الطريق من المطار الى قلب العاصمة فريتاون، ثم بدأت حملة خطابية تابعها اللبنانيون والأفريقيون على السواء، واقترح الامام شري على المغتربين نفياً لتهمة الاستعمار والاستغلال عن أنفسهم، أن

يقوموا هم بمبادرات تجاه الافريقيين، لا سيما أن الافريقيين بعد أن ينالوا استقلالهم، سوف ينظرون الى المغتربين وخاصة «اللبنانيين» الذين دائماً يعرفون من أين «تؤكل الكتف» سوف تعمل حكومات الاستقلال الافريقي على التضييق عليهم، فليبدأوا ومنذ الآن توطيد علاقاتهم معهم، ونفي روح الاستغلال عنهم، وقد أحبه الافريقيون واللبنانيون على السواء، وطلبوا منه أن يقيم بينهم ثلاثة أشهر على الأقل في السنة الواحدة، ولما كان من دعاة توسيع رقعة الانتشار اللبناني، وهو صاحب شعار بأن «الانتشار إذا لم يتسع وينتشر فانه سوف يتقلص وينحسر»! فلم يعترض على فكرة الاقامة فيهم شهراً أو أكثر في كل سنة، وخاصة أنه نجح في اقناع اللبنانيين في سيراليون ببناء مستشفى يقدمونه الى الافريقيين، بعد أن تبرعت الحكومة السيراليونية بقطعة الأرض عندما علمت بالمشروع.

مواجهة مع المندوب السامي البريطاني

وخلال محاضرة القاها وحضرها عدد كبير من الافريقيين اكثر من اللبنانيين كما حضرها «حاكم البلد» في ذلك الوقت المندوب السامي البريطاني، القى الامام شري خطاباً تحدث فيه عن دور اللبنانيين ورسالتهم في الخارج. وقد أراد المندوب السامي أن يلقي كلمة جوابية فانتقد المغتربين اللبنانيين واتهمهم باستغلال الافريقيين، رغم احترامه وتقديره لكل ما قاله «الضيف الكبير»... ولكن الامام شري، لم يترك الأمر للمندوب السامي، فتحدث امامه وجهاً لوجه عن «مظالم» الاستعمار البريطاني في افريقيا، وعقد مقارنة بين اللبنانيين الذين اخترعوا الأحرف الهجائية، وكانوا من اسباب الحضارات كلها في العالم، وبين الاستعمار الذي يستغل الشعوب. وقال للمندوب السامي: إن أخطاء المغتربين نحن بصدد اصلاحها، وخلق روح جديدة بينهم وبين الوطنيين الافريقيين، فدعونا نتابع هذه الروح ولا حاجة لنكأ الجراح وإثارة التفرقة بين اللبنانيين

والافريقيين. . وكان سكوت المندوب السامي عن الرد على هذا الرد، دليل فقدان الحجة أو الاقتناع بحجج الامام شري!

ولقد بلغ من نجاح تلك الرحلة، انه خلال محاضرات القاها في غينيا (التي كانت في السابق تحت الحكم الفرنسي) وقد حضر احداها مؤسس جمهورية غينا الحديثة الدكتور احمد سيكوتوري، انه أصرّ عند مغادرة الامام شري لغينيا، أن يذهب لوداعه بنفسه في المطار!

دين الحرية

قبل ذهابه الى الولايات المتحدة وبعد تخرجه من النجف الأشرف، نهض الامام شري مع بعض زملائه الذين توسم فيهم روح التجديد والثورة على الأساليب القديمة على الصعيدين الديني والسياسي وفي طليعتهم العلامة الشيخ محمد جواد مغنية، فكانوا يلبّون دعوات المؤسسات الثقافية والنوادي ويصدرون بيانات حول الأوضاع السائدة في جبل عامل، تحمل اسميهما. . . وقد اطلق عليهما لقب «العالمين المجدّدين». وكان العلامة شري في حينه لا يزال في ميعة الصبا وشرخ الشباب، مما جعل بعض الزعامات السياسية تتخوف من هذه الحملة الدؤوبة للتثقيف والتوعية، وكان من أهم المحاضرات التي ألقاها العلامة الراحل في تلك الفترة، محاضرة في بهو كلية المقاصد في صيدا، بعنوان «دين الحرية» تركت اصداء واسعة طيبة في صفوف الجيل الجديد على الأخص، وخفّ عدد من السياسيين «المتحررين» الذين حضروها، لإقامة علاقة صداقة مع العلامة الراحل مبنية على التقدير العميق لهذه الروح الوثّابة. . .

احتفال في غياب المؤلف

في هذه الأثناء كان الامام شري قد ألّف كتاباً محدود الصفحات ولكنه أحدث دوياً في الأوساط العلمية والثقافية، نظراً لطرحه الجديد واسلوبه

المنطقي العلمي وهو كتاب «الخلافة في الدستور الاسلامي» عقد فيه مقارنة بين دستور الحكم الذي اشترعه الاسلام في عهد الرسول ودساتير وقوانين الحكم المعاصرة، وعرض فيه الى مسألة «الخلاف» الذي وقع في فترة ما بعد وفاة النبي، وأثبت بالأدلة المقنعة أهمية الاستمرارية المتمثلة بالامام علي، وقد بلغ من تقدير أهمية الكتاب أن «جمعية منتدى النشر» وهي أهم حركة ثقافية وعلمية ودينية تجديدية في النجف الأشرف في تلك الفترة.. قد أقامت احتفالاً حول الكتاب في غياب المؤلف تعاقب فيه على الكلام عدد من كبار العلماء والكتّاب والشعراء في العراق وفي طليعتهم اثنان من ابرز العلماء والمجددين يومذاك وهما: الشيخ محمد رضا المظفر والسيد محمد تقي الحكيم... وأحد المصلحين الدينيين الكبار الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء وقد جُمعت هذه الكلمات في عدد خاص من مجلة «الغريّ» وهي أهم مجلة تصدر في النجف الأشرف (و«الغريّ» هو أحد اسماء النجف الأشرف نفسها). وجدير ذكره، أن العلامة الدكتور طه حسين احد اكبر كتّاب وأدباء مصر على الاطلاق، قد بعث للمؤلف يومذاك يقول: «إن ما ألّف في هذا الباب (قضية الخلافة) على مرّ السنين، يملأ فراغ مئات الأمتار طولاً وعرضاً... ولكن هذا «الكتيّب» يُغني عنها جميعاً، لأنه يحسم الأمر في هذا الموضوع الحساس».

نواة: أخو الرسول

وقد كان هذا الكتاب نواة لكتابه الذي ألّفه في أواخر السبعينات ومطلع الثمانينات، وهو كتاب «أخو النبي» باللغة الانكليزية... والذي ترجمه بنفسه الى العربية بعد تأليفه بالانكليزية بعنوان «أمير المؤمنين»، وقد بذل في تأليفه جهداً كبيراً، بحيث قضى الشهور الطوال في التنقيب والتدقيق والتحليل والبحث، واملاء صفحاته على بعض مساعديه وتسجيله على اشرطة، والسهر طوال الليل لعدة شهور متعاقبة، نظراً لمشاغله في الأمور

المتعلقة بالمركز والأمور العامة خلال النهار، حتى أنني خلال زيارات قمت بها الى اميركا في تلك الفترة، كنت أشعر بالألم والاشفاق، رغم أهمية هذا العمل الجليل، لأنه لا بد أن يؤثر عليه صحياً، علماً أن الله أعطاه بسطةً في العلم والجسم، وقوة بدنية فائقة، وبالفعل فانه في نهايات انجاز هذا «السِفر» العظيم، باللغتين الانكليزية والعربية، اضطر لاجراء عملية القلب المفتوح في مدينة كليفلاند في ولاية اوهايو، وكانت عملية ناجحة جداً، عاد بعدها الى نشاطه بقوة وديناميكية، وحتى عندما خاض ملحمة الألم الشديد في الفترة التي سبقت رحيله، فان قلبه بالذات، ظل «قوياً» كقلب انسان في مطلع شبابه. كما صرَّح بذلك الأطباء بعد كل الفحوصات التي أجريت له.

الأحقاد الإثنية والعنصرية

ويمكن القول، أنه لو لم يحدث «إهمال وسذاجة» واحياناً ـ وخاصة في الأيام التي سبقت رحيله ـ والذي يكون متعمداً، بل هو متعمد بالفعل، من جهات طبية لها «احقادها» الإثنية والعنصرية، لأمكن استنقاذه على الأقل من ناحية القوة الجسدية، لأنه قبل دخوله المستشفى لأول مرة، كان «شاباً» في الثمانين من عمره.. وكان لا يستطيع أحد اللحاق به عندما يمشي وكان يصعد درجات السلّم منتصب القامة، وكان إذا وضع يده في يدك تشعر بقوته غير العادية وهو يضغط على يدك..

وعلى طريقة «الكيّس أو الفَطِن مَن لم يهمل ذكر الموت» مهما أحاط به من صَخَب الدنيا. فقد كان وهو في أوج عطائه وذروة تألّقه، يمرر ذكر الموت ولو من قبيل واقعة طريفة تتعلق به، وعلى سبيل المثال: فقد روى للعائلة في احدى الزيارات التي قام بها الى لبنان، ان أحد رجال الدين من آل الجمالي، كان في الأرجنتين، جاء لزيارة المركز الاسلامي في ديترويت، بعد أن سمع عنه الكثير.. وبعد أن تفقده ضحك وقال للامام شري: لقد

أخبروني أنك بنيت لنفسك بيتاً كبيراً، ثم وضعت عليه يافطة أسميتها المركز الاسلامي. . . ثم أخذ الشيخ الجمالي يلعن «المنافقين» الذين يحسدون المجاهدين على جهادهم، وعلى طريقة:

«هم يحسدوني على موتي فواأسفي   حتى على الموت. . لا أخلو من الحسد»

«فأنت تبذل طاقاتك ومواهبك وجهدك وعرقك ودم قلبك في سبيل الناس، ومع ذلك فانك لا تنجو من ألسِنة السوء. . . وبعد أن وصل الى وسط المركز. . قال: وهنا بعد عمر طويل سوف يدفن مؤسس هذا المركز وتوضع على ضريحه لوحة تحمل اسمه». وهنا أجهشت العائلة كلها بالبكاء. . ورغم أن الامام شري في ملحمة صراعه الشديد مع الألم في الأشهر الأخيرة، كان يستشهد كل يوم، فقد مات شهيداً بالفعل، بمعنى أنه أُميْتَ ولم يمت بصورة طبيعية. وليس الآن أوان تفصيل ذلك، وهذا هو أشد ما يؤلم بالنسبة إليّ في كل مأساة وكارثة غيابه!

بعض تفاصيل لقائه مع الأسد

ولقد جاء الى «المركز الاسلامي في اميركا» من يطلعني على تفاصيل لم أكن أجهلها بشكل عام، ولكن روى لي تفاصيل دقيقة عن واقعة كان مطلعاً عليها وتابعها بنفسه، وهي تتعلق بدعوة رسمية كان قد وجهها اليه الرئيس العربي السوري حافظ الأسد، تزامنت بعد أقل من سنة من رحيل والدته، والتي دفنت في رحاب السيدة زينب في احدى ضواحي دمشق، ومن بين وقائع وتفاصيل ذلك اللقاء التاريخي الذي تم بينه وبين الرئيس الأسد والذي استمر لمدة ٤ ساعات بعد أن كان مقرراً له ٤٥ دقيقة، ان الامام شري ذكر له بعض التفاصيل عن مهمة نشاط المركز الاسلامي، وعن حاجة المركز لمدرسة من أجل تنشئة الأجيال على التراث العربي والاسلامي، دون أن يقصد طلب المعونة من الرئيس الأسد على هذا الصعيد، لأنه يعرف أن

طاقات الجمهورية العربية السورية في تقديم المساعدات محدودة. ولكن الرئيس الأسد لشدة تأثره لما سبق من طروحات عرضها الامام شري بفكره الثاقب ونظرته البعيدة حول أمور تتعلق بالقضايا العربية ووسائل مجابهة النفوذ الصهيوني ومستقبل الوضع في كل من لبنان والعراق، وحول وسائل إزالة العصبيات الطائفية بين المسلمين، انبرى الرئيس الأسد في نهاية اللقاء، لسؤال الامام عما يحتاجه بناء مدرسة لائقة تكون تابعة «للمركز الاسلامي في اميركا» وهو يهمّ بكتابة الرقم الذي «يمليه» الإمام.. فقال له: إن مالكم يا سيادة الرئيس تحتاجه عائلات الشهداء ويحتاجه الصمود، ولو كان هناك خير عند حكام الدول العربية الميسورة، لأمدوكم بالدعم المادي اللازم، لانكم تدافعون عنهم وعن الأمة جمعاء... وعندما ذكرتُ لكم ما ذكرت عن أوضاعنا فلكي أضع سيادتكم في الصورة، وليس بقصد أخذ المعونة منكم.. ورغم إلحاح الرئيس الأسد في تحديد الرقم اللازم... بقي الامام شري على اصراره في عدم اخذ المعونة من بلد يتوجب على الجميع أن يدعموه.

بعيداً عن المذهبية

ورغم أن بعض «صغار العقول» يظنون أن لقاءً يتم بين شخصية دينية عملاقة وبين رئيس تاريخي كالرئيس الأسد، وهما من انتماء مذهبي متقارب، سوف يكون فرصة لتدعيم «تحالف مذهبي» معين، فان الامام شري وجد اللقاء فرصة لطرح امر مختلف جداً، بل يكاد يكون نقيضاً لهذا الاتجاه، فقد عاد الامام شري لما سبق ان طرحه في مطلع الستينات، عندما دعا لازالة الطائفية عملياً بين السنّة والشيعة في لبنان، وذلك بانشاء مجلس اسلامي موحد، وان يكون منصب مفتي الجمهورية في لبنان مداورة بين السنّة والشيعة، فيكون مفتي الجمهورية تارة سنياً ونائبه شيعياً، ويكون تارة

شيعياً ونائبه سنياً، على أن تكون مدة ولايته كما كان الشأن في سوريا نفسها سابقاً، لمدة ثلاث سنوات.

ومما يدل على سرعة المبادرة عند الرئيس الأسد، عندما يتبنى فكرة تروق له، فإنه بعيداً عن كل شعور طائفي، رأى الاقتراح وجيهاً، وأوعز الى الشيخ احمد كفتارو مفتي الجمهورية العربية السورية وهو صديق للامام شري، ان يبذل مساعيه لدى السنّة في لبنان لتحقيق هذه الفكرة، وان يبذل الرئيس الأسد شخصياً من جانبه جهده على هذا الصعيد، على أن يتولى الامام شري الاتصال بالقيادات الدينية الشيعية، لكي يكون هنالك انسجام وتجاوب على هذا الصعيد، وبالفعل انبرى مسؤولو القيادات الشيعية في لبنان، في تلك الفترة الى إعادة طرح المشروع الذي كان قد بادر الامام شري الى طرحه قبل انتخاب الشيخ حسن خالد لمنصب مفتي الجمهورية، حيث دعا لاشراك العلماء الشيعة مع السنّة في انتخاب المفتي، على أن يكون الافتاء مداورة... وكان ذلك في أعقاب مسعاه لدى الأزهر، باصدار فتوى «المساواة» في التعامل بين المذاهب السنية الأربعة والمذهب الجعفري الامامي الاثني عشري.

كفتارو والامام شري

أما صداقة مفتي الجمهورية العربية السورية الشيخ احمد كفتارو للامام شري، فتعود الى يوم مجيء الشيخ كفتارو الى الولايات المتحدة، بدعوة من «الجامعات السبع» وكان يشكو من شبه شلل في ساقيه، وقد نزل ضيفاً شخصياً على الامام شري في منزلة لمدة ١٨ يوماً... وحيث كان موضع رعاية واهتمام الامام شري الذي سعى لدى نخبة من الاطباء لاجراء عملية للشيخ كفتارو، وقد أجريت العملية بالفعل وكانت ناجحة، وان كان ظل يشكو شيئاً من البطء في السير، لدرجة انه عندما يذهب للصلاة في عيد

الأضحى أو عيد الفطر برفقة الرئيس الأسد، فانَّه يتكىء عليه خلال المسير.

وعندما عاد الشيخ كفتارو من رحلته الى اميركا أصرَّ على أن يزور منزل والدة وشقيق الامام شري في رأس النبع ببيروت، وكذلك قمت انا ووالد زوجة الامام شري المفتي الجعفري السابق الراحل السيد حسين الحسيني بزيارة سماحة مفتي الجمهورية العربية السورية في بلودان. وبعد ذلك استطاع المفتي الحسيني اقناع الشيخ كفتارو بالقيام بزيارة المجلس الاسلامي الشيعي الأعلى في الحازمية لتهنئة الامام الصدر بانتخابه، واتصل بي الامام الصدر وقال: انني أدعوك لأن تكون حاضراً، فهو صديق لسماحة شقيقك، العلامة محمد الجواد، وقد وجدت أن أفضل تكريم له يكون بحضورك.. وبالفعل كان اللقاء حاراً بحضور كوكبة من العلماء وأركان المجلس الاسلامي الشيعي الأعلى وقد تبودلت خلاله الخطب والهدايا..

وعلى ذكر اللقاء بين الرئيس الأسد والامام شري، والذي كان فرصة لزيارة الامام شري لضريح والدته في جوار العقيلة زينب، هناك أمور خطيرة تم بحثها بين الرجلين وهي تتعلق بانقاذ الشعب العراقي من الظلم، ليس الآن مجال ذكرها..

الرئيس الأسد وجاكسون والامام شري

ولم تتوقف العلاقة عند هذا الوجه الواحد من مستواها العالي بين الرئيس الأسد والامام شري، ففي فترة البحث في قضية الرهائن، أجرى الامام شري اتصالاً بالرئيس الأسد يتعلق برحلة يقوم بها القس جاكسون المرشح الأسود للرئاسة في اميركا، وقد نجح جاكسون في جلب بعض الرهائن بناءً لوساطة ومساعي الرئيس الأسد، وقد احتفل «المركز في اميركا» بعد عودة جاكسون بهذه المناسبة وحضر المرشح الديمقراطي الأسود وتبادل الخطب مع الامام شري، وكان لقاءً مشهوداً بين الجالية. وهذا القيادي

الأسود، الذي تعمد الرئيس الأسد والامام شري كل بدوره تعزيز مركزه نظراً للتعاطف القائم بين العرب المضطهدين وبين الشعب الافريقي في اميركا.

وإذا كان بعض المقرّبين من الرئيس الأسد لا يزالون يذكرون كيف أنه تقديراً منه للامام شري، أبى إلاّ أن يسير الامام شري امامه عند وداعه في عرين الأسد، وأبى إلاّ أن يفتح له باب المصعد بيده، نظراً لما لمسه فيه من سموّ الخلق والترفع الى جانب البصيرة النافذة والادراك السياسي العميق والتبحر الديني (لأنه طرح أمامه أسئلة دينية كثيرة... وجد فيها الرئيس الأسد الجواب الشافي)، فان قضية «النزاهة المالية» وهي المحك لكل نزاهة، كانت تتجلّى حتى في حياته اليومية، فلقد كان يرفض تلقي الخمس، وهو لو شاء لدرَّ عليه عائدات غير محدودة، وهو الذي كان لو جاءته هدية مالية باسمه وتقديراً شخصياً لعمله وفضله، كان يأبى إلاّ أن يقدّمه للمؤسسة العامة، وإن كان هو قد انشأها بنفسه!

بعض الأمثلة عن ترفعه المالي

ومن المواقف المشهودة على صعيد ترفعه المالي رغم حاجته مصداقاً للآيتين الكريمتين: ﴿**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾ أي يعطون ما هو لهم للآخرين حتى ولو كانوا في حاجة، ﴿**وتحسبهم اغنياء من التعفف**﴾.. وحتى ما يصل اليه من حاجة ضرورية فانه قد يجود بها للآخرين إذا وجدهم قد احتاجوا اليها، وكأنه يترجم على الأرض ترجمة عملية قول الشاعر:

هو البحر من أيّ النواحي أتيته ... فلجّته المعروفُ والجودُ ساحلهُ
تــراه إذا مــا جئتــه متهلــلاً ... كـأنـك تعطيـه الـذي أنـت سـائلـه
تعـود بسـط الكـف حتـى لـو أنـه ... ثنـاهـا لقبـضٍ لـم تُطعْـه أنـاملـهُ
ولو لم يكن في كفه غير روحه ... لجـاد بهـا، فليتـقِ الله سـائلـه!

من هذه المواقف المشهودة، كما قلنا، على صعيد ترفعه المالي، انه عندما ارتضى البقاء في سيراليون لمدة محدودة كل سنة توسيعاً لدائرة نشاطه الرسالي، ان المغتربين هناك سارعوا للتبرُّع من أجل تأمين منزل مؤقت وسيارة ووسائل راحة ضرورية لاقامته، فجمعوا مبالغ لا يستهان بها لهذه الغاية، وبعد ان ابلغوه ما فعلوا، وسمع تحفظاً من شخص واحد، وربما عن حسن نيَّة، وأذكر اسم هذا الشخص لكي يكون الكلام موثقاً: وهو السيد نايف العلي ابو عدنان من بلدة حاريص، فأمر الامام شري باعادة الأموال كلها الى أصحابها، وعدل عن فكرة البقاء المؤقت أو الدائم وبشكل نهائي!

غيض من فيض

ولعلَّ هذه الشواهد على ضربه بحاجاته ومصالحه الشخصية عرض الحائط، تبدو محدودة وبسيطة رغم اهميتها امام ما يعرفه المغتربون انفسهم وبخاصة الذين عايشوه في عمله سنوات طويلة، وكيف كان يأبى إلاَّ أن يعيش حياة عادية.. وكانت مواقفه في نصرة القضايا المحقة والعادلة، لا تبالي بالحسابات والعواقب الشخصية، ولو ركز جهداً بسيطاً من اهتماماته العامة، على الكسب الشخصي والمالي، لاستطاع أن يكون من أثرى الأثرياء حتى بالطرق المشروعة والمألوفة.. ولكنه كان نسيج وحده على هذا الصعيد.

لكي يستعيد المرء شريط الوقائع، فانه قد يفوته وهو يتحدث عن الواقعة الواحدة، جوانب قد تكون هي الأهم فيها!

ففي معرض حديثنا في ما قد سبق، وعندما عدنا الى بعض الذكريات «الافريقية» من نشاط الامام الراحل، تحدثنا كيف أمر باعادة المال الذي جُمع، من اجل تأمين فترة إقامته هناك، والذي تم جمعه دون علمه، أعاده الى اصحابه بسبب موقف متحفظ لشخص واحد، ولكن فاتنا أن نذكر واقعة

مشهودة لا يزال يذكرها الكثيرون ممن شهدوها وهم لا يزالون أحياء.

فلقد قرر اتباع «الديانة» القاديانية، وهم من التجار الكبار في افريقيا، وهم باكستانيون ينتمون الى طريقة دينية قام بها احمد القادياني الباكستاني، وهم يلقبون تارة بـ«القاديانيين» وتارة بـ«الأحمديين»، أن يطلبوا «المناظرة» مع الامام شري في حفل عام.. وهم يريدون أن يثبتوا له ولـ«المشاهدين»، أن احمد القادياني هو أحد «الأنبياء» في هذا العصر، وقد تصدى «زعيمهم» في افريقيا يومذاك للكلام في البداية، فأعلن أمام الملأ: انكم انتم المسلمون السنَّة والشيعة تقولون بأنه لا نبي بعد النبي محمد بن عبدالله ﷺ وانه خاتم الأنبياء.. ونحن نأتي بكلام للنبي محمد ﷺ يُثبت إمكانية تكرار النبوة أو ما يشبهها بدليل قول الرسول: «يبعث الله لأمتي على رأس كل مائة سنة من يُجدد لها دينها»... وقد أرسل الله أحمد القادياني في مطلع هذا القرن، ليجدد دين هذه الأمة الاسلامية».

الاجابة المفحمة:

فسأل الامام شري زعيم «الطائفة الأحمدية» إن لكل نبي معجزاته، وكان أهم معجزة أتى بها النبي محمد ﷺ هي القرآن، فأين هي معجزة «نبيك»؟! ثم إذا صحَّ أن الله يبعث على رأس كل مائة سنة «نبياً»، وسلمنا جدلاً بأن أحمد القادياني نبي مرسل، فأين هم الأنبياء الاثنا عشر الذين بعثهم الله خلال ١٢ قرناً استبقت مجيء القادياني. فلم يحر «الزعيم» الأحمدي جواباً، وكان ذلك خاتمة «لنبوة» احمد القادياني في الأوساط الواعية الافريقية والاغترابية!

الاسلام على شاطىء الأطلسي

وقد ذكر الامام شري هذه الواقعة خلال محاضرة القاها في الخلية الاجتماعية في بيروت التي كان يتولى مسؤوليتها المرحوم الاستاذ عبد الله

مشنوق، وكان عنوانها: «الاسلام على شاطىء الأطلسي» لشدة ما تستعمل كلمة الأطلسي عند ذكر الحلف الأطلسي.

كاد يقع التباس عند بعض السطحيين الذين يدَّعون الفهم. . . فخلطوا عند رؤية عنوان المحاضرة بين ما يقصده الامام بهذا العنوان وبين لون سياسي معين، وبخاصة انه مقيم في اميركا، وهو يقصد تجربته حول اوضاع الاسلام والمسلمين في اميركا التي يقيم فيها وافريقيا الغربية التي زارها وتفقد أوضاعها الاسلامية، علماً أن كلاً من اميركا وافريقيا الغربية تقعان على شاطىء المحيط الاطلسي. وقد روى فيها للحضور بعض جوانب تجربته الفريدة في كل من اميركا وافريقيا، وطرحت في تلك المحاضرة اسئلة لم تكن «جديدة» عليه، لأنها هي ذاتها تقريباً تطرح عليه في بلاد المهجر، وإن كان قد تغيّر «طعم» هذه الأسئلة من الشباب الجامعي، عندما القى بعدها محاضرة في جامعة بيروت العربية حضرها عدد كبير من السياسيين والشخصيات الدينية وحشد من السفراء العرب. فقد تميزت تلك الاسئلة «بروح ثورية»، عالية ادخلت السرور والسعادة الى قلبه، وكان يجيب عليها بتدفق وقوة بحيث استمرت مع الاسئلة والاجوبة لمدة ٣ ساعات دون أن يشعر الحضور بالملل!

الدعوة الى تونس واسبابها

في تلك الآونة وجهت إليه دعوة لزيارة تونس من مفتي الجمهورية التونسية الطاهر بن عاشور، حيث القى سلسلة محاضرات في جامعة الزيتونة، دارت فيها حوارات مثيرة، وكان سبب توجيه الدعوة اليه، ان مفتي الجمهورية التونسية كان قد اطلع على بعض آراء الامام شري عام ١٩٥٩، عندما نشرت الصحف اللبنانية رأياً للامام شري بمناسبة قرب عيد الفطر، دعا فيه لاعتماد العِلم في اثبات العيد، لأن رؤية الهلال التي نصَّ عليها

القرآن لاثبات العيد أو بداية الصوم، انما هي وسيلة لاثبات ميلاد الهلال ولأنه لم يكن هنالك وسائل دقيقة أخرى لاثباته، وقد يكون الهلال قد ولد فعلاً، ولكن حجبته الغيوم، واليوم وبعد أن استطاع الانسان أن يوصل صاروخاً الى القمر (لم يكن بعد قد هبط انسان على سطح القمر في بداية الستينات)، ويستطيع العلم أن يضبط بالدقيقة والثانية توقيت انطلاق ووصول الصاروخ الى القمر نفسه (والهلال جانب مرئي من القمر في بداية الشهر)، هل نظل بحاجة الى التثبت من ميلاد الهلال بواسطة الرؤية وبالعين المجرّدة؟

إثبات الهلال علمياً

وأذكر اننا في فترة صدور تلك الفتوى كنا كصحفيين في زيارة تونس بدعوة من بورقيبه عندما «توسط» لاطلاق بن بيللا ورفاقه من سجن «لاسانتية» في باريس بعد محادثات أجراها مع ديغول، وقد اطلع عدد من الزملاء الذين كانوا في عداد الوفد الصحفي على رأي الامام شري حول الإثبات العلمي لولادة الهلال، بعد أن نشرته جريدة «العمل» التونسية الرسمية، نقلاً عن الصحف اللبنانية، فأبدى معظمهم اعجابه الشديد بهذا الطرح الجديد، «وتنبّأ» بعضهم بأن تكون هنالك ردود فعل معترضة عليه من كثير من رجال الدين الذين يأخذون النصوص بحرفيتها دون إعمال العقل والاجتهاد، وقد حدث شيء من ذلك . . . ولكن بيانات وآراء الدعم والتأييد قد صدرت عن عدد من العلماء، في لبنان والعراق، في حينه، وإن كانت هنالك آراء أخرى معترضة قد صدرت هنا وهناك، مع سكوت المراجع وآيات الله العظمى في النجف الأشرف وقم، الأمر الذي يوحي بعدم الاعتراض. وبعد ذلك بحوالي ١٠ سنوات، استطاع الامام موسى الصدر، أن يأتي «بفتوى» واضحة من المغفور آية الله العظمى السيد محسن الحكيم المرجع الديني الأعلى في النجف الأشرف (في ذلك الوقت) من أنه يجوز

إثبات الاهلال بالأساليب العلمية. وكذلك استصدار فتوى حول «طهارة أهل الكتاب»... وهي قضية أخرى تثير الحساسيات بين العلماء، وكان الامام شري قد سعى لاستصدارها من آية الله العظمى السيد محسن الحكيم، في جملة ما كان يسعى اليه، عندما زار النجف الأشرف إثر فتوى الأزهر التي اعترف فيها «أعلى مرجع سني في العالم» بصحة المذهب الامامي الجعفري الشيعي، وكان يطمح الى أن يُصدر كل من الامام آية الله العظمى السيد محسن الحكيم في النجف الأشرف وآية الله العظمى السيد حسين البروجردي في قم، فتوى «شيعية» تبادل الأزهر موقفه الايجابي.

العيد مختلف حتى في الجمهورية الواحدة؟

ولا بدَّ من الاشارة إلى أن جريدة «العمل» التونسية التي يشرف على سياستها رئيس الدولة نفسه، كتبت تعليقاً على وجهة نظر الامام شري المتعلقة بامكانية إثبات «ولادة الشهر» أو «الهلال» بالطرق العلمية، قالت فيه: إن هذا الطرح يحل اشكالات مزمنة تقع بين المسلمين بالنسبة لأعيادهم الدينية. ولم يكن لائقاً أن يحتفل المسلمون (في تلك السنة) بعيد الفطر في موعدين مختلفين، وفي «الجمهورية العربية المتحدة» التي كانت تتألف من مصر وسوريا، كان العيد في الأقليم الجنوبي من تلك الجمهورية (مصر) في يوم مختلف عن يوم العيد في الاقليم الشمالي من تلك الجمهورية (سوريا)!

هذه المواقف والآراء كانت قد لفتت انظار الفئات المثقفة في اقطار المغرب العربي، ولما كانت تونس أقرب بلدان المغرب العربي في طبائعها الى طبائع اللبنانيين، وهي تتابع حركات لبنان الثقافية والدينية والعلمية، فقد رأت في دعوة الامام محمد جواد شري الى جامعة الزيتونة، باسم مفتي الجمهورية التونسية الطاهر بن عاشور (في ذلك الوقت)، فرصة للتعرف على طروحات عالم عامل مجدّد وفيلسوف اسلامي متميّز بقطع النظر عن

نشاطاته وجهوده وجهاده في بلاد الاغتراب وفي الولايات المتحدة الأمريكية بالذات. .

في إحدى أعرق الجامعات الاسلامية

وكان ملفتاً، أن رئيس جمهورية تونس الحبيب بورقيبة حضر بنفسه احدى هذه المحاضرات في جامعة الزيتونة، وهي احدى أعرق الجامعات الدينية في العالم الاسلامي، وهي معروفة بتمسكها بالتراث الاسلامي العربي منذ عصور، ومنها يتخرج رجال الدين والعلماء، وهي ظلت على شيء من الصراع الخفي مع السلطة التي كانت تنحو منحى التوجه الفرنسي والأوروبي بعيداً عن الجذور، ولما كان الامام شري رغم انفتاحه، من اكثر الشخصيات الدينية تمسُّكاً بالتراث، فقد اعتبرت السلطات التونسية طروحاته أمام طلبة جامعة الزيتونة، طروحات تجمع بين أعدائه التي ترفع هي شعاراتها، وبين التمسك الشديد والتعمق في التراث الاسلامي، وهو امر يزعجها، وخاصة إذا تخلل ذلك اشادة بالنزعة الثورية الرافضة للظلم والتحكم الداخليين، والنفوذ والتسلط الأجنبي. وذلك ان الامام شري كان باختصار، مع مواجهة الاسلام لجميع تحديات العصر، ولكن مع التمسك الشديد بالعقيدة والتراث اللذين يعتبرهما صالحين لكل عصر، شرط فهمهما وطرحهما بطريقة منطقية وعلمية مقنعة.

استنطاقات حول الاسلام

وهذا ما كان قد تصدى له في قلعة الغرب الولايات المتحدة، عندما عرض لموقف الاسلام في كل من الطروحات والتحديات المعاصرة في كتابه (Inquires about Islm) «استنطاقات حول الاسلام» والذي كان قد ألّفه في تلك الفترة، وقد وزع في المكتبات الاميركية على نطاق واسع، وكان شبه دليل للناشئة العربية والاسلامية الجامعية المولودة في اميركا، اضافة الى

الناشئة الجامعية الاميركية نفسها والتي تريد التعرّف إلى شيء منطقي عن الاسلام، ناهيك عن الفئات المثقفة الاميركية المهتمة بالدراسات الاسلامية. وقد وضعت الأسئلة على لسان الدكتور ولسون كرتن من كاليفورنيا كان قد تعرّف إلى الامام وفهم منه حقائق كثيرة عن الاسلام، وأعلن اعتقاده بصحة طروحاته. حتى أنه قرر المجيء الى الشرق الأوسط، وزار منزل شقيق الامام في لبنان ثم سافر الى العراق والتحق بجامعة الملكة عالية للتدريس فيها في أواخر عهد نوري السعيد أي قبل سنة من قيام الثورة في العراق، وقد «صدم» عندما رأى رئيس الوزراء «المسلم» يحتسي الخمر في حفل عام وفي شهر رمضان، وكتب الى الامام شري يقول له: لقد كنت «ساحراً» وقديراً عندما أقنعتني بمنطقية الاسلام، ولكنني أرى أن الاسلام، لا يطبّقه في بلاد الاسلام إلاّ الشيوخ والعجائز!

اسلام مع وقف التنفيذ

طبعاً. . كان الدكتور ولسون كرتن مغالياً في هذه الرؤية السلبية لما شاهده في العراق. . . فاذا كان هذا شأن الحكام وشرائح من المثقفين الذين رآهم وعرفهم بحكم الوسط المثقف الذي عايشه في تلك الفترة، فانه على ما يبدو لم يتعمق في طبقات الشعب العراقي، ومراكز الاشعاع الثقافي مثل النجف الأشرف والكاظمية وسامراء وكربلاء، حيث كان يمكنه أن يلمس ويرى اسلاماً يمزج معتنقوه بين عمق الثقافة والالتزام الثابت بالواجبات والعقائد الدينية. ولكن هذا لا يعني أنه لم يكن صادقاً فيما رآه. وترك انطباعاً في نفسه. وكان قد ختم رسالته بقوله للامام: «لقد نصحتني بعدم الذهاب الى الشرق الأوسط لكي لا أخسر قناعاتي واعجابي بالطروحات التي قدمتها لي حول الاسلام. . . ولم أطِعك في ذلك. . وكنتَ أنت على حق في أنك قلت لي بأن من يقتنع بمنطقية الاسلام عليه ألاّ ينظر إلى واقع قطاعات واسعة من المسلمين، لا تطبق روح التعاليم الاسلامية! وهذا يذكّرنا بما كان

قد قاله الامام الشيخ محمد عبده احد المصلحين الاسلاميين الكبار ومفتي الديار المصرية، عندما ذهب الى باريس لاصدار مجلة «العروة الوثقى» مع جمال الدين الأفغاني، ثم عاد منها الى مصر فقال: «ذهبت الى اوروبا فرأيتُ اسلاماً بدون مسلمين... وعدت الى مصر لأجد مسلمين بدون اسلام!».

بعثة الأزهر في مشيغن

وعلى ذكر مصر نود أن نعود قليلاً الى بعض «آثار» الفتوى التي أصدرها الأزهر حول «المساواة بين المذاهب»... والتي تمت بمسعى من الامام شري: فعلى أثر صدور تلك الفتوى، أراد الأزهر أن يرسل بعثة تضم عدداً من علماء الأزهر الى الولايات المتحدة نفسها والى منطقة مشيغن بالذات، وقد حاول الامام شري أن يحتضن تلك البعثة فقدمها الى العرب الاميركيين والمسلمين، ودعا للاستماع اليها والاستفادة من وجودها، ورغم إتقان افراد تلك البعثة للغة الانكليزية (ولكن انكليزية بلهجة مصرية!) ورغم ارادة افرادها في التأثير في أوساط الجاليات العربية والاسلامية، فإن الأسلوب التقليدي: روى فلان عن فلان، دون عرض ما هو منطقي وقريب من عقول المغتربين والناشئة الاميركية، قد جعل المغتربين يَنْفضّون من حولهم... وبدأ الناس يسعون لدى الامام شري الى عدم تثبتهم وعدم تحمل مسؤولية ما يصدر عنهم. وأمام هذه «السلبية» المبرّرة من جانب قطاعات واسعة من المغتربين والاميركيين، الذين أحبوا الاستماع اليهم في البداية، نظراً لاتقانهم اللغة الانكليزية، ثم بدأوا ينفضّون من حولهم، فقد قررت هذه البعثة العودة الى القاهرة. وبدأ الأزهر يعيد النظر في اساليب «التبليغ» المتّبعة والتي تقتضي تغيير اساليب الطرح، بحيث تكون ملائمة للبيئة التي تطرح فيها.

الشيخ الحصري عند الامام شري... وحوار مع مواطن

ولا بأس أن «نختم» هذه الكلمة رغم عمق المأساة وجو الحزن الرهيب الذي يسيطر علينا ونحن نكتب هذه السطور، ببعض الطرائف حول علاقة الامام شري بالأزهر والمشايخ المصريين. فلقد دأب الامام شري على استقدام كبار مقرئي القرآن الى المركز الاسلامي في ديترويت في مناسبات مختلفة وخاصة في شهر رمضان المبارك وعلى رأسهم: الشيخ محمود خليل الحصري والشيخ عبد الباسط عبد الصمد وغيرهما. وفي احدى المرات التي وصل فيها المرحوم الشيخ محمود خليل الحصري فجأة الى مطار ديترويت دون أن يُعلم الامام شري مسبقاً بموعد وصوله، اتصل من المطار وكان الامام قد غادر المركز الاسلامي الى منزله، وكان قد أبلغ الامام بوصوله، ولما كان الامام مرتبطاً بلقاء في المنزل وغير قادر على استقباله بنفسه، فقد ارسل احد الحاضرين السيد أحمد سعد لنقله بسيارته من المطار الى منزل الامام.. واثناء الطريق أراد الشيخ الحُصري أن يتجاذب اطراف الحديث مع السيد احمد سعد فسأله: هل صحيح أنكم أنتم الشيعة «تسبّون» الصحابة؟ فقال له أحمد: أعوذ بالله، من قال ذلك؟ نحن نتبع نصيحة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب التي قالها لأنصاره حتى خلال حربه مع معاوية عندما سمعهم يشتمون الفريق الآخر: «إني أكره لكم أن تكونوا سبّابين». وبعد فترة صمت، التفت احمد الى الشيخ الحُصري قائلاً: هل تعتقد شيخنا أن من يسبّ الصحابة، يجب أن نسبّه ونلعنه؟ قال: طبعاً. قال احمد: هل تعتقد أن الامام علياً من الصحابة؟ قال الشيخ الحُصري: بل انه سيد الصحابة! قال احمد: هل أن من يسب علياً يجب أن نسبّه؟ قال: طبعاً.. قال: ان معاوية سب علياً وأمر بسبه على المنابر لمدة ٧٠ سنة من بعده، حتى تحوّل سب علي الى «جزء» من الصلاة في العهدالأموي، الى أن جاء

الخليفة عمر بن عبد العزيز يرفع «المسبّة» عن علي فهل يجب علينا أن نسب من سبّ «الصحابي» علياً أم لا؟!

فلاذ الشيخ الحصري بالصمت الطويل، وبعد برهة التفت اليه احمد سعد قائلاً: على كل حال إذا كنت تحب معاوية الى هذه الدرجة وتراه خليفة صالحاً، فاننا نرجو من الله أن يحشرك معه! فقال الشيخ الحصري منتفضاً: لا.. مش عايز.. مش عايز!

من أسـفاره

خلال أول زيارة قام بها الامام محمد جواد شري الى الجمهورية الاسلامية عشية انتخاب أول رئيس لها، كان الامام روح الله الخميني قائد الثورة ومؤسس الجمهورية والمرجع الأعلى، قد انتقل من قم الى طهران، اثر اصابته بنوبة قلبية، وقيل أنها حدثت بسبب تعرضه للبرد، اثر سقوط طائرة «جابو جيت» وسط الثلوج في شمال ايران ذهب ضحيتها عدد من الركاب، وكان منزله المتواضع في قم قد جهّز ببعض وسائل التدفئة، فأمر الامام الخميني بقطع وسائل التدفئة عنه أسوة «بالمنكوبين» في شمال طهران، الذين بقي الأحياء منهم وسط الثلوج!

مع الامام الخميني في مستشفى رضائي

ولما كان مستشفى رضائي في طهران، هو المستشفى الذي يعالج فيه المصابون بأزمات قلبية، فقد ذهبت بصحبة الامام الشقيق الجواد، لزيارة الامام في المستشفى فوجدنا عنده في الغرفة المجاورة أحد أحفاده الذين كان ينظر اليهم بأمل، وشقيق زوجته وهو رجل دين من آل الثقفي وعدد من المستقبلين من كبار رجال الدين، وأوعز الامام رغم مرضه باكرام وفادة هذا العالم القادم من بلاد المواجهة مع النفوذ الصهيوني، وكان الامام الخميني يعرف عنه الكثير، وخاصة عندما كان يتابع نشاطه خلال اقامته في النجف

الاشرف، ولما كان في حالة يتعذر فيها عليه الحديث معه، بسبب وجوده في حالة العناية الفائقة، فان هذا لم يمنع الامام الخميني من أن يطلب من شقيق زوجته وهو رجل دين شاب من أن يرافقه مسافة بعيدة، إلى خارج باحة المستشفى وهو يروي لنا مآثر الامام الخميني وظروف مرضه، وامكانية إبلاله من مرضه بسرعة.

وخلال تلك الزيارة التي قام بها لايران، عقد الامام شري اكثر من ندوة ولقاء صحافي.. واجتمع الى قادة الجمهورية: المرحوم آية الله الدكتور محمد بهشتي رئيس المحكمة العليا ورئيس الحزب الجمهوري الاسلامي، وكذلك آية الله الأردبيلي والشيخ علي اكبر هاشمي رفسنجاني.

رفسنجاني ينوّه بالعلامة شري

وعندما اطلع حجة الاسلام الشيخ رفسنجاني على التفاصيل الدقيقة لما جرى بين الامام شري والرئيس كارتر بحضور الفاعليات الاسلامية، أبى إلاّ أن ينوّه بذلك في حديث صحافي أدلى به يومذاك ولم يكن بعد قد تولى رئاسة مجلس الشورى لأن مجلس الشورى لم يكن بعد قد تم انتخابه، وعندما اطلع على بعض تصرفات أول رئيس للجمهورية الاسلامية، الذي تم انتخابه اثناء وجوده هناك كما اسلفنا «تنبأ» له الامام شري بعدم الاستمرار في السلطة وذلك بقوله: «يبدو أنه ليس من أهل المعيشة في السلطة»! وكذلك علّق عندما التقى احدى الفاعليات القيادية التي كان يعرفها شخصياً، فوجدها قد مازجها الغرور وسكرة الحكم، وبالفعل فان تلك الفاعلية أو تلك الشخصية التي كانت قد تولت مسؤوليات حساسة وتسلمت مناصب قيادية، وحظيت سابقاً بثقة القائد، قد وصل بها حب الاستئثار درجة أنها اتهمت بالتآمر على حياة مؤسس الجمهورية وتمت ادانتها ونفذت فيها العقوبة القصوى (المقصود بهذه الشخصية السيد صادق قطب الذي قد بدأ

بداية جيدة مع الامام في باريس وكان من الموالين منذ وقت طويل ولكنه سرعان ما انتابته نزعة استبدادية «نرجسية» مما يؤكد صحة المثل السائر: «إذا أردت أن تعرف رجلاً فأعطه مالاً أو سلطة»).

خطاب في مئات الألوف بطهران

ولما كانت مواقف الامام شري وسمعته الجهادية قد سبقته الى ايران وقم، فقد طُلب منه أن يلقي خطاباً بين كل من آية الله منتظري الذي كان في ذلك الوقت لا يزال بدوره يحوز على ثقة الامام الخميني، ويتولى إمامة الجمعة في جامعة طهران، وهو «منصب» حساس معنوي، بعد وفاة آية الله الطالقاني، وبين آية الله السيد علي الخامنئي قائد ومرشد الثورة الاسلامية الحالي، ورئيس الجمهورية السابق في عهد الامام الخميني. وكانت المناسبة هي صلاة الجمعة، التي يحضرها مئات الألوف في الباحات المحيطة بجامعة طهران، وكان التسلم والتسليم بين آية الله المنتظري الذي قرر الانتقال الى قم متخلياً عن مهمته كإمام لصلاة الجمعة في طهران، ليتفرغ للاشراف في قم، على الحوزات الدينية، وهي مهمة حساسة وخطيرة، وبين آية الله الخامنئي الذي كان في ذلك الوقت يتولى مسؤوليات هامة في الحزب الجمهوري. وقد ألقى الامام شري بين آية الله منتظري وحجة الاسلام والمسلمين في ذلك الوقت السيد علي خامنئي خطاباً هاماً باللغتين العربية والانكليزية، كان له الأثر الأكبر في نفوس المستمعين من القيادات العليا ومن المواطنين من العاصمة الايرانية ومن شتى أنحاء ايران. وقد تقاطر مندوبو الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية الايرانية، على الفندق الذي نزل فيه الامام شري في طهران، يحاول كل منها أن يأخذ منه حديثاً. وكانت فرصة لشرح وجهات نظره في كثير من الأمور المصيرية المتعلقة بالصحوة الاسلامية الجديدة، التي اقترنت بقيام الثورة الاسلامية في ايران.

الامام شري والسفير السوري

وقد لفت ذلك أنظار السفراء العرب، وفي طليعتهم سفير الجمهورية العربية السورية يومذاك الصديق المرحوم اللواء ابراهيم يونس، الذي قضى في الجمهورية الاسلامية بعد ذلك حوالي ثماني سنوات، وقد أبى إلاَّ أن يرافق الامام شري في كثير من تحركاته، وأقام له في منزله مأدبة كبرى دعا اليها عدداً من الفاعليات القيادية.

وعلى ذكر السفير السوري في طهران، نذكر أن سفير الجمهورية العربية السورية الحالي في واشنطن السيد وليد المعلم قد أجرى قبل شهر من رحيل الامام شري بناءً لتوجيهات الرئيس الاسد شخصياً اتصالاً بالمستشفى الذي كان يعالج فيه الامام العلامة الشيخ محمد جواد، فردت عليه السيدة فاطمة (أم ابراهيم) شقيقة الامام التي كانت الى جانب شقيقها في المستشفى عندما أجرى السفير السوري الاتصال، وقال لها: ان الرئيس الأسد أمرني بأن أطمئن على وضع الامام، وهو (أي الرئيس الأسد) يريد أن يعرف تفاصيل دقيقة عن وضعه لأنه يهمه أمره كثيراً، وهو يسألكم: ما هي الأمور التي يمكن أن نصنعها من اجل صحة الامام شري الغالية، لأنه صديق عزيز للرئيس الأسد، وقد شكرته الشقيقة بعمق، وقالت له: كل ما نريده إذا أمكن مساعدة شقيقنا محمد باقر الموجود في لبنان، على الحصول على امكانية الدخول الى الولايات المتحدة لرؤية شقيقه الامام.

سفير سوريا بواشنطن يسأل باسم الرئيس الأسد

وعندما اتيح لي فعلاً أن أجيء الى الولايات المتحدة وقد أخذت «الفيزا» من سفارة الولايات المتحدة في دمشق، دون تدخل رسمي أو غير رسمي من الجانب العربي السوري، لأنني قد علمت ان السفارة الاميركية هنالك من «الحساسية» بحيث لو كانت سمة الدخول ميسرة ثم جاء تدخل

رسمي، فانها تتعسر رغم كل ما هو ظاهر من تحسن في العلاقات السورية ـ الاميركية، وقد أبلغني الصديق الدكتور محمد سلمان وزير الاعلام السوري عندما مررت لوداعه في مبنى الاذاعة والتلفزيون، ان السيد ولي المعلم، السفير العربي السوري في واشنطن، قد جاء الى دمشق تمهيداً لزيارة الرئيس كلينتون لسوريا، وقد حاول الاتصال به ليعلمه عن سفري في اليوم ذاته الى الولايات المتحدة، ولكي يكون على علم بذلك عندما يعود الى واشنطن، ولكن لم يجده في منزله.

وعلى ذكر الاتصالات الديبلوماسية مع الامام عندما يكون في مستشفى نذكر أنه في أواخر السبعينات عندما اضطر الامام شري لاجراء عملية ناجحة جداً وهي عملية «القلب المفتوح» في كليفلاند بولاية اوهايو، كان يلتقيه العديد من الشخصيات الايرانية والعربية بما في ذلك بعض الشخصيات التي تشكو من نظامي الشاه وصدام على السواء، وعلى سبيل المثال فان كلاً من الوزيرين العراقيين السابقين، الذين استقلا أو أُقيلا من منصبيهما وانتمائهما الى النظام العراقي مثل وزير الاوقاف الدكتور عبد الستار الجواري، ووزير الاعلام الأسبق الشاعر المرحوم شفيق الكمالي، قد التقياه هناك.

الطب المتقدم.. المتأخر!

ومن عجائب الطب المتقدم والمتأخر في الوقت ذاته في بعض أهم مراكز الطب في الولايات المتحدة، التي تضم أهم مراكز الطب في العالم، أن السيد الدكتور الستار الجواري وهو رجل فاضل قد شخصوا له امكانية اجراءا عملية «القلب المفتوح» بعد أن أجروا له «التمييل» Cathatarisation ففتحوا له القفص الصدري لاجراء عملية له، وبعد أن شقوا له صدره، وجدوا أنه ليس بحاجة الى عملية! «فخاطوا» له صدره دون اجراء

العملية. وقد حدث له ذلك في وقت متزامن مع العملية الناجحة جداً في ذلك الوقت التي أجريت للعلامة الامام شري، والتي كنت خلال اجرائها مقيماً في المستشفى الى جانبه ليلاً نهاراً، سهراً على راحته، من جهة، وحفظاً لسلامته من أي سوء، وخاصة أن هذه المستشفيات قد تتعرض ليس لغياب الضمير من بعض العاملين فيها فقط، بل لأن بعض الشخصيات التي تتصدى للأمور العامة وللمجابهة مع بعض ذوي النفوذ (وهل هنالك أقوى من النفوذ الصهيوني في اميركا) قد تتعرض حتى لاعتداءات من خارج المستشفى في اماكن وجودها في المستشفى، حتى أن دوريات مؤللة تطوف حول المستشفى خلال الليل حفاظاً على سلامة نزلاء المستشفى من شخصيات رسمية أو هامة سواء كانت شخصيات محلية أو أجنبية.

نفتح عيوننا ونغمضهما على الظلم

الى جانب ذلك، فان عدداً من أعضاء مجلس النواب والشيوخ الايرانيين في أواخر عهد الشاه، ورغم انتمائهم للنظام، كانوا عندما يسمعون بوجود الامام شري في كليفلاند يأتون اليه سراً ليتحدثوا اليه عن حركة الامام الخميني ضد الشاه، وعن المظالم التي يرتكبها النظام، ويقولون له: إننا نغمض عيوننا على الظلم ونفتحها على الظلم، وقد جعل الشاه الأخ يتجسس على أخيه والابن على ابيه وقد امتلأت السجون بالأبرياء، ثم يرفعون أيديهم الى السماء قائلين: «**إلهي عظم البلاء وبرح الخفاء وضاقت الأرض ومنعت السماء**»، وكانت أفواجاً من الطلاب الايرانيين الذين عرفوا بوجوده في كليفلاند، وهم «عاشقون» للامام الخميني، يأتون الى الامام شري في فترة النقاهة التي قضاها في المستشفى بعد العملية، وهم يشرحون له علاقتهم بالمرجع الأعلى الامام الخميني، والأمل الذي يعقدونه عليه في قيادة ايران نحو الخلاص.

وبالعودة الى «مصير» كل من عبد الستار الجواري وشفيق الكمالي الشخصيتين العراقيتين اللتين تواجدتا في نفس المستشفى الذي حلَّ فيه الامام شري في كليفلاند، أذكر أنه خلال جلسة ضمتهما مع الامام شري عند زيارتهما له في «مطعم» المستشفى خلال فترة النقاهة وكان الامام قد سمع تصريحات من جانب السيد طارق عزيز منحازة جداً الى جانب واحد وهو الجانب المعادي لسوريا، وكانت الأحداث الدامية على أشدها في لبنان، سألهما الامام شري عما إذا كان الجانب العراقي قد سلك الخط الذي يلتقي مع الخط الاسرائيلي، واذا كان العداء مع سوريا يقتصر فيه مثل هذا الموقف، فلماذا لا يسلك على الأقل خط الحياد بدلاً من الانحياز الكامل الى احد الفريقين المتقاتلين، وسألتهما أنا بدوري: وكيف يرضى شخص مثل صدام حسين (كان لا يزال نائباً للرئيس) من طارق عزيز مثل هذه التصريحات، وهو يتحدث عن شعارات وطنية وثورية، وكان جوابهما ما معناه: من قال لك بأن صدام نفسه بُعيد هذا الطرح، الذي طرحه طارق عزيز، ولم يكن بعد صدام قد أسفر عن وجهه، ولم يكن قد ارتكب ما ارتكبه ضد مواطنيه وخاصة ضد المفكر الاسلامي الكبير آية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر، ومع ذلك فقد كان هذا جواب بعض أقطاب نظامه السابقين.

محاولات الحكّام التقرب للنسب الشريف

وقد أبلغنا الدكتور الجواري يومذاك (وهو وزير الأقاف السابق) كيف أن كلاً من البكر وصدام كانا يحاولان التقرب الى الشيعة بادعاء الانتساب الشريف الى أهل البيت، وهما يدّعيان أنهما «سادة» ومن شجرة «أهل البيت»، وهذا يعيد الى الذاكرة محاولات عدد من الحكام العرب لوصل انفسهم «بشجرة أهل البيت»، فحتى الملك فاروق في اواخر ايام توليه

العرش، حاول ربط نفسه بالرسول العربي، كما ان كلاً من الملك حسين في الاردن والحسن الثاني في المغرب مربوطان حكماً وسلفاً بالنسب الشريف، ولكن كما قيل: «من لم يشرفه أدبه، لم يشفع فيه نسبه»!

وإذا كان لا بد من أن نختم هذا الموضوع بطرائف مأساوية تتعلق بحياة الامام شري وتعرضه للمخاطر، فانني أذكر حادثتين احداهما رواها لنا عند وصوله الى المطار، في احدى زياراته الى بيروت قادماً من الولايات المتحدة، وأخرى «شاهدتها» بنفسي بعد أن غادر بيروت بعد زيارة أخرى لها، عائداً الى الولايات المتحدة.

الطائرة المشتعلة التي حملت الامام

أما الواقعة التي رواها لعدد كبير من العلماء الذين استقبلوه في مطار بيروت وأمام حشد من الأهل والاصدقاء: انه بعد اقلاع طائرة «البان اميركان» التي تقله من مطار نيويورك وقد طارت فوق المحيط الأطلسي، ابصر من نافذة الطائرة النار تشتعل في أحد أجنحتها، فأخبر طاقم الطائرة بذلك، وعندما تأكد الربان ومساعدوه من اشتعال النار فعلاً قفلوا عائدين الى مطار نيويورك، وهبط الجميع سالمين وقد ارادت ادارة «البان اميركان» تقديم الشكر اليه مع وعد بمكافأة مالية مناسبة، فرفض ذلك قائلاً: يجب أن نحمد الله على السلامة، وهذه هي المكافأة. وعلّق قائلاً بأسلوبه الطيب اللاذع أمام مستقبليه في مطار بيروت: ان الطائرة لم تقع بنا خلال رحلات كثيرة قمنا بها، ولكن سقوط الطائرة مرة واحدة يكون كافياً!

سافر الى اميركا.. وعاد الى بيروت بعد ساعة

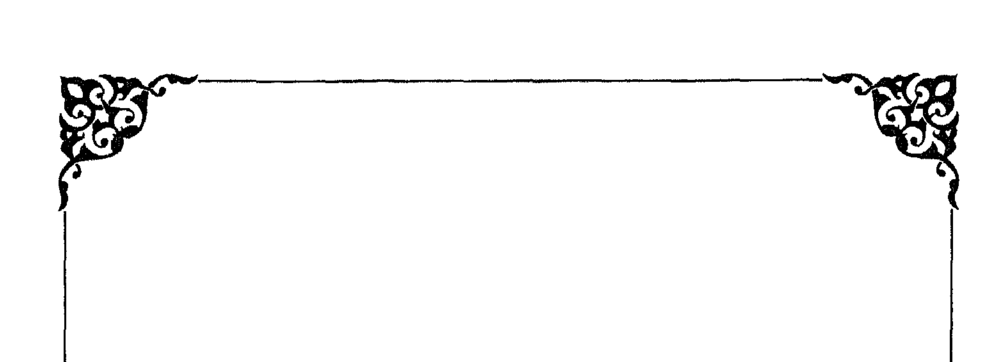
أما «الطرفة» الأخرى حول أسفار أو «سفرات» الامام الشيخ محمد جواد، فكانت عندما ودّعه الناس بكثافة في مطار بيروت. . وظل الكثيرون، وخاصة الأهل على شرفة المطار ينظرون الى الطائرة إلى أن غابت في الأفق

البعيد، وذهب كل منا في حال سبيله. . وذهبت انا الى العمل كمسؤول في جريدة «الكفاح» اليومية، وهي صحيفة رئيسية في لبنان في ذلك الوقت، وبعد أن أنهيت اعمالي في ساعات الصباح الأولى، دخلت الى البيت فإذا بي أرى سماحته نائماً في السرير؟! ففركت عيني من الدهشة هل أنا في حلم أم يقظة؟ فإذا به يحدثني من تحت غطاء السرير: لا تتعجب، فلقد طارت بنا الطائرة حتى وصلت الى ما فوق جزيرة قبرص وقد اكتشف الطيار خللاً فيها، وبدلاً من أن يحط بها في قبرص، فقد وجد أن بامكانه العودة الى مطار بيروت. . وهكذا كان، ولذلك فانك تراني الآن نائماً في بيروت! وضحكنا ضحكة السعادة الممزوجة بشيء من القلق من جانبي، إذ ما كان الموقف لو أن هذه الطائرة لم تعد بسلامة الى مطار بيروت؟!

ولكن سبقنا دعاء الوالدة، التي كانت نائمة في غرفة مجاورة من البيت، وهل تنسى كيف أنها نشرت شعرها ضارعة الى الله وهي تبكي عندما ذهب الى كليفلاند لاجراء عملية «القلب المفتوح»، ثم نهضت وهي تقول انه سيعود أكثر معافاة وقوة بعد العملية، هكذا يوحي إليّ قلبي. . بعد الدعاء!

* * *





مقدمة المحقّق

العلامة محمد جواد الشري
ومنهج البحث التاريخي
وحديث حول الخلافة



العلامة محمد جواد الشرّي

ومنهج البحث التاريخي
وحديث حول «الخلافة»

من يكتب.. ومن يقرأ.. حوار لا مغالطات

يمكن القول إنّ مجموعة البحوث والدراسات الخاصة بالتاريخ الاسلامي، التي ظهرت في الاربعينات من هذا القرن وقبيلها بقليل ومنها بحث «الخلافة في الدستور الاسلامي» للعلامة المجاهد المغفور له الشيخ محمد جواد الشرّي الذي صدر عام ١٣٦٦هـ؛ ١٩٤٦م عن مطبعة الاتحاد في بيروت في كتيّب جدير بالتحقيق والنشر مجدداً، تؤشر لمنهج جديد في أسلوب المحاكمات التاريخية، وفي تفسير وكتابة تاريخنا الاسلامي، يعتمد على قراءة النصوص قراءة واعية مستوعبة تستبعد الأحاديث والأخبار والقصص الملفّقة والمزوّرة التي دوّنت في ظل الحكومات التي أبعدت أهل البيت عليهم السلام ومنهجهم في الحكم والتشريع والحياة وامتدادات تلك الحكومات التي نصبت لهم العداوة وشنّت عليهم حروباً شعواء، وأصبح من الضروري لها أن تحيط مؤسسيها وقادتها بهالة من التبجيل والقداسة، أصبح يراها كثير من المسلمين ـ بتقادم الزمن ـ جديرة (بالسلف الصالح) دون تمييز بين أبي سفيان وأبي ذر وبين أشباههما ونظائرهما، بل قد ينسبون من الفضائل الى الأول منهما ما يجردون الثاني منها. . !

وعندما أسفر الانحراف عن وجهه وأُعلنت الخلافة مُلكاً مطلقاً غير

مقيد، كانت الحلقات المقرّبة من البلاط صاحبة الصوت والقلم، وقد استنفدت لتدوين الأخبار والأحاديث بالطريقة التي تحقق مصالح الحكام وتتماشى مع سلطتهم المطلقة، واقتضى الأمر أن يجنّد بعض المتلبسين بلباس الدين في معركة التلفيق والتزوير إذ لا بد من غطاء يتزين (بشرعيته) المتخلفون على الحكم، ما دام الدين قد أصبح أداة لتحقيق المصالح وجني المكاسب بعد أن دسّوا فيه أكاذيبهم وافتراءاتهم. .

ومع ذلك فإنَّ ما وصل الينا من تراثنا العظيم وفي مقدمته القرآن الكريم الذي سلم كلية من تحريف النصّ وتعرّض لتحريف المعنى، والسيرة المعطرة للنبي وأهل بيته ﷺ تكفينا لتقويم تاريخنا واستعراضه على ضوء المنهج الاسلامي الاصيل والعقلية الاسلامية الواعية التي تأخذ جميع معطيات الاسلام وتاريخ الرجال الذين أثّروا في حياة المسلمين، فتقارن وتنقد وتحلل وتستنتج وتبني الأحكام التي تنسجم مع المعطيات الموضوعية القريبة من الواقع دون اللجوء إلى التشنّج والانفعال، إذ أن من شأن ذلك أن يُبعدنا عن المعارك الجانبية التي شغلنا بها طيلة مئات من السنين فلم نصل الى نتائج مناسبة مقنعة للجميع، وهذا أمر يتفق عليه جميع المختلفين. إنّ الحوار الهادىء الموضوعي المخلص، لا الحذلقة اللفظية والمغالطات لاستمالة العوام على طريقة ابن تيميّه بقصد الغلبة والنصر، هو الذي من شأنه أن يجعلنا متفقين، فليس من المعقول أن نظل هكذا نتحاور ونتداور ونتشنّج ونغضب كل هذه السنين دون الوصول الى نتيجة وأمامنا هذا الحشد الهائل من التراث الديني الذي يشير بوضوح الى الحقيقة التي يكفينا للوصول اليها ساعة تفكّر واحدة، تعدل العمر كله. .

ينبغي أن لا ننسى أن هناك تعصباً أعمى وجهلاً مطبقاً، وان التيار المتعصّب غالباً ما يؤثر على الطاقات العالمة فيعطلها، بل ليمكن القول ـ على حدّ تعبير الشهيد المطهري إنَّ آفة العلماء هي العوام، فكيف إذا ما

لبس بعض هؤلاء العوام جبة العلماء وتغازلوا مع من هم أكثر جهلاً منهم وتعاهدوا على أن يظلوا أوفياء لنهجهم (المقدّس) في الجهل، وأن لا يحيدوا عنه مهما كانت الأسباب. . !

* * *

محاورون.. أم خصوم..؟!

إن البحث القيّم الذي أصدره المرحوم المقدّس محمد جواد الشرّي حول (الخلافة في الدستور الاسلامي) اتّسم بنهج جديد في الحوار والتحليل والمحاكمات العقلية والطرح الموضوعي واستعراض ظروف الأحداث وملابساتها، مما فتح آفاقاً جديدة أمام جملة من الكتّاب الذين ينتمون الى أغلب المذاهب الاسلامية المعروفة، انتهجوا منهجه الواقعي الرصين، وألزموا أنفسهم البحث عن الحقيقة والحقيقة وحدها والبقاء أوفياء لها غير متأثرين بحملات الشجب والاعتراضات التي لا تقوم على دليل أو واقع وغير مهتمين بالمتراكم الهائل من الموروث الاجتماعي الذي اكتسب بعداً مقدساً بحكم تبنّيه من قبل الآباء والأجداد و(السلف الصالح). . !

ومع أنه ليس الرائد الوحيد في هذا المجال، فنحن لا نستطيع أن نتجاهل من سبقوه أمثال السيد عبد الحسين شرف الدين في كتبه القيّمة ومنها (المراجعات) والشيخ المظفر في (دلائل الصدق) والعلاّمة الاميني في (الغدير) وغيرهم الذين ارتادوا الطريق الجديد للتحقيق والبحث التاريخي الموزون ومواجهة الآخرين مواجهة أخوية متسامحة، إلاّ أن أسلوبه الخاص الذي لا يتجاهل حجج الخصوم (الذين لا يعتبرهم خصوماً أصلاً) بل يعرضها بصيغة واضحة وكأنه هو الطرف المحاور الثاني، وسعة صدره وأفقه أيضاً وما يلوح من استعداد كبير للاستمرار في الحوار والاحتجاج بلغة الشرعية الاسلامية التي لا يختلف عليها اثنان، مكّن جيلاً آخر من الالتفات

التفاتات واعية جديدة الى تاريخنا لغربلته من الأوشاب والأكدار وتفسيره تفسيراً موضوعياً والنظر الى وقائعه بعين ناقدة بصيرة ويطلعون علينا بأساليب متجددة تتسم بقوتها العلمية وقدرتها على الاقناع ويشكلون مدرسة حديثة رصينة الفكر والحوار تأخذ على عاتقها التزام الموضوعية والمنهجية العلمية في البحث، لم تقتصر حلقاتها على رجال من أتباع منهج أهل البيت عليهم السلام وإنما ضمت اليها نخبة أخذت تلمع منذ الآن على ساحة الفكر الاسلامي داعية المسلمين جميعاً إلى القراءة الواعية والتفكّر والتدبّر وعدم أخذ المسلّمات عن السلف، لأنه ـ كما تقرر في أنفسنا ـ سلف صالح لا شكّ في صلاحه واستقامته وعدله. . وهكذا يظهر من أهل السنة الذين انتهجوا خط أهل البيت عن فهم ووعي وتبصّر، جيل يدعو الآخرين الى هذا الخط وعدم الوقوف امام تاريخنا وعقيدتنا موقف اللامبالي أو موقف المتلقي أو المتحجر الذي اصطنع وضعاً، ثم هو يأنف أن يبدو بغيره، ربما حياءً من أهله وأصدقائه وربما عناداً وكبراً. .

لقد رأينا الدكتور التيجاني السماوي وادريس الحسيني والمحامي أحمد حسين يعقوب ومروان خليفات وصائب عبدالحميد وغيرهم، لا يكتفون بالتحول عن خطهم السلفي المقلد، وإنما يتصدون بشجاعة فائقة النظير للخط المتحجّر باحثين ومنقبين في وقائع التاريخ المسجل بأساليب جديدة بعيدة عن الانفعال والغضب عاملين على غربلة الافتراء والدس وفضح التزوير والكذب ويصدرون الكتب والبحوث القيّمة في قضية الامامة والولاية والحكم وعدالة الصحابة وغيرها، مع أن عقبات كثيرة تقف في طريقهم ومنها تلك التي تقيمها امتدادات (الدولة الاسلامية التاريخية) فأقطابها لا زالوا يستفيدون من معطيات الشرعية المفتعلة التي نصبت أمثال يزيد والوليد واضرابهما قادة وخلفاء وامراء للمؤمنين والتي ترى عدم الخروج على الحاكم حتى لو كان فاسقاً أو جائراً، وبذلك وقفوا أمام كل

محاولة جادة لتنوير الأمة حتى لا تخرج عن اطار دولة الظلم وقبضتها الحديدية.

* * *

الشباب سيفهمون أولاً

لن نأخذ كتابه الموسّع (أمير المؤمنين) الذي صدر في السنوات الأخيرة وقد اتخذ أبعاداً جديدة واسعة في البحث والنظر وأمضى فيه وقتاً طويلاً رغم مسؤولياته الواسعة بأمور التبليغ في اميركا الشمالية، فهو بحث موسّع يمكن اعتباره تكملة لما كتبه قبل اكثر من نصف قرن حول (الخلافة في الدستور الاسلامي) وهو يقع في ستين صفحة من القطع المتوسط، ويعتبر نموذجاً رائداً في البحث والحوار أثبتت جدارتها وقوتها على التأثير والفعل والتغيير.

ويهمنا أن نذكر هنا أن هذا البحث ـ رغم قِصَره ـ قد أثار اهتمام الأوساط الدينية والثقافية في العراق ومصر ولبنان وغيرها، وكان ممن أثنوا عليه وعلى أسلوبه العلمي الرصين جملة من العلماء والأساتذة منهم المغفور له الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء والدكتور طه حسين. وقد اعتبرته النجف حدثاً فكرياً جديداً، كما اصدرت مجلة «الغري» النجفية عدداً خاصاً نقلت فيه وقائع الحفل الذي أقيم حول البحث دون علم المؤلف وفي غيابه والذي شارك فيه مجموعة كبيرة من العلماء والشعراء والمثقفين في مقدمتهم العلامة المحقق السيد محمد تقي الحكيم والعلامة الشيخ محمد رضا المظفر وغيرهما من كبار العلماء والكتّاب..

ومما يلفت النظر في البداية أنه أهداه (إلى شبابنا العربي المثقف والمتطلع إلى الحقائق العلمية، في اشارة واضحة إلى الدور الذي يمكن أن يلعبه هؤلاء الشباب إذا ما انشدّوا إلى الاسلام بعيداً عن تيارات الانحراف

والتغريب، وفي خطوة واضحة لاستمالتهم وعدم تهميش مواقفهم من قضايانا المهمة، وهذا ما أرادته لهم أطراف عديدة، بدأت سعيها المحموم لابعادهم عن الاسلام أولاً واستمالتهم اليها بعد ذلك). وهكذا خاطبهم قائلاً إنّه جهد أن يبحث (موضوع الخلافة في الناحية الدستورية الاسلامية بحثاً علمياً جديد الأسلوب في هذا الموضوع القديم نزيهاً مجرداً، ينساق فيه الرأي إلى حيث تسوقه البراهين العلمية المستمدة من طبيعة المبادىء الاسلامية وظروفها الأولى ومن الوثائق التاريخية التي يصحُّ الاستناد اليها) ص٤. وهذه دعوة كريمة جديرة بالالتفات اليها والاهتمام بتوجهها الصادق، خصوصاً وأن المجتمعات الاسلامية على اختلاف مذاهبها ألفوا أن يعيشوا في مجتمعات مغلقة خاصة بهم، وانهم أُستهدفوا جميعاً وخصوصاً أجيال الشباب المتعلم (المؤثر بالضرورة على غيره من أبناء الأمة) بدعوات التغريب والانحراف.

وقد قامت فئات واسعة من هذه الأجيال في ما بعد ـ وهذا هو الطريف بالأمر ـ بالتصدي لتلك المخططات، متسلحين بالعلم والمعرفة، بدلاً من الانسياق مع الآخرين المجردين منهما، مدركة قبل غيرها أهدافها ودوافعها اللئيمة، فانقلب بذلك السحر على الساحر. كان هاجس الشيخ الرئيسي التوجه بالخطاب الى الشباب لادراكه أن طاقات كبيرة تكمن فيهم إذا ما وجهوا توجيهاً سليماً، وكانت حياته سلسلة لقاءات معهم وتوجه صادق اليهم ليأخذوا دورهم الفاعل في بناء الأمة.

مسؤولية الرسول ﷺ: السكوت.. أم اعلان الخليفة..

أخرج البحث في أربعة فصول:

الأول بعنوان: أشكال الحكومات وأفضلها.

والثاني بعنوان: الشكل الحكومي الموافق لطبيعة المبادىء الاسلامية وظروفها الأولى.

والثالث بعنوان: استنطاق النصوص الدستورية الاسلامية العامة في شأن الحكومة الخالفة.

والرابع بعنوان: استنطاق النصوص الخاصة في شأن الحكومة الخالفة.

وهو تسلسل يثير الانتباه ويؤشر لمنهج واضح في البحث لا بد أن يؤدي الى نتيجة مقنعة قائمة على أدلة يعترف بصحتها جميع المسلمين.

يستعرض في الفصل الأول أشكال الحكومات الشعبية المقيدة بهيئة تشريعية، وتلك التي يرأسها حاكم منتخب من الشعب لكنه مطلق اليد حر التصرف، وكذلك الحكومات غير الشعبية، ويسميها حكومة الأقليات، التي تقوم نتيجة لتغلب حزب أو طبقة أو قبيلة، ثم الحكومة الناتجة من تعيين إلهي، كما لو عيَّن النبي خليفة من بعده مستنداً الى وحي السماء. وهنا يفرز هذه عن تلك الحكومة التي لا تكون مستندة الى الوحي، ويحاول حلّ الإشكال القائم بشأنها في أذهان الكثيرين، فيدخلها ضمن المجموعة الثانية غير الشعبية التي تستند الى مبادىء حزب متغلب وإن تكن هذه المبادىء دينية أو تدّعي الانتساب للدين. وهذه نقطة دقيقة يحدث الالتباس بشأنها لدى المسلمين وغيرهم، إذ ربما تصوروا أنَّ أية حكومة ترفع شعارات الاسلام هي ممثلته حقاً، وما هي إلاَّ انعكاس لطبيعة تعليماته وتشريعاته.. وبذلك يحذر من الانزلاق الى مثل هذا التفكير، ويؤكد أنه لا ينبغي أن يفهم من ذكر الحكومة الإلهية أننا نرى في حكم الملوك المطلق ـ وإن كانوا يتسمون بمسميات الخلفاء أو أمراء المؤمنين ويدّعون أنهم يحكمون بحق إلهي ـ مثالاً لتلك الحكومة الإلهية كما يراها الاسلام، فأوضح ما فيها أن ظلمها يتقاطع مع عدالته..

وفي محاولة لتوضيح الشرعي من هذه الأشكال، يستعرض الحقوق الطبيعية للانسان ومنها تلك التي ترجع إلى الأسباب الحيوية كحق الحصول على الطعام والشراب والحركة والسكون والمشي والجلوس ومنها المدنية كحقه في حريته في أملاكه الخاصة، ومنها حقه الروحي كحريته في عقيدته، ومنها حقوقه السياسية كحقه في سيطرته على نفسه وحقه في توكيل غيره أو عدم توكيله في الشؤون العامة، وحقه في ابداء رأيه، منها نفهم أن قيام انسان بالحدّ من حرية انسان آخر وتسلّطه عليه مخالف للحقوق الطبيعية ما لم يكن ذلك بأذنه أو اذن خالقه الذي وهبَ له تلك الحقوق، ولما كان الأمر الثاني منوطاً بالاعتراف بالعظمة الإلهية وامكان النبوة ونزول الوحي الإلهي التشريعي، فما كان لشخص غير النبي المعترف بنبوته والمسدد بالعناية والتوجيه الإلهيين أن يحدد الحاكم من بعده، إذ لا صلة بأحد غيره مهما بلغت منزلته ونزاهته وحرصه على المصالح العامة، لأنه لا يعمل إلاّ وفق تصوراته ورؤيته الشخصية التي قد يطلق عليها تجنّياً اسم الاجتهاد لأن الاجتهاد له قواعده وشروطه ومواصفاته..

إنَّ أصلح الحكومات ـ برأيه ـ (تلك التي تكون مخلصة للشعب، تفهم مصالحه وأساليب اصلاحه، وتعمل في ايصال الخليفة الى الحكم) ص٢١. فإن الظروف التي كانت تحيط بالاسلام وهو جديد، كانت أشد من ظروف المبادىء الثورية التي شهدناها في العصر الحديث، حين مغادرة حكوماتها الأولى لكرسي الحكم، والتي تعيّن حكومات خالفة لها، لتضمن نهجها. وتاريخنا المعاصر حافل بالأمثلة، وقد ضرب لنا المؤلف قسماً منها.

وإذا كانت تلك ظروف الاسلام، والمبادىء غير راسخة في النفوس وهو لم يفهم بعد جيداً من قبل الأغلبية الساحقة من المسلمين وخصوصاً من الذين انتموا اليه مؤخراً، ثم وهو يواجه قوى الردة والفوضى والمنافقين

والأصلاف والمتذبذبين (فهل يكون من الحكمة أن يترك النبي الأمة في تلك الغمرات وتلك الأخطار.. دون أن يعلن تعيين خلف له، يكون أقدر اتباعه وأقواهم على تحمل المسؤوليات، وأنفذهم بصيرةً وأشدهم إخلاصاً؟

لا شك أنه ما كان ليتركها دون تعيين خليفته، ولم يكن ليترك الأمر الى انتخاب جماعات ربما لا توفّق إلى انتخاب الكفؤ الصالح لهذه المهمة الخطيرة، بل ربما كان من المحتمل أن لا تنجح مهمة الانتخاب، وتنشب حرب بين المهاجرين والأنصار وغيرهم، تكون وخيمة العواقب..

إن تسلسلاً مرتباً يدرجه لنا المؤلف يوصلنا بعده الى نتيجة واضحة، وذلك عند استنطاق النصوص الاسلامية من القرآن والأحاديث النبوية والتي تعتبر دستورية لأنها صادرة من المراجع الأساسية للمسلمين، وهي ـ وفق التصور الاسلامي ـ ملزمة لهم جميعاً، حتى وإن رفضتها الأكثرية التي ربما تكون جاهلة ومتأثرة بالأهواء والآراء التحريضية والقوى غير المخلصة وذات المصالح، ولذلك فيستحسن (أن يكون عليها قيم ساهر على مصالحها، وولي اجباري يصرفها عن هواها الى ما فيه خيرها وسعادتها. وإذا وجد مثل هذا الولي، فأصلح ألف مرة لها أن تتبعه، ولو مكرهة من أن تسير على هواها خابطة في ضلالها المغرض).

* * *

الولاية لله ولرسوله ﷺ ومن يؤمرانه

إن القرآن يعلن صراحة في سورة الأحزاب ولاية النبي ﷺ الاجبارية المطلقة على الأمة بنص دستوري إلهي صريح: ﴿**النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم**﴾ كما أنه ﴿**لا ينطق عن الهوى، إن هو إلاّ وحي يوحى**﴾ وهو أعلم الناس بمصالح الأمة وأشفقهم عليها.

إن شرعية الحكومة المنتخبة من قبل الأمة تُكتسب في حالة واحدة،

وهي إذا لم يكن النبي ﷺ ومَنْ هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، قد اختار حكومة لتأمين هذا المنهاج العظيم وأهمل تشكيلها، «أما إذا اختار ولي الأمة للأمة حكومة وأعلن تعيينها، فان على الأمة أن تطيع وتخضع، فانه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وطاعة من يعينه للحكم واجبة مفروضة: **﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾**، فليس للأمة أن تخالف اختيار وليها إلى غيره، فان الدستور الاسلامي كما عرفت ناطق بمواد ثلاث هي: ولايته أولاً، ووجوب طاعته ثانياً، ووجوب طاعة من يؤمره ثالثاً، إذ يصبح بتأميره من أولي الأمر الذين تجب طاعتهم» ص٣١. وهم ليسوا أولي الأمر المنتخبين بل هم المعيّنون بمراسيم نبوية. ويكشف سياق الآية وقوة حكمها عن أمر هام جداً (وهو أن الآمر المعين بمرسوم نبوي موجود حقيقة، وتجب طاعته، كما تجب طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ).

لم يوجد الاسلام كأفكار مجردة لا مساس لها بالحياة العملية أو الواقعية، وإنما وجد كمنهج حياتي متكامل، يحاول ويحتم لنفسه البقاء والاستمرار: **﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون﴾**، كما أنه غير مرهون برغبة الأكثرية في تعديله أو الغائه، وإنما يحتم على الجميع السير وفقه، ويفرض نفسه على الأقلية والأكثرية. ويتوجب على الحكومة الأولى التي أرست قواعده أن لا تغادر الحكم حتى تصدر مرسوماً بتعيين رئيس للحكومة الخالفة المؤهّلة للسير على منهجها نفسه، ويضمن للمبادىء بقاءها واطراد تقدمها ورسوخها في نفوس ابناء الأمة. (إننا لو أردنا أن نعبّر عما تضمنته هذه الآية بصيغة معادلة جبرية، لكانت ارادة النبي طرفاً أول وأكبر في متراجحة جبرية قيمية طرفها الثاني ارادة الأمة، وصيغتها هكذا:

إرادة النبي > أكبر من إرادة الأمة؛ فهي لا تجعل من ارادة النبي ﷺ مساوية لإرادة الأمة جمعاء، بل تجعل منها ما هو أكبر من ارادة الأمة وزناً،

سواء في ذلك منها ما كان في الظروف الاستثنائية، أو في الحالات الطبيعية. أضف الى ذلك أن التعبير في الآية يفهمنا ان ارادة النبي واذنه وتوكيله يقوم مقام اذن الأمة كلها وتوكيلها بصورة أشمل، لأن الانتخابات الشعبية يندر جداً أن تكون اجماعية، ولكن انتخاب النبي لوكيل بالنيابة عن الأمة، وبحسب ولايته عليها، يقوم مقام الانتخاب الاجماعي الشامل، ويقوم مقامه بصورة أجدى وأحق، إذ أن الانتخاب الاجماعي الشامل لو وقع لا يكون مضمون الصلاح. (وإذا كان للنبي ﷺ هذه الصلاحية الواسعة، وكان اختياره يقوم مقام افضل انتخاب شعبي في العالم من الناحية الدستورية، ومن ناحية النتيجة المطلوبة والصلاح المضمون، وكانت نتيجة المبادىء تقضي بعدم تركها لانتخابات لا تعرف نتائجها، وكانت ظروف تلك المبادىء حرجة لجديتها وعدم رسوخها في النفوس، وعدم الاستقرار الداخلي وشدة الخطر الخارجي، كان من اكبر الواجبات الملقاة على عاتق الحكومة النبوية أن تقوم بتعيين رئيس الحكومة الخالفة).

وهنا يثير شبهة قد تقول: ان النبي لمّا كان يوحى اليه، وكان بامكان الوحي أن ينبئه بالعواقب ومصير المبادىء ومستقبلها، كان من الممكن أن يترك الأمر للانتخابات لأنه يعلم أن المبادىء ستعيش بالرغم من كثرة الأخطاء! ويتساءل رداً على هذه الشبهة: إلى أي مدى كان يمكن لهذه المبادىء أن تعيش مزدهرة قوية، خلال حكومة خليفة واحد أو اثنين أو ثلاثة وحسب..؟ ثم: ماذا بعد ذلك؟ هل أُعلم أنها ستعيش مزدهرة قوية في عهد يزيد أو الوليد وأضرابهما؟ حتى يترك مسألة تعيين من سيخلفه؟

لا شك أن ما حدث بعد ذلك هو الذي جعله يلجأ إلى التعيين، ولن يشك أحد في أن مرسوم تعيين علي لو نفّذ بعد فاته ﷺ لنجت الأمة الاسلامية من النكسات التي حلّت بها على يد الأمويين ومن جاء بعدهم من سلاسل الدول الفرعونية الطويلة. ولو أنه عليه السلام ترأس الحكومة الخالفة

وامتدت أيام حكمه بعد الرسول ﷺ ثلاثين سنة أو أكثر، لاستقرت الأمور ورسخت المبادىء في النفوس، واعتاد المسلمون على الخضوع للحق وتقديسه، ولتقدم الاسلام الى الامام بخطى ثابتة متزنة.

هل كان الرسول ﷺ سيرى بعين البصيرة وعلم الوحي الأكيد حال الأمة بعده مباشرة ولا يفكر إلاّ فيه، ويترك التفكير فيها إذا تقادم الزمن فكأن الأمة التي ستأتي بعد ذلك ليست أمته ولا تمتّ إليه بصلة؟

حاشاه أن يكون كذلك، بل انه سيفكر بأمته ما دامت هذه الحياة قائمة. فهذه الشبهة قائمة ضد أصحابها، فهو ﷺ (لو علم مستقبل الأمة ونظر الى ذلك بنور الوحي لما عدا عن العمل على ما تقتضيه روح المبادىء وحراجة الظروف وصلاحيته الواسعة في اصدار مرسوم تعيين رئيس الحكومة الخالفة).

* * *

يؤتون الزكاة وهم راكعون.. نزلت في علي عليه السلام تحديداً

وهنا يستنطق آية قرآنية واضحة الدلالة: ﴿**إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون، ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون**﴾ وينقل أقوال القوشجي في شرح التجريد، وغيره، حول إجماع المفسرين على أن (هذه الآية قد نزلت في علي بن ابي طالب، الذي تصدَّق بخاتمه على سائل وهو في الركوع من صلاته. وقد أورد في غاية المرام في الباب ١٨ أربعة وعشرين حديثاً في ذلك عن طريق الجمهور.. فالآية تثبت الولاية للذين آمنوا الذين لهم هذه الصفات التي لم تكن لأحد سوى علي حين نزولها)، ولفظ الولي في الآية يفيد معنى من له حقُّ التصرف بشؤون المسلمين العامة، ولن يصح الحصر إلاَّ إذا أريد هذا. والتأمل فيها يدلنا على أن المقصود منها غير العموم. وقد

أثبت ذلك ببراهين مقنعة جديرة بالتأمل.

وإذا ما أضيفت هذه الآية الى صيغة الاعلان العام في حجة الوداع التاريخية وفي غدير خم، حيث أبلغ جماهير المسلمين المحتشدة أمر تعيين علي ولياً للمسلمين وقوله ﷺ له كما ورد في صحاح المسلمين المشهورة: «أنت ولي كل مؤمن بعدي» وقوله عنه: «إن علياً مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن بعدي» وقوله ﷺ له: «وأعطاني [الله] أنك ولي المؤمنين بعدي». وقوله: «ألست بأولى المؤمنين من أنفسهم؟ قلوا: بلى. قال: من كنت وليه فهو وليه».. أدركنا أننا لا نستطيع صرف الأحاديث إلى غير ما هي ظاهرة فيه إن الولاية المذكورة هي الولاية المستمدة من المادة الدستورية القرآنية: **﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾**.

أما التصريح الأكثر وضوحاً والذي اتخذ طابع البلاغ العام، فقد كان بعيد حجة الوداع، إذ وقف النبي ﷺ موقف المبلغ العام يخطب في الجماهير قبل وصوله الى المدينة في غدير خم، وقد قفلت معه راجعة ويوشك أن تصل الى مفارق طرقها، إذ أعلن لهم تعيين علي عليه السلام ولياً عليهم، كما ورد في الأحاديث المسندة المجمع على صحتها لدى عموم المسلمين. ولنلاحظ المقدمة التي دخل بها ﷺ في خطابه الى المسلمين:

قال ﷺ: أيها الناس يوشك أن أدعىٰ فأجيب، وإني مسؤول، وانكم مسؤولون فماذا أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنك بلّغت وجاهدت ونصحت فجزاك الله خيراً.

فقال: أليس تشهدون أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله وأن جنته حق وأن ناره حق وأن الموت حق وأن البعث حق بعد الموت، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور؟ قالوا: بلى نشهد بذلك.

قال: اللهم اشهد، ثم قال: أيها الناس إن الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فهذا مولاه ـ يعني علياً ـ اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه» حتى أن عمراً لقيه بعد ذلك فقال: هنيئاً يا ابن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة.

* * *

وليّ الأمر.. مَن ولاّه الله ورسُوله

إن هذا الحادث التاريخي الذي لا شك في وقوعه، والذي روي من طرق كثيرة واشتهر بين النّاس شهرة واسعة، ووجد من شهد وقائعه، وشهد بذلك في الرحبة وحدها بعيداً عن الحجاز ـ بلد الحديث ـ وبعد ثلاثين عاماً وفي موقف واحد، ثلاثون صحابياً منهم اثنا عشر بدرياً (ولو أن شهوده طلبوا كلهم في ذلك الوقت المتأخر عن وفاة الرسول ﷺ لعدوا بالألوف)، من الحوادث التي كانت (موافقة للنواميس الاجتماعية وللظروف الزمانية والمكانية وللقوانين التطورية ونقلها المستفيض بل المتواتر على هذا النحو كافٍ لإثباتها. وعلى كل حال، فان علماء المسلمين، ورواة الحديث لم يرتابوا في صحتها وانما ارتابوا في دلالة الكلمات النبوية على تعيين علي خليفة بعد رسول الله ﷺ).

فالنبي ﷺ قد مهّد لبلاغه بذكر صلاحياته المفروضة في القرآن، مذكّراً إيّاهم بولايته عليهم أولاً، ثم بعد ذلك بمادة دستورية مثلها بشأن علي عليه السلام تخوّله الصلاحيات ذاتها التي كانت له ﷺ، ولم يكن مقصوده (سوى تبليغ مرسوم بتعيين علي رئيساً للحكومة الخالفة، بتعبير يتضمن مادة مرسومة من النبي ﷺ تعطي علياً عليه السلام من الصلاحية مثل الصلاحية التي كانت له بمقتضى المادة الدستورية القرآنية ليكون مثله أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ولو لم تكن المادة القرآنية ﴿النبي أولى بالمؤمنين﴾ موجودة بنصّها

الخاص، لما كانت إدارة جميع شؤون المسلمين العامة في هذه الحياة من وظائفه المعلومة، إذ جاءت تعلمنا أن له ﷺ وظيفة دولية عامة وأن له في ادارة شؤون المسلمين الصلاحية الواسعة، والحكومة لن تكون حكومة إلاّ إذا كانت لها هذه الوظيفة الادارية الدولية. فلو أراد النبي ﷺ أن يعين رئيس حكومة، وحاول أن يفهم المسلمين بلغة اسلامية قرآنية أنه رئيس حكومة، لما وسعه إلاّ أن يذكر المادة الدولية القرآنية ﴿**النبي أولى بالمؤمنين**﴾ فإن هذه المادة هي المادة الاسلامية الوحيدة العامة التي تعطيه رئاسة الحكومة والوظيفة الدوليّة العامة.

كما أنَّ التعبير بصيغة الأمر في قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾ يدلُّ على أن النبي في غدير خم كان يريد اعطاء علي رتبة لا ينالها إلاّ هو ﷺ أو من هو قريب منه في الدرجة. وإذا ما علمنا أن الآية جاءت لبيان الحكم، لا لبيان الموضوع، وكل ما جاءت لبيانه هو الزام الأمة باطاعة الله والرسول وأولي الأمر، وانها كانت مطلقة غير مقيّدة، أدركنا أن النبي ﷺ كان يرى في اتباع علي الضمانة الوحيدة لتنفيذ منهاج الحكومة النبوية، وهكذا صرَّح في عدة مناسبات، كما جاء مروياً بطرق صحيحة، قائلاً: «إني تاركٌ فيكم ما إن أخذتم به لن تضلّوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي» وأن القرآن والعترة لن يفترقا، وان علياً مع الحق، وأنه لا يفارق القرآن، ومعنى ذلك أن علياً هو المؤهّل الوحيد لتطبيق منهج النبي وسيرته، وإلاّ فلماذا كان تأكيده في غدير خم على تذكير الأمة بولايته ﷺ وانتقالها الى علي عليه السلام لأنه ﷺ يوشك أن يشرف على نهاية حياته المقدسة.

إنه ﷺ كان يصدع برسالته، عاملاً على تطبيق مبادئها وتربية الأمة عليها وتثبيتها ليصبح العمل عليها خلقاً من أخلاق الأمة، وطبعاً ثابتاً في نفوس ابنائها، وكان يريد تأمين وجود رئيس للحكومة الخالفة التي تأتي بعد

حكومته لتقوم بأعبائها، فلم يجز أمر القيام بهذه المهمة لانتخابات لا تعرف نتائجها ومدى نجاحها.. (فإن الرئيس المطلوب يجب أن يكون مخلصاً، متفانياً في الاخلاص للمبادىء الاسلامية، عالماً بأحسن الأساليب التطبيقية التقدمية، حازماً في تطبيقها، مصيباً في نظرياته وأساليبه في جملتها، فإن من الأخطاء ما يكفي وقوعه مرة واحدة في تدهور الأمة، وتراجع المبادىء تراجعاً يؤثّر في توجيه مصيرها ومستقبلها، وليست الشواهد على ذلك في التاريخ قليلة، فأنت تعلم أن التي وقعت في تاريخ الحكومات الاسلامية، ما كان وقوعه مرة واحدة كافياً لوصول المسلمين الى ما وصلوا اليه من التقهقر في كل ناحية من نواحي الحياة)، وهذه ملاحظة جديرة بالانتباه إذ يمكن تأليف المجلدات عن مثل هذه الأخطاء القاتلة التي ارتكبها الكثير من الخلفاء والحكّام.

(ولذلك كان تأمين قيام الرئيس الكفؤ واجباً من أهم الواجبات، وكفاءته تعني لزوم توفر شروط فيه تجعله بعيداً عن الخطأ حليفاً للحق. ولما كانت الانتخابات لا تكفل قيام ذلك الرئيس الكفؤ، إذ أن الألوف والملايين لا تتمكن من معرفة ذلك الكفؤ الذي يضمن قيامه بأعباء الحكم تنفيذ المنهج النبوي، لأن الملايين لا تتمكن من الاطلاع على طوية الفرد الصالح، وكان على النبي أن يرشد الأمة الى ذلك الرئيس الذي يصلح للقيام بهذه المهمَّة، ضمانة لنجاح المبادىء وتنفيذ المنهاج، لذلك كله جاءت هذه التصريحات معلنة ذلك الرئيس المنشود، ومعلنة إيَّاه بصورة تتناسب مع مقام النبوة والرسالة الدينية التي جاءت لتحقيق الحق ونفي الضلال، لذلك فهي تفهم الأمة بأبلغ أسلوب وأصرحه ان الغاية التي ارسل الرسول من أجلها، وهي تحقيق الحق والهدى وظهور دين الحق على الدين كله، انما تحقق باتّباع علي عليه السلام الذي لا يفارق الحق والقرآن: «إني تاركٌ فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا؛ كتاب الله وعترتي أهل بيتي».

ونلاحظ في هذا البحث القيّم أن المؤلف لا يخوض قضية ترف فكري كثر حولها الجدال، فيريد اثارة اعجاب القرّاء بأسلوبه وعلمه، وانما هو يخوض قضية متجددة تهم المسلمين إذ يمكنهم على أساسها حسم الكثير من مسائلهم الأخرى. ويتوصل برفق ووفق منطق سديد مقنع وبأسلوب المحامي البارع والسياسي المتخصص في شؤون الدول والحكومات الى عرض آرائه البنّاءة معتمداً لا على المصادر الشيعية وحدها وإنما على عموم مصادر المسلمين لأن ذلك أبلغ وألزم للحجّة، ومع أنه صاحب قضية يتحمس لها ويقتنع بها قناعة تامة غير محدودة، إلاّ أن ذلك لم يمنعه من طرحها طرحاً نزيهاً مجرداً من الهوى والتعصُّب، فعندما يورد حجج الآخرين يعرضها بوضوح وكأنه هوالخصم، ثم يقوم بتنفيذها بطريقة ذكية ما كان القارىء يتوقعها.

لقد تكلّم عن النظم الوضعية كالديمقراطية وغيرها لعلمه أنها تستهوي الشباب، غير أنه أكد على ضرورة الممارسات التي تقع ضمن السقف الالهي لا الحدود المطلقة غير المقيدة. كما أنه باشارته الى منشأ المادة الدستورية الاسلامية وان قوتها وفعلها من الله سبحانه وتعالى، يرينا أن هذه المادة تكون ملزمة لميع أجيال الأمة ما لم يصبها نسخ أو تغيير منه سبحانه وتعالى، وما غفل عنه أسلافنا ينبغي أن لا نتغافل عنه نحن بعد الآن.

* * *

الخلافة.. قضية قديمة حديثة

استأثرت المباحث الخاصة بالخلافة، والتي غالباً ما كانت مثار خلافات ونزاعات بين (الأطراف المعنية)، أو التي ترى أنفسها معنية، مع أنها قد لا تكون كذلك ـ وخصوصاً الآن ـ لتقادم العهد وانقضاء تلك الحوادث وعدم تأثيرها الفعلي الواقعي على الحياة العادية للمجتمعات

الراهنة، وقد لا تكون هذه الحياة كذلك ايضاً إلاَّ بعد أن تأثرت بهذا الموقف أو ذاك وقد يكون ذلك بحكم الاجواء التي عاشتها ولعبت فيها الآراء المسبقة للآباء والأجداد دورها، إذ وجد كل واحد نفسه في جو يتبنى موقفاً معيناً، فتبناه بدوره، بحكم التأثر والعلاقة الحميمة مع الأهل والوسط، فلم يزد عمله إلاَّ على ترسيخ وجهات النظر المتبناة مسبقاً، ودحض وجهات النظر المغايرة..

استأثرت هذه المباحث باهتمامات المؤرِّخين والنقَّاد والباحثين المسلمين، وغيرهم ايضاً، مع أن غير المسلمين وغالبيتهم من المستشرقين ـ حاولوا ـ في الأغلب ـ من خلال الايحاء بموضوعيتهم وحيادهم وعلميتهم! تصوير بعض الأمور ـ ذات الأهمية الثانوية، وكأنها من قضايا الساعة المهمة التي لا يمكن العيش دون حسمها، ودون الوقوف موقف النزاع والتأهب للجدال والخصومة (مع الطرف الآخر)... وأججوا على أساسها نزعات طائفية مقيتة، لم نجنِ نحنُ منها سوى المزيد من الفرقة والاختلاف، وتبني المواقف المتحيزة المتجنية أحياناً..

لقد وجد كثيرون، ممن درسوا التاريخ، أن الأمور سارت مسيرتها المألوفة، وتقبلوا سير الحوادث والأمور، كما وقعت بالفعل، واتخذوا ـ في أغلب الأحيان ـ نفس المواقف الرسمية ووجهات النظر التي وقفها واتخذها مَن كان طرفاً في تلك الحوادث على مرّ الأزمان، ومَن كتب تاريخها.. مع أن أغلب أولئك المؤرخين كانوا يكتبون ما يوافق نزعات ومصالح الحكام (الخلفاء)..

كما أن كثيرين منّا ـ عندما نشأوا في هذه الحياة ـ وجدوا الأمور في واقعها الحالي.. فهناك من يحكمون، وهناك من يؤلفون حلقات متعددة الأهمية والقرب من أجهزة السلطة الحاكمة.. وهناك مَن يشكلون الأغلبية من المحكومين، الذين تتفاوت مراكزهم وثرواتهم وأحوالهم المادية

والاجتماعية. . . وجدوا القوانين التي وضعتها الحكومات (لحمايتهم) في الظاهر، مع أنها قد لا تكون إلاّ لحماية هذه الجهات الحاكمة نفسها. . ووجدوا المؤسسات الضخمة الفخمة، العسكرية والسياسية والادارية والمالية وغيرها تشكل دروعاً لهذه الأنظمة.

التحيّز للحق أم للآباء

وجدوا أمراً (واقعاً) معاشاً، ووجدوا من يقول لهم، بأحقية هذه الجهات الحاكمة بالخلافة والملك والسلطان. . ! أما كيف اتفق أن كان هذا الأمر الواقع أمراً واقعاً، وكيف وصلت الأمور الى ما وصلت اليه!؟ كيف وجدوا أنفسهم على الحال التي وجدوها عليه، لماذا كان الحاكم حاكماً، والمحكوم محكوماً؟ وكيف أصبح الفقير فقيراً والغني غنياً؟! لماذا اتخذت الأحوال مساراتها الراهنة، فهي أمور ليس على الجميع مناقشتها، وعليهم تركها (لذوي الاختصاص)! كل شيء يحاول أن يقول لهم: تقبلوا الأمور كما هي، ولا تحاولوا أن تقلبوا الأحوال التي وجدتم آباءكم عليها، وأقرها أولئك الآباء الحكماء المجربون. . ! وهل أنتم أكثر حكمة وتجربة وواقعية ومعرفة منهم. .؟ لقد كانت هذه حالة اجتماعية مكرورة تطرّق إليها القرآن الكريم في أكثر من موقع، داعياً إيّانا من خلال استعراضها الى عدم تبني المواقف الخاطئة للآباء لمجرد أنهم آباء، وعدم التحيز إلاّ الى الحق، وذكر لنا نماذج اندفعت دون وعي أو ارادة لترسم طريق آبائهم الخاطئة رغم وضوح حجج الأنبياء الذين دعوهم الى الحق[1].

(١) ﴿وإذا قيل لهُم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتَّبع ما ألفينا عليه آباءنا أوَلو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾ (البقرة: ١٧٠)، ﴿وإذا قيل لهم تعالَوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبُنا ما وجدنا عليه آباءنا أوَلو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾ (المائدة: ١٠٤)، ﴿قالوا أجئتنا لتَلفتنا عمَّا وجدنا عليه آباءنا وتكونَ لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين﴾ (يونس: ٧٨)، ﴿قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ (الشعراء: ٧٤)، ﴿وإذا قيل لهم اتَّبعوا ما =

فهم التاريخ: على أساس السنن الموضوعية، أم الواقع المنحرف؟

وكما تقبل الكثيرون (واقعهم) دون محاولة لتغييره، أو حتى التساؤل عن أسباب وجوده كما هو، فان الكثيرين من المؤرخين والباحثين، بحكم الإلفة التي وجدوا أنفسهم عليها مع وقائعه، وبحكم تقبّله ممن سبقهم من المؤرخين والباحثين (الآباء) كأمر واقع، لم يحاولوا أن يدرسوا (السنن) الإلهية، والأبعاد التي تنتظمها هذه السنن، وذلك على الأسس التي طرحها علينا الاسلام، وهو الدين الذي تدين به أغلبيتنا، ولو من الوجهة الرسمية المظهرية، أو من خلال الشكل المفرغ من المحتوى لهذا الدين، كما لم يحاولوا تلمس الوقائع والأحداث التي أدت الى محاولة تحريف تلك السنن، وعرض الأشكال المحرفة، وكأنها هي السنن الطبيعية الموضوعة من قبل الله سبحانه وتعالى لتنظيم عملية الخلافة على الأرض وتنظيم حياة الانسان بكل جوانبها المتشعبة وأبعادها.

ومن هنا شكّل الخروج على (الأمر الواقع) أو (السنن الموضوعية أو الكاذبة).. لكن الواقعة فعلاً.. أمراً نشازاً، لا يليق بالمسيرات الملوكية النموذجية المزوقة المسدّدة ـ رغم أنف الحسود ـ بالعناية الإلهية!! التي استعرضتها كتب التاريخ.. وكأن استنكار بعض المواقف (للخلفاء

= أنزل الله قالوا بل نتّبع ما وجدنا عليه آباءنا..﴾ (لقمان: ٢١)، ﴿بل قالوا إنَّا وجدنا آباءنا على أُمَّةٍ وإنَّا على آثارهم مهتدون﴾ (الزخرف: ٢٢)، ﴿.. أتنهانا أن نعبدَ ما يعبدُ آباؤنا وإننا لفي شكٍ مما تدعونا إليه مريب﴾ (هود: ٦٢)، ﴿إنهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يُهرعون، ولقد ضلَّ قبلهم أكثر الأولين﴾ (الصافات: ٦٩ ـ ٧١)، ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إنَّ الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ (الأعراف: ٢٨)، ﴿.. قالوا إن أنتم إلاَّ بشرٌ مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبدُ آباؤنا فأتونا بسلطان مبين﴾ (ابراهيم: ١٠).

والملوك) الأوائل، ثورة على (الخلفاء) الجدد. . إن تعكير الصور الأولى (الجميلة النموذجية) التي تحاول النماذج الحديثة ملكية أو رئاسية دستورية! أو مطلقة السير على خطاها حذو الفعل بالفعل احياناً ورفع شعاراتها واعتماد أساليبها وسياساتها؛ لا بد أن يعمل على تعكير هذه الصور الجميلة الحاضرة. .

فعندما تدافع سلطة قائمة، تعتمد أساليب وخطط معاوية (بعد إلباسها ثوب العصرية والحداثة) في السياسة والحكم والدين والخلافة. . ! حتى وإن لم تتظاهر بذلك. ولم تصرح به علناً، فانها لا بد تحاول أن تدعم التوجهات الرامية إلى إسباغ الشرعية والواقعية على حكم السلاطين الأمويين، وإن ابتعدت الشقة وطال العهد. . ولا بد أنها تحاول بذلك ـ عن طريق غير مباشر ـ الايحاء بصدق وشرعية وسلامة قيامها وتوجهاتها هي.

إننا لا نعمل على مناقشة التاريخ الاسلامي في أجواء وظروف صحية، وقد نتناول الأمور أو الأشكال الظاهرة للحكم في عهد معاوية، فنقرر استناداً إلى ما نجد أنفسنا عليه من أوضاع بالغة الانحراف فاقت تلك التي برزت في ذلك العهدـ انها كانت أشكالاً متطورة عن الأشكال (البسيطة) الأولى التي ظهرت في العهد الاسلامي الأول في عهد الرسول ﷺ ومن جاء بعده من الخلفاء[١]. . ! وربما بررنا لمعاوية ومن جاء بعده من (الخلفاء) الأمويين، وحتى العباسيين تصرفاتهم ـ حتى قبل خلافة معاوية عندما كان والياً على الشام ـ وربما رأينا أنها ربما تفوقت ـ في النواحي الفنية والادارية على الأشكال (البسيطة) أولى، بحكم تطور الحياة واتساع الفتوحات، وبحكم المواجهة الكبيرة للاسلام مع القوى المعادية، الرومانية والفارسية واتباع

(١) وكما يقول ابن خلدون في (المقدمة): (. . . الخلافة إنما هي دين ليست من السياسة الملكية في شيء. .) ص٢٦٢.

الديانات المعادية الأخرى كاليهودية والمجوسية والوثنية وغيرها[1]. وان الاسلام كان يعرض نفسه كقوة كبيرة منافسة لهذه القوى والديانات.. وربما اعتقدنا أن التغلب عليها يستدعي اعتماد أساليب دنيوية حديثة، ولا بأس من (الدهاء والسياسة) اللذين اختلط مفهومهما في أذهان الكثيرين منا، حتى أصبحا يمثلان (الحيلة والمكر والغدر) وكأننا بذلك نشجع أولئك الذين يريدون اقناعنا بأن الاسلام (بواقعيته)، وصدق توجهاته ومبادئه، قد يكون (خيالياً) أو (مثالياً)، لا يصلح لمعالجة كل أمور الحياة ومواجهتها، وخصوصاً تلك التي تخصّ أمور السياسة والحكم.

ومن هنا رأينا التباين الكبير بين سلوك وسياسة معاوية الداعية لمثل هذا النمط الجديد..! وعلي الذي مثّل الاسلام بكل ما حمله من مبادىء مستقيمة لا تعرف الالتواء والانحراف والمكر. ولم يكن علي عليه السلام، ربيب القرآن وابن الاسلام الذي استوعب كل أفكاره ومبادئه وقيمه، وعمل بها طوال حياته، لكنه لم يكن في نظر (المدرسة الأموية) إلاّ انساناً قليل الحيلة (مثالياً) لا يصلح للحكم في هذه الحياة المتقلبة المتطورة، مع أن نظرة علي عليه السلام للحياة والحكم والخلافة وكل شيء، هي نظرة الاسلام نفسه[2]،

(١) فقد روى أبو محمد الأموي، قال: (خرج عمر بن الخطاب الى الشام، فرأى معاوية في موكب يتلقّاه، وراح اليه في موكب، فقال له عمر: يا معاوية، تروحُ في موكب وتغدو في مثله، وبلغني أنك تُصبح في منزلك وذوو الحاجات ببابك! قال: يا أمير المؤمنين، إن العدوَّ بها قريب منا، ولهم عيون وجواسيس، فأردتُ يا أمير المؤمنين أن يَروا للإسلام عزّاً؛ فقال له عمر: إنَّ هذا لَكيد رجل لبيب، أو خدعَةُ رجل أريب؛ فقال معاوية: يا أمير المؤمنين، مرني بما شئت أصِر إليه؛ قال: ويْحك! ما ناظرتك في أمر أعيب عليك فيه إلاّ تركتني ما أدري آمرك أم أنهاك) الطبري، ٣ ـ ٢٦٤ وراجع مقدمة ابن خلدون ص٢٢٥.

(٢) وقد ردَّ عليه السلام على من اتهمه بذلك قائلاً: (.. والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت أن أدهى الناس، ولكن لكل غدرة فجرة، ولكل فجرة كفرة، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة، والله ما أُستغفَل بالمكيدة ولا استغمز بالشديدة)، نهج البلاغة، ص٤٥٩.

هي نفس نظرة القرآن الكريم والرسول الأعظم ﷺ. ومعنى اتهام علي ﷺ بقصور النظر في معالجة أمور الحياة والحكم. هو اتهام علني للاسلام نفسه والرفض المتعمد لأساسيات ومبادىء هذا الدين الذي حكم الجميع باسمه ورفعوا شعاراته، ولم يروا مانعاً من وضع بعض الأحاديث والشعارات والأقوال المفتراة لجعله (أكثر واقعية) من الحياة الأولى التي رسم خطوطها الاسلام في عهد رسول الله ﷺ، ومنسجماً مع (الحياة) التي ارادوا هم رسم خطوطها ووضع تفصيلاتها وأسسها الجديدة، حياة يكونون فيها على سدة الحكم خلفاء وملوكاً وسلاطين وأمراء للمؤمنين، ولا تهم المسميات ما دامت الأهداف تتحقق.

* * *

الخلافة.. قضية اسلامية ينبغي أن تناقش بتصور اسلامي

إن مسألة الخلافة، عندما تناقش مع أناس اعتمدوها كصيغة أو اساس لحكمهم (خلفاء مسلمين)، لا بد وأن تناقش على أساس التصور الاسلامي البحت، الذي جاء به القرآن الكريم والنبي الكريم ﷺ فقط. ولا يمكن بأي حال من الأحوال الابتعاد عن التصور الاسلامي، تحت أية ذريعة أو حجة؛ إذ أن الاسلام وحدةٌ متكاملة، لا يمكن الأخذ ببعضه وترك الباقي، ما دام الذي نأخذ به يحقق مصالحنا ورغباتنا ولا يتعارض معها، وما دام الباقي لا يحقق ذلك، بل يتعارض مع هذه المصالح والرغبات.

إننا لا نناقش حاكماً رومانياً أو فارسياً قديماً، اعتمد ديناً مغايراً للاسلام ليبني عليه حكمه؛ حاكماً يستفيد من (سياسات ودهاء وعبقريات) الحكام السابقين، وإنما نناقش حاكماً مسلماً، يعلن بأنه جاء يحكم بكتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ. فكيف نبرر ابتعاد هذا الحاكم وأضرابه، بل ونبذهم الصريح للدين الذي حكموا تحت ظله وباسمه، وحققوا كل ما حققوه من

مكاسب وأرباح، وحياة أسطورية لا يزال يتغنى بها الكثيرون من المؤرخين والشعراء والكتّاب، على أساس أنها تمثل جانباً من حالة الرفاه العامة التي تحققت لجماهير المسلمين..! حتى أن الكثيرين منهم يتباكون على تلك الأيام الخوالي، أيام العز والسموّ، مع أنها كانت بداية الانحدار للاسلام الناشيء و(الحياة الاسلامية) التي لم يكن المسلمون يذوقون طعمها حتى نسوها، في ظل أكبر عملية تشويه وتخريب شهدها هذا الدين في وقت مبكر من وجوده، ولا تزال تفعل فعلها المخيف لتهديمه وطمسه.. والتي لا نزال نشهد بعض آثارها في الفرقة والعداوة بين أبنائه أنفسهم، رغم مرور هذه المدة الطويلة على تلك الأيام الأولى التي جنت فيها عوائل محدودة المكاسب والأرباح وجنت مئات الملايين من جماهير المسلمين، الضياع والذلّ والفرقة والجهل والمرض.

التاريخ الاسلامي.. تاريخ الحكّام لا الشعوب:

ولا شك أن تاريخ العرب والمسلمين كان يسلّط الأضواء على الحكّام بشكل مركّز وملفت للنظر، وغالباً ما يميل الى تحسين صورهم وتجميلها، اللهم إلاّ إذا كان المؤرّخ لا يعيش تحت ظل أحد هؤلاء أو أحفادهم، أو كان يكتب من معسكر مقابل معاد، يقوده حكام آخرون معادون لأولئك.

ولا يكاد مَن يقرأ التاريخ الاسلامي، يلمس إلاّ صوراً باهتة لتفصيلات الحياة الشعبية العامة وهمومها وممارساتها اليومية، يلتقطها من بين بعض السطور والصفحات، التي تبذل كرماً ملحوظاً، عندما تناول حتى المباذل العادية اليومية والسفاسف والسخافات لبعض الحكام المتمادين في لهوهم ومجونهم وابتعادهم عن شعوبهم، في غمرة شعورهم (بالحق الالهي الموروث) بحكم الناس والتصرف في حياتهم ومصائرهم. هذا الشعور الذي أخذوه عن عوائلهم المالكة (العريقة) في اعتلاء ذوي السلطة والملك

والولاية، حتى أنهم في غمرة هذا الشعور، ينسون الله والناس على السواء، ولا يرون إلاّ أنفسهم، ولا يكادون يتحملون أقل قدرٍ من النقد أو التوجيه، وحتى الابتداء بالكلام من الآخرين[1]. ومن هنا جاءت أنماط من (الآداب) التي تعنى بكيفية التعامل مع الملوك والسلاطين وأساليب مخاطبتهم وخدمتهم. ووضعت لذلك سلاسل من الكتب والرسائل، أخذ كتّابها يتبارون فيها، بعرض براعاتهم في توجيه الناس لحسن التصرف مع الملوك وكيفية مخاطبتهم وإبداء منتهى الذلة والخضوع في ذلك.. مما لو استثمر بشكل آخر ووجه لتعليم الناس صيغ التعامل مع النفس ومع الله ـ سبحانه ـ ومع الآخرين لكان محصلة ذلك ثروة أخلاقية كبيرة قد تقي الناس السقوط وتجعلهم في عافية في دينهم ودنياهم. غير أن وعّاظ السلاطين وأدباءهم ومؤرخيهم لم يروا إلاّ ما رآه أسيادهم، فكأنّ الكون خلق من أجل هؤلاء الأسياد فقط، وأنهم بمنجاة مما قد يتعرض له الناس (العاديون) يوم الحساب[2]، ومن هنا كانت مصيبة تاريخنا العربي الاسلامي، المكرور المعاد والحافل بالنماذج المتسلطة الشاذة التي لا تقيم وزناً أو اعتباراً لأي شيء.

ومع أن التاريخ قد طلع علينا بنماذج (نادرة) لحكام جيدين، إلاّ أن ندرة هؤلاء جعلنا نذكرهم بوصفهم حالات نادرة برزت على سطح التاريخ. ويكاد بعضنا ينبهرون بسلوك أولئك الحكام، الذي كان ينبغي أن يكون افضل من أدائهم (الممتاز) عن سلوك الآخرين في ظل ظروف اسلامية

(١) روى السيوطي في (تاريخ الخلفاء) ص٢٠٣ أن عبد الملك بن مروان كان (أول من نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء وأول من نهى عن الأمر بالمعروف) كما منع الناس من تشميته بعد العطاس، وربما رأى أنه لا يحتاج ـ كغيره من الناس رحمة الله...!

(٢) (قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما ولي يزيد (بن عبد الملك) قال: سيروا بسيرة عمر بن عبد العزيز، فأتي بأربعين شيخاً فشهدوا له ما على الخلفاء حساب ولا عذاب)، تاريخ الخلفاء ـ السيوطي، ص٢٢٩.

صحية. . فاذا ما استعرضنا حكم الدولة الأموية ـ مثلاً ـ فان سلوك (عمر بن عبد العزيز) يبدو وكأنه أعجوبة عظيمة، وكأنه يسد الفجوة أو يصلح الشرخ الذي أحدثه من جاء قبله وبعده[1]. ولا يكاد يتبيَّن من يكتب عنه أنه انما كان يدين كل السلالة الأموية، باعجابه المتميز بهذا الخليفة الأموي (الراشد) ـ الفلتة الذي لم يكن مثله مثل الآخرين الذين لم يحصلوا على ما حصل عليه من اعجاب وثناء، فكأنَّ ثناءهم واعجابهم المتميز، شتيمة للآخرين الذين كان ينبغي أن يكونوا مثله على الأقل. ومع ذلك تغاضى المؤرخون عن هفواتهم ـ وما أكثرها ـ وتناسوا المآسي التي أحدثوها وأسسوا أساسها وبنوا بنيانها.

إن الذي حصل هو أن الحاكم (الاسلامي) حكم بتصور غير اسلامي وحمل عقلية غير اسلامية. وترتب على ذلك أنماط من السلوك لم تعتمد خط الاسلام بأي حال من الأحوال مع أنها بررت من قبل فقهاء الدولة ووعّاظها وقصاصيها وغيرهم وأبرزت على أنها هي الشيء الوحيد المقبول الصحيح. . . !

* * *

الاستخلاف الإلهي.. أمانة لا امتيازات شخصية

لقد طرح القرآن الكريم مسألة الخلافة، لا على الأسس الجاهلية السابقة، التي استبعدت وجود الخالق الواحد القدير المدبّر، وهيمنته على الكون، وإن كان بعضها لم يستبعد هذه (الفكرة) نهائياً ووضع محلها فكرة أخرى تتيح اسباغ غطاء من الشرعية على حكم الطواغيت الذين حكموا بموجبها كما شاءوا وكيفما شاءوا. . . فأشركت مع الله قوى وآلهة أخرى،

(١) فقد روي عن ابي جعفر المنصور قوله في عمر بن عبد العزيز: (. . . وأما عمر فكان أعورَ بينَ عُميان. . .) مقدمة ابن خلدون، ص٢٢٩.

أرادت الناس أن يعبدوها هي في محاولة للتقرب إلى الله نفسه[1] بل انها أوحت للناس أن هذه الطواغيت هي آلهة أو أنصاف آلهة أو من سلالة الآلهة، وليست مجرد بشر أو أناس عاديين. وان هذا النسب أو (الانحدار) عن الآلهة يتيح لهم حقوقاً وامتيازات لا يمكن بأية حالٍ أن تتاح للبشر العاديين.. لقد وضعت نفسها في مراكز ما كان لأي أحد أن يحلم بالوصول اليها، وأسبغت على نفسها هالات من العظمة الخارقة التي لا تتاح إلاّ للمتحدرين من سلالات الآلهة الأسطوريين..!! والتاريخ حافل بهذه النماذج، وقد حدثنا القرآن الكريم عن بعضها.

وقد طرح القرآن الكريم مسألة الخلافة هذه أيضاً على أسس واضحة أرادها أن تكون نواة لتصور اسلامي صحيح عن الله والكون والحياة. ولم يطرحها مسألةً عقلية بحتة أو فلسفية قابلة للنقاش والرد، بل بشكل منسجم مع الفطرة الانسانية والحاجات والدوافع البشرية المتعددة.. كما ولم يطرحها بمعزل عن النظرة الاسلامية الشاملة المتكاملة والمؤهلة بشكل تام لقيادة هذه الحياة وتوجيهها توجيهاً صحيحاً، يحقق التوازن التام بين الغرائز والرغبات والعلاقات الاجتماعية العامة بكل أشكالها وبكل ما تحفل به من جوانب متعددة تشمل كل أداء حياتي للناس، وتمتد حتى لعلاقات الانسان مع الطبيعة وتعامله معها.

وعندما يستعرض القرآن الكريم هذه الآية الكريمة **﴿وإذ قالَ ربُّك للملائِكة إني جاعلٌ في الأرض خليفةً قالوا أتجعلُ فيها من يُفسدُ فيها ويسفكُ الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك قال إني أعلمُ ما لا تعلمون﴾**[2]، نجد أن مبدأ إقامة مجتمع على الأرض، قد تقرر من قبل الله ـ سبحانه ـ وقد أنبأ به الملائكة، وأنه لم يكن عقاباً إلهياً أنْ عشنا على هذه الأرض، أما كيف؟

(١) ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلاّ ليقرّبونا إلى الله زلفى...﴾ (الزمر: ٣).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

وأين؟ فذلك غيبٌ من الغيب لا يعلمه إلاَّ هو ـ سبحانه ـ وحسبه أنه أخبرنا بهذا الشكل الواضح المبين.

و«هناك ثلاثة عناصر يمكن استخلاصها من العبارة القرآنية:

أولاً: الانسان.

ثانياً: الأرض أو الطبيعة بوجه عام ﴿إني جاعلٌ في الأرض خليفة﴾ فهناك أرض أو طبيعة على وجه عام، وهناك الانسان الذي يجعله الله سبحانه وتعالى على الأرض.

ثالثاً: العلاقة المعنوية التي تربط الانسان بالأرض وبالطبيعة، وتربط من ناحية أخرى الانسان بأخيه الانسان، هذه العلاقة المعنوية التي سمّاها القرآن الكريم بالاستخلاف.

... ولكن المجتمعات تختلف في طبيعة هذه العلاقة وفي كيفية صياغة هذه الطبيعة»(١).

وفهم هذه العلاقة، ووضعها على أساس العمل والواقع، تشكّل أحد أسباب الاختلاف بين المجتمعات المتعددة وبينها وبين بعض الأفراد، منذ أن وجد الانسان على هذه الأرض عبر القرون.

إن بعض هذه المجتمعات ـ وخصوصاً الحديثة، والقديمة جداً ـ تقطع العلاقة أساساً مع البعد الإلهي وتنفيه نهائياً، ولا تعتقد إلاَّ بالفعل الانساني واللمسات البشريّة البحتة. هذه اللمسات المتغيرة، المتأثرة بنزعات الانسان ونزواته ومطامعه ورغباته.

ولا يهمنا أمر هذه المجتمعات المنسلخة عن الاسلام والبعيدة عنه تماماً في هذا المبحث، غير أن الذي يهمنا أن نذكر: ان الذي يحكم باسم

---

(١) المدرسة القرآنية ـ الامام محمد باقر الصدر ـ دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٣٩٩هـ، ص١٢٦ ـ ١٢٧.

الاسلام، ويدّعي تمثيله، لا بد أن يتبنى التصور الاسلامي الكامل والواضح ـ غير المؤوّل ـ في الحياة والحكم على وجه الخصوص، وأن يعتمد القرآن الكريم أساساً لنظراته وسلوكه.

الاستخلاف.. أربعة أطراف

لقد بيّن القرآن الكريم مسألة الاستخلاف كأمرٍ يعبّر عن المشيئة الإلهية، فهي «العلاقة الاجتماعية من زاوية نظر القرآن الكريم، والاستخلاف ـ عند التحليل ـ نجد أنه ذو أربعة أطراف: لأن الاستخلاف يفترض مستخلِفاً أيضاً. لا بد من **مستخلِف ومستخلَف عليه ومستخلَف**. فهناك إضافة إلى الانسان وأخيه الانسان، والطبيعة، يوجد طرف رابع في طبيعة وتكوين علاقة الاستخلاف وهو المستخلِف، إذ لا استخلاف بدون مستخلِف. فالمستخلِف هو الله سبحانه وتعالى، والسمتخلَف هو الانسان وأخوه الانسان، أي الانسانية ككل الجماعة البشرية، والمستخلَف عليه هو الأرض وما عليها ومَن عليها. فالعلاقة الاجتماعية ضمن صيغة الاستخلاف فتكون ذات أطراف أربعة.. وهذه الطبيعة ترتبط بوجهة نظر معيّنة نحو الحياة والكون بوجهة نظر قائلة بأنه لا سيّد ولا مالك ولا إله للكون والحياة إلاَّ الله سبحانه وتعالى، وأن دور الانسان في ممارسة حياته، إنما هو دور الاستخلاف والاستئمام، وأي علاقة تنشأ بين الانسان والطبيعة، فهي في جوهرها ليست علاقة مالك بمملوك وإنما هي علاقة أمين على أمانة استؤمن عليها وأيّ علاقة تنشأ بين الانسان وأخيه الانسان، مهما كان المركز الاجتماعي لهذا أو لذاك ـ فهي علاقة استخلاف وتفاعل بقدر ما يكون هذا الانسان أو ذاك مؤدياً لواجبه بهذه الخلافة، وليست علاقة سيادة أو ألوهية أو مالكية، هذه الصيغة الاجتماعية الرباعية الأطراف التي صاغها القرآن الكريم

تحت اسم الاستخلاف، ترتبط بوجهة النظر المعنية للحياة والكون. . »[1].

العلاقة بين المستخلِف والمستخلَف

هذه العلاقة بين المستخلِف والمستخلَف، والتي بيّنها القرآن الكريم بهذا الوضوح الكبير في أماكن متعددة منه، ينبغي أن يتبناها، ويعمل بها، مَن تصدّوا للاستخلاف وتبوّء مركز الخلافة وقبلوا منه المسؤولية الجسيمة، بل سعوا اليها وتقاتلوا من أجلها، وينبغي أن لا يعدوها مكسباً شخصياً بأي حال من الأحوال.

إننا لا نجد مبرراً لتعطيل (البعد الرابع) أو التجاوز عليه أو (تفسيره) على أنه مانح امتياز لأناس لا يقبلون أن يشاركهم فيه أحد، بحكم حق إلهي مطلق، غير مقيّد أو بحكم وجود مؤهلات أو صفات ممتازة مفترضة. اللهم إلاّ إذا كان الذي يحكم، قد استبعد الاسلام أساساً من تصوره ومن حياته، ولم يحتفظ إلاّ ببعض المظاهر الخارجية أو القشور التي يزين بها حكمه ليضفي عليه جواً من الشرعية. وفي هذه الحالة ينبغي على من يكتشفوا ذلك، عدم السكوت، وفضح هذا الحاكم الذي (يسطو) على الاسلام ويحاول سرقة مكتسبات المسلمين بحجته وباسمه.

إن ادراك هذه المسؤولية التي يتحملها من يتصدى للخلافة كأمين على أمر استؤمن عليه، ترتب مسؤوليات أخرى من المراقبة الذاتية الواعية ومن المراقبة الشعبية العامة الراصدة المشروعة المقوّمة عند الشعور باحتمال ظهور أي خلل أو انحراف. . ولا بد أن يكون هذا الخليفة متمتعاً بقدرٍ من الحصانة والقدرة على حمل هذه الأمانة الثقيلة لكي يؤدي واجبه بدقة ووضوح على ضوء القرآن والسنّة، قادراً على مواكبة التطورات

(١) المصدر السابق، ص١٢٨ ـ ١٢٩.

والمستجدات في الحياة، واجداً لكل مشكلة حلاً ملائماً منسجماً مع هذه التطورات والمستجدات.

ولا يصح أن يكون شعور من يتبوّأ أعلى مركز في الدولة الاسلامية على درجة من الضعف والغباء، بحيث لا يدرك طبيعة العلاقة أو الوضع الذي جاء به الى هذا المركز المسؤول، وينسى الأساس الذي أقام عليه حكمه، وهو حكم من جاء به وحدَّد له مشروعية مركزه، بعد أن كان قد تمتّع بالامكانات التي تتيح له حمل الأمانة الكبيرة مثل تمكّنه من فهم القرآن الكريم، وفهم الاسلام بجملته.

انه يدرك أن السيد والمالك الحقيقي والمتصرف بعباده وأمره هو الله، وان دوره كخليفة أو إمام لهذه الأمة، لا بدّ وأن يتطابق مع (المثل الأول) الذي أُنزلت عليه الرسالة لأداء هذه المهمة، وهو رسول الله ﷺ. . ومع أن لا أحد يدَّعي قدرته على أن يكون كرسول الله ﷺ، إلاَّ أن النماذج الأخرى القريبة والشبيهة به، والتي تربت في أحضانه ووعت رسالته وتأهّلت لحملها ونقلها عبر الأجيال، وحملت أكبر قدرٍ من الفهم والوعي والشعور بالمسؤولية، لا بدّ أن تكون هي المرشحة للقيام بهذه المهمة. فمن غير المعقول أن يؤدي مهمة رسول الله ﷺ مَن لا يلتقي معه التقاءً تاماً في جميع جوانب فكره وسلوكه ولا يحمل نفس تصوراته ونظراته لكل شيء.

إن أقل انحراف من قِبَل (الخليفة) أو الحاكم الاسلامي عن خط رسول الله ﷺ يشكّل ظاهرة خطيرة، تؤدي لمزيد من الانحرافات من قِبَل الآخرين، فإن لم يتمسك هذا (المؤتمن) بالرسالة وبنودها ومناهجها، وتساهل بها أو بجانب من جوانبها، فكأنه يوحي بذلك ـ للآخرين ـ ببطلانها أو عدم مشروعيتها، وبالتالي عدم مشروعية وجوده هو على رأس السلطة كخليفة أو راعٍ أو إمام أو أمير للمؤمنين. . !

إنه يزيل بتجاهله بعض بنود الرسالة الاسلامية مبررات بقائه على سدّة الحكم ويفقد المشروعية التي تؤهله لذلك؛ لأنه يتناسى المستخلِف الذي جلس ليحكم بين الناس باسمه. . وهو الله سبحانه وتعالى، الذي لم يعطِ لأحد من البشر صلاحية حذف أو تجاهل أي حكم من أحكامه.

عقد الاستخلاف لا مجال للهوى أو الشيطان:

وفي هذه الحالة تبرر مشروعية قيام من يدرك معادلة الخلافة الاسلامية وأبعادها ويمتلك التصور الصحيح عنها، بالثورة على هذا الخليفة أو الحاكم والوقوف بوجهه وإزاحته بكافة السبل المتاحة، لفسح المجال أمام من تأهّل لهذا الأمر، وامتلك مقومات القيادة، وحمل الأمانة، وأدرك أبعاد الرسالة على ضوء الأسس التي جاء بها القرآن الكريم. . إذ أن (عقد الاستخلاف فيه قائم على تلقّي الهدىٰ من الله، والتقيّد بمنهجه في الحياة، ومفرق الطريق فيه أن يسمع الانسان ويطيع لما يتلقاه من الله، أو أن يسمع الانسان ويطيع لما يمليه عليه الشيطان. وليس هناك طريق ثالث: إما الله وإما الشيطان. إما الهدى وإما الضلال. إما الحق وإما الباطل. إما الفلاح وإما الخسران. وهذه الحقيقة هي التي يعبّر عنها القرآن كله، بوصفها الحقيقة الأولى، التي تقوم عليها سائر التصورات، وسائر الأوضاع في عالم الانسان. . .)[1]. ومنها علاقة الانسان بأخيه الانسان، وقيامه بدور المستخلَف أو الخليفة على الأسس والتصورات التي نزل بها القرآن الكريم. . وعليها وحدها فقط. هذه الأسس والتصورات التي تتيح له استكشاف قدراته الكافية في التعامل مع الطبيعة ومع أخيه الانسان بشكل ايجابي بنّاء متطور، لا يهمل أياً من مقوّمات الحياة الانسانية، ويتعامل معها بكل جدية واحترام.

---

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب، م١، ج١، ص٥٥.

الامامة.. لا ينال عهدي الظالمين

وفي الحوار الذي يدور بين الله عزَّ وجلّ وبين خليله ابراهيم عليه السلام، الذي عرضه القرآن الكريم علينا في الآية الكريمة **﴿وإذ ابتلىٰ إبراهيم ربُّهُ بكلماتٍ فأتمهُنَّ قال إني جاعلك للناسِ إماماً قال ومِن ذُرّيتي قال لا ينالُ عهدي الظالمين﴾**[1]، تُحسم المسألة بشكل نهائي... فمهمة الامام ليست مهمة محدودة، وإنما هي مهمة قيادية تستهدف تحقيق المهام التي يطلبها الله سبحانه من الناس.

وإذ أنها تناط بشخص مؤهّل مختار من قِبَل الله سبحانه وتعالى، فانها لم تكن ستناط ـ بالضرورة ـ بذريته، إذا ما كانوا ظالمين، وغير مؤهلين لحملها، وبعيدين عن الله سبحانه وتعالى (إنَّ الامامة لمن يستحقونها بالعمل والشعور وبالصلاح والايمان، وليست وراثة أصلاب وأنساب، فالقربى ليست وشيجة لحم ودم، إنما هي وشيجة دين وعقيدة، ودعوى القرابة والدم والجنس والقوم إن هي إلاَّ دعوى الجاهلية، التي تصطدم اصطداماً أساسياً بالتصور الايماني الصحيح **﴿قال: لا ينال عهدي الظالمين﴾**. والظلم أنواع وألوان: ظلم النفس بالشرك، وظلم الناس بالبغي. والامامة الممنوعة على الظالمين تشمل كل معاني الإمامة: إمامة الرسالة، وإمامة الخلافة، وإمامة الصلاة.. وكل معنى من مَعاني الامامة والقيادة. فالعدل بكل معانيه هو أساس استحقاق هذه الامامة في أية صورة من صورها ومَن ظلمَ ـ أيّ لون من الظلم ـ فقد جرّد نفسه من حق الامامة وأسقط حقه فيها، بكل معنى من معانيها)[2].

غير أن هذا الأمر الذي طلبه ابراهيم عليه السلام لم يطلبه لكل ذريته، بعد

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٢) في ظلال القرآن ـ سيد قطب، ج١، ص١٠٦.

أن أفهم أن ذلك لا يتاح للظالمين من هذه الذرية، وإنما طلبه لبعضهم المؤهل لهذه الامامة والقيادة.. وكان من ذريته محمد ﷺ، الذي أصبح برسالته العالمية الشاملة إماماً وقائداً لكل الناس... وحتى أولئك الذين رفضوا قيادته عن عمد واصرار ووعي، وأولئك الذين رفضوها بدافع التقليد والمتابعة للآباء والأهل، دون علم أو وعي، كان عليهم أن يدركوا أبعاد هذه الرسالة، ليقرروا موقفهم على ضوء ذلك.. ولا شك أن هذا الموقف سيكون ايجابياً إذا ما فعلوا ذلك حيث سيؤمنون بها حتماً ويسيرون على هداها.

فالامام هو القدوة الذي (يقودهم الى الله ويقدمهم الى الخير، ويكونون له تبعاً ويكون له فيهم قيادة)[١].

مَن المؤهّل للامامة؟

ولم ينل هذا العهد ـ عهد الامامة والقيادة للأمة ـ إلاّ من امتاز عن غيره بمؤهلات نادرة لم يمتز بها غيره.. فاستحقَّ أن يتحمّل مسؤولية الرسالة العظيمة، التي لم يستطع الآخرون حتى من الذين شاركوه في النسب وشرف المحتد أن يحملوها.. بل ان الأمر قد ذهب الى أبعد من ذلك ـ بالنسبة إلى الرسول ﷺ ـ إذ أن بعض من يمتّ إليه بقرابة وثيقة مثل أبي لهب، ومعظم عشيرته قريش ـ قد شنّوا عليه حرباً شعواء، ولم تؤازره منهم إلاّ القلّة القليلة كأبي طالب وحمزة.

فالمسألة إذاً ليست مسألة قرابة أو نسب بحت.. وحتى إذا ما نوقشت هذه المسألة، وتعرضنا فيها الى هذا الجانب، فاننا ينبغي أن نتناوله على أنه ليس الجانب الوحيد الذي يتيح حقوقاً استثنائية في مجال الخلافة أو الولاية.

---

(١) المصدر السابق، ص١٠٦.

إنها ينبغي أن تناقش على الأساس التالي:

من هو المؤهّل لحمل دور الخلافة على هذه الأمة، وتأديته بصورة قريبة من الصورة التي كان يؤديه بها رسول الله ﷺ، وبأسلوب أقرب إلى أسلوبه؟ بغض النظر عن قرابته منه ﷺ، أو مركزه في قريش أو في العرب..؟ وإذا ما حصل ووجدنا هذا (المؤهّل)... فما الذي جعله لائقاً بهذا المركز القيادي المهم؟ بغضّ النظر عن علاقة النسب التي تشكل سبباً مضافاً لأسباب احترامه وتقديمه إضافة لمؤهلاته الأخرى..؟

إن الذي يجعله لائقاً ومؤهلاً هو حمله تصورات إسلامية نقيّة صافية غير مشوبة بأي تصور أو سلوك جاهلي... إذ أن من شأن ذلك أن يجعله لا يرى سوى الاسلام وسوى الله، ولا يقيم اعتباراً لأية قيم جاهلية لتطفوا على سطح تصرفاته... لا بدّ أن يتنفّس هواء الاسلام صافياً، ولا بد أن يكون معداً في زمن الاسلام ولا يحمل خلفية جاهلية.. لأن في ذلك ضماناً له وعصمة من الانزلاق والخطأ... كما هو الأمر مع رسول الله ﷺ نفسه، مع أنه معصوم بالرسالة ومؤيد بالتسديد الإلهي... إلاّ أننا نرى أن طبيعة الحياة التي عاشها قبل نزول الرسالة، كانت تجعل منه (أمة) مستقلة منفردة عن أمة العرب الجاهلية التي كان يعيش في وسطها... فكأنه كان منعزلاً عنها بقوة غير اعتيادية لم تتح لأوبئتها وهوائها الوخيم أن يتغلغل في رئتيه... لقد تكفّل به الله سبحانه فأوجد له حياةً خاصة فسيحة تقيه أمراض الجاهلية وأدرانها.. كما تكفّل هو بإعداد من أرادهم أن يكملوا شوطه ومشواره فيما بعد.

وإذاً فعلينا أن نؤكد الحقيقة المهمة وهي: أن على من يحكموا باسم الاسلام خلفاء وأمراء للمؤمنين أن يحكّموا هذا الدين نفسه، وأن تجسّد تصرفاتهم التصور الاسلامي النقي غير المشوب بأي تصوّر آخر يهمل البعد الرابع ـ كما أسماه الشهيد الصدر ـ أو ينساه أبداً، وهو المستخلِف أو الله

سبحانه. . وان الانسانية المستخلَفة المستأمنَة على الكون والحياة ينبغي أن تعي دورها على ضوء السنن الإلهية الواردة في القرآن الكريم، وأن تتمتع بدرجة عالية من الاستيعاب والفهم والتدبر. إذ أن إهمال أيّة سنَّة إلهية يعني تعطيل البعد الرابع ـ الأساس ـ والالتقاء مع النظرات الأرضية البحتة، الفرعونية غالباً، والتي لا ترى لله يداً في عملية خلافة الأرض وعمارتها. . .

ولم تكن الخلافة مجرد عمل أنيط بالانسان كامتياز، لأنه أكثر المخلوقات على هذه الأرض مؤهلات وقدرات لأداء أدقّ الأعمال وأخصّها بوعيه وإرادته. لكنه عمل أؤتمن عليه لهذه الأسباب نفسها إن (هذه العطيّة الربانية، كانت تفتش عن الموضع المقابل لها في الطبيعة)[١] ولذلك فان الله ـ سبحانه ـ بيَّن لهذا الانسان بأن هذه المهمة ليست امتيازاً أو عطيّة ربانية دون شروط، بقدر ما هي أمانة ثقيلة عليه أن يتحلى بقدر كبير من الصبر والمثابرة والجلَد لكي يحافظ عليها. . **﴿إنا عرضنا الأمانةَ على السمواتِ والأرض والجبالَ فأبَينَ أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنَّه كان ظلوماً جَهولاً﴾**[٢]. (فالأمانة هي الوجه التقبلي للخلافة، والخلافة هي الوجه الفاعلي والعطائي للأمانة. . الأمانة والخلافة عبارة عن الاستخلاف والاستئمان وتحمّل الأعباء)[٣]، إنها ليست مجرّد تكريم بالصيغة المطلقة غير المقيَّدة، والتي قد تفسّر بأنها امتياز خاص أو منحة. . . بقدر ما هي مسؤولية ثقيلة لحمل الأمانة بشكل مشرّف لا بد أن يخرج منه الانسان بسلامة

---

(١) المدرسة القرآنية، ص١٣٣.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

(٣) المدرسة القرآنية، ص١٣٢ ـ ١٣٣ وقد أوضح امير المؤمنين عليه السلام ثقل هذه الأمانة بقوله: (ثم أداء الأمانة، فقد خاب من ليس من أهلها. إنها عُرضت على السموات المبنيّة والأرضين المدحورة، والجبال ذات الطول المنصوبة، فلا أطول ولا أعرض ولا أعلى ولا أعظم منها. ولو امتنع شيء بطول أو عرض أو قوة أو عز لامتنعن ولكن أشفقن من العقوبة وعقلن ما جهل من هو أضعف منهن وهو الانسان ﴿انه كان ظلوماً جهولاً﴾)، نهج البلاغة، ص٤٥٩.

في نهاية المطاف ولا يغضب الخالق الذي عهد بها إليه وألزمه بشروط يضمن بها قيامه بدوره على أكمل وجه باعتبار أن (هذه العطيّة الربّانية كانت تفتش عن الموضع المقابل لها في الطبيعة)[1] مع أن هذا (الموضع)، وهو الانسان، قد لا يتحمل هذه الأمانة، بل ويتحدى السنن الإلهية التي أرادته أن يكون متوافقاً معها ورهن إشارتها وأن يكون على أهبة الاستعداد دائماً لحملها بشكل صحيح.. إذ أن ذلك يرتّب عليه معرفة الدين القيّم، الذي جاء من عند الله، فهذا الدين وحده ـ إذا ما توجه إليه الانسان بشكل صادق ـ هو الضمانة الوحيدة التي تمكنه من حمل هذه الأمانة وتجنّب المنزلقات والانحرافات التي قد يتعرض لها.. فلا معنى لايجاد أي مبرر لكونه (قيّماً) على الناس ليتحكم في حياتهم ومصائرهم وأموالهم وعندما يتخلى عن هذا الدين صراحة.. ان عليه إذا ما فعل ذلك أن يبيّن ذلك بصراحة أكبر ولا يجعل من الدين مجرد غطاء يبرّر شرعية وجوده و(قيمومته) وأمرته على الناس.

إن الانسان الخليفة المؤتمن، هو أحد أطراف هذه المعادلة الرباعية المنسجمة، وإذا ما أخذ دور أحد هذه الأطراف الأخرى أو ألغاه، فانه بذلك قد ألغى كل هذه المعادلة... وأبرز نفسه كعامل طارىء أو غريب عنها.. وأصبحت مهمة الآخرين الذين قبلوه ما دام يحافظ على توازناتها وفق المشيئة والارادة الإلهية، أن يرفضوه الآن.. وأصبح واجبهم الشرعي اجباره على التخلي عن المهمة التي يعجز عن القيام بها ويوظفها لمصالحه وغاياته الخاصة وفق هواه ورغبته.

إذ كيف حصل أن زيداً من الناس أصبح هو (القيّم) بدل هذا (الدين القيّم)..؟! هل تمَّ الأمر برغبة الناس كلهم وباختيار عام له؟ هل نال الأمر

(١) المصدر السابق.

بالوراثة؟ هل نزل فيه كتاب أو وحي؟ هل له رسالة خاصة يحملها؟ ومن حمَّله هذه الرسالة؟ .

كما اختار الله الرسول.. اختار خليفته

نحن نعلم أن الاسلام هو خاتم الأديان. وأن محمداً ﷺ هو خاتم الرسل، بكتاب ونصّ من الله عزَّ وجل. وقد حاول هذا الرسول العظيم ﷺ الذي تأهّل للقيادة وحمل الرسالة (الأمانة) إلى الناس كافة، أن يكرّس حياته لنقل هذه الرسالة إلى الأمة كافة ليحملوها بدورهم الى كل الناس في كل بقاع الأرض، وقد رأينا أنه خير من تحمَّل هذه المسؤولية عبر كل الرسالات ومن بين كل النبيّين. . . فكانت سيرته تجسيداً للاسلام ومبادئه وقيمه.

لقد أرانا هو نفسه ﷺ أنه كان (النموذج) المؤهّل الذي ينبغي على من يتصدى لعمله ومهامه، أن يكون على أعلى درجة من الشبه والتقارب معه ﷺ عاملاً بنفس أسلوبه ومنهجه، متمتعاً بمثل ما تمتع به من قدرات استثنائية وشعور عالٍ بالمسؤولية التي ارتفعت به الى حد العصمة.

إنه أمرٌ لا يمكن أن يتاح للجميع، فسيرة الرسول ﷺ المتفردة لم تكن تتاح لأحد. . . فهي مهمة دقيقة وجادة. . ومن هنا كان الفحص عن الأشخاص المؤهّلين لحمل هذه الرسالة؛ هذا الدين القيّم، ونشره في الحياة ليكون قيّماً حقاً وحاكماً ومهيمناً، سيؤدي بنا الى ادراك أن من شُرّفوا بحمل هذه الأمانة الصعبة الثقيلة، كان ينبغي أن يتمتعوا بكفاءات وامكانات، تفوق الكفاءات والامكانات البشرية العادية.

* * *

تلفيقات وأقاصيص.. لتثبيت دعائم حكم الانحراف

غير أن المفارقة الكبيرة التي تطالعنا في ثنايا الحوادث العظيمة التي نالت من الاسلام وحاولت تدميره، هي قيام من لا يتمتعون حتى بالقليل الأقل من مزايا الرسول القائد ﷺ وقدراته وصفاته، وانما من تقاطعوا معه واختلفوا مع كل ما حمل من سجايا وصفات وقدرات، بقيادة الأمة الاسلامية الكبيرة على مرّ العصور، وادعاء خلافته وحق الأمرة والقيمومة على المسلمين... ! وهو أمر مهما حاولنا تخفيف وطأته، بمحاولة تحسين صور وأشكال وأفعال هؤلاء (الخلفاء) الذين تقاطروا على سدَّة الحكم، متذرعين بالحق الإلهي المتوارث، الذي يتيح لهم ذلك و(يمنع) الخروج عليهم بأية ذريعة، فلن نستطيع اخفاء نتائجه المدمّرة.

وإذا ما غضضنا الطرف عن معظم الحوادث والأفعال التي نسبت اليهم، فان ما وصلنا عنهم ـ ولا يكاد الجميع يختلفون عليه ـ ويكاد المؤرخون يجمعون على روايته ايضاً، والذي هو من المسلّمات والحوادث التاريخية المعروفة ـ يجعلنا ندرك، أنَّ عملهم ذاك قد شكَّل أكبر عملية اختراق للاسلام، بذرائع وحجج، أوجدوها هم، وحاولوا أن يبيّنوا للناس أن الله أرادها ودينهم دعا اليها...

وقد كانت التلفيقات والأقاصيص والأحاديث الكاذبة المفتراة على رسول الله ﷺ أولى الوسائل التي لجأوا اليها، مع ما لجأوا اليه من أساليب أخرى لبسط نفوذهم وتعزيزه مثل وسائل القمع والرشوة بالأموال

والمناصب، وإثارة العصبية القبلية والعنصرية التي أوشكت أن تموت في عهد الرسول ﷺ . . .

ولم يكونوا يستحيون أن يبيّنوا ـ وقد بيّن ذلك بعضهم فعلاً ـ ان همهم لم يكن إلاّ الحصول على الملك والسلطان، وأنهم غير حريصين على الاسلام أو الخلافة المقيّدة به، أو التي تحكم باسمه فعلاً، وبصورة واقعية . . وانهم لم يجعلوا من الاسلام إلاّ ستاراً يغطون به على أعمالهم وممارساتهم اللامشروعة . . . وقد أضافوا بذلك الى ظلمهم الناس الذين ابتلوا بهم، ظلماً لهذا الدين ورسول الله ﷺ ، وقد أرسلهما الله رحمةً لنا جميعاً[1] . . .

بين وضوح الاسلام.. والتواء المنحرفين

إن الوضوح الذي تناول به القرآن الكريم، أمور الاستخلاف على هذه الأرض ومسؤولية الانسان لمعرفة كل أبعاد هذه المسؤولية، وتوضيح جميع المهمات البشرية المنطلقة من الفطرة السليمة لتكون منسجمة مع دينه القيّم ـ بمختلف العصور ـ والمنزّل بصيغته النهائية المتكاملة على رسول الله ﷺ . . . هو الذي يجعلنا ندرك أيضاً سر العصمة التي تهيأت لرسول الله ﷺ ، ليكون هو نفسه أحد الصور الجميلة، بل خارقة الجمال لهذه الرسالة . . . وجعلنا ندرك أنَّ مسألة خلافة هذا الرسول ـ الذي تمتع بقدرات استثنائية مع أنها بشرية ـ والذي لم يحاول أن يجني أو يحصل على

---

(١) فقد (قال معاوية مخاطباً أهل الكوفة . . . ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجّوا ولا لتزكّوا، وقد عرفت أنكم ستفعلون ذلك، ولكن إنما قاتلتكم لأتأمّر عليكم، فقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون . .)، البداية والنهاية، ابن كثير، ج٨، ص١٣٤ . وقال معاوية: (. . إنّي لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا . .)، الكامل في التاريخ، ابن الأثير، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٩٨٧، م٣، ص٣٧٤ . . وهناك أقوال مشابهة (لخلفاء) آخرين . .

أيِّ مكسب شخصي له أو لعائلته إلاّ ما أعطاه الله ـ أمرٌ ينبغي أن لا يُنظر إليه بدافع الهوى أو المصلحة الشخصية المتحيزة، وانه ليس أمراً يُراد من ورائه السعي للمغانم والمكاسب الشخصية. وإن على من يتحملون مسؤوليات الرسول ﷺ ومهامه، أن يكونوا قريبين منه ومن شخصيته، بل ومن أكثر المؤهلين الذين يحملون بعض صفاته؛ وبعبارةٍ: من أشبههم به.

فهذه المسؤولية الكبيرة لا يستطيع حملها إلاّ محمد ﷺ ومن هم مثله وعلى شاكلته ومن أقرب الناس اليه... والقيمومة على المسلمين لا تكون إلاّ لأكثرهم كفاءةً وشبهاً به ﷺ.

وإلاّ ـ فبعيداً عن بعض ما ألِفناه من نقاشات ومماحكات لفظية وكلامية ـ هل نستطيع أن نتجنى على الاسلام، ونقول ان مسألة الحكم فيه لا تختلف عن أي منهج آخر، حتى لو كان (منهجاً) فرعونياً أو قيصرياً أو كسروياً أو شكلاً مستحدثاً، غالباً ما يتخذ أحد صيغ هذه (المناهج) بصيغ (حديثة) معاصرة تعتمد (الديمقراطية) و(إرادة الشعب) لتبرير وجوده وممارساته..؟

إن المنهج الاسلامي عندما يتقارب مع هذه المناهج الغريبة، ويحاول الأخذ عنها والتأثّر بها، ويلغي جانباً من أوجه التصور الاسلامي في الحكم والحياة، فانه يناقض بذلك نفسه، ويؤكد قصوره وعدم قدرته على إدارة الحياة بامكاناته الخاصة.. ويشهد على نفسه بذلك طالما أنه يستعين بغيره بالأمور الأساسية، ولا يجد في نفسه القدرة للقيام بمهمته لوحده. وطبيعي أن المنهج الاسلامي في الحكم، الذي تمثله السلطات الحاكمة (التي تأخذ مختلف الأشكال وتتسمى بمختلف المسميات).. وهي التي تحاول (التأثر) والأخذ و(الاقتباس)، وليس المنهج الاسلامي المطروح، والمطبّق في بداية عهد الرسالة من قِبَل الرسول ﷺ.. هذا المنهج ليس مسؤولاً عن ذلك، إلاّ أن الأوصياء والقيّمين هم الذين تنعكس تصرفاتهم علينا وعلى

غيرنا ـ من الغرباء عن عالمنا الاسلامي ـ سلباً أو ايجاباً.

إنهم بتصرفاتهم تلك وجريهم المحموم خلف تلك المناهج والصيغ الغريبة، ينسون، بل ويلغون عن عمد البُعد الإلهي المهم الذي أوكلت اليهم مهام الاستخلاف على أساسه وحده.. وان أي انحراف عن هذا المنهج، مهما اختلفت الحجج والذرائع بشأنه غير مبرر ولا مقبول على الاطلاق.

حكم الجاهلية.. الغاء الحكم الإلهي

وان الخروج عليه ـ ولو بمقدار بسيط، يعني جواز الخروج عليه لمدى أبعد وأوسع.. وإبعاده عن ساحة من ساحات الحياة، يعني التمهيد لابعاده عن جميع الساحات، وهذه حالة يرفضها الاسلام رفضاً قاطعاً:

﴿أفحكمَ الجاهلية يَبغون ومَن أحسن من الله حكماً لقومٍ يوقنون﴾[1].

﴿فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً﴾[2].

﴿إنَّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكمَ بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً﴾[3].

﴿... ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾[4].

﴿... ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾[5].

﴿.. فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتّبع أهواءهم عمّا جاءك من الحق لكلٍ جعلنا منكم شِرعةً ومنهاجا﴾[6].

﴿.. وأنِ احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتّبع أهواءهم واحذرهم أن

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٠.

(٢) سورة الانسان، الآية: ٢٤.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٠٥.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٤٤ ـ ٤٥.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٤٤ ـ ٤٥.

(٦) سورة المائدة، الآية: ٤٨ ـ ٤٩.

يفتنوك عن بعضِ ما أنزل الله إليك﴾[١].

﴿. . إنِ الحكمُ إلاّ لله أمَرَ ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه ذلك الدينُ القيِّم ولكنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون﴾[٢].

إن تعطيل أي جانب من جوانب الاسلام، تعطيل للاسلام كله. وإذا ما تم ذلك من قِبل (أهله)، فإن هذه شهادة عليه، بأنه غير مؤهّل لادارة الحياة وحكمها، وهي شهادة خطيرة، تنال منه أكثر مما تنال منه كل الحملات التي يشنّها عليه أعداؤه الأجانب عنه. إن ذلك يعني إما عدم فهمه، وهو أمر لا يقلّ خطورة عن الأمر الأول. . أو أن ذلك يتم بشكل متعمد. . ليفيد الحاكم ويعزز مصالحه ويبرر سلوكه أو خروجه بذريعة من الذرائع. . وفي كل هذه الحالات، فان من يتصرف على هذا الاساس، فهو غير مؤهّل حتى لتسلّم أبسط المسؤوليات الشخصية. . ناهيك عن مسؤوليات الأمة بأجمعها. . (خليفة) و(إماماً) و(ولياً) و(أميراً للمؤمنين).

إنَّ التجاوز على حد من حدود الاسلام وتأخيره، يعني ايضاً الاستعداد لتعطيل بقية الحدود. . أي الاستعداد للتخلي عن الاسلام نهائياً. .

وقد بيّن أمير المؤمنين عليه السلام الفئات التي ينبغي أن تستبعد عن مركز قيادة المسلمين تحت أية مسميات أو واجهات. . . (. . لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل فتكون في أموالهم نهمتُه، ولا الجاهل فيضلهم بجهله ولا الجافي فيقطعهم بجفائه ولا الحائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة)[٣].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨ ـ ٤٩.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٤٠.

(٣) نهج البلاغة، ٣٠٠ ـ ٣٠١.

(.. إنّ أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه وأعلمهم بأمرِ الله فيه..)[1].

(.. لا يقيم أمر الله إلاّ من لا يصانع ولا يضارع ولا يتبع المطامع)[2].

* * *

دور الامام.. مكمل لدور (الرسول)

إن دور الامام في الأمة الاسلامية مكمل لدور الرسول الامام.. ومن غير المعقول أن يتصدى لهذا الدور مَن لا يحمل حداً أعلى من المؤهلات القريبة من مؤهلات حامل الرسالة ﷺ نفسه، بكل أشكالها وصورها.. وإن كان لا أحد يستطيع أن يجاريه مجاراةً تامة بكافة المؤهلات التي حملها ﷺ... ولعلَّ من الغبن الكبير للرسالة والناس ـ على السواء ـ أن يُستبعد مَن أُهِّلَ لهذه المهمة، لكي يتولاها من لا يستطيع حملها كمهمة مكملة للدور التاريخي للرسول ﷺ... فكيف سيكون الأمر إذا كان مَن يحملها مِن أبعد الناس عن تلك الشخصية (النموذج) التي عرضت علينا بشكل واضح، ولا زالت مسيرتها تتراءى أمامنا كمنهج مكمل لمنهج القرآن الكريم.

وإذا ما حصل أن انقطع دور الرسالة، وانتهى عمر الرسول ﷺ، فان ذلك يعني انقطاع الدور الذي ينتهي فيه التنزيل، ولكن دور التبليغ والاداء لا ينقطع؛ إذ أن دور الامامة الذي ترافق في البداية مع دور الرسالة يستمر ويمتد مع عمر الأمة طالما أنها تواجه ظروفاً وأحداثاً ومستجدات حياتية مختلفة.. ليعالج كل متغيرات الحياة وملابساتها ومشاكلها المستجدة على مرّ الأيّام.

---

(١) المصدر السابق، ص٣٧١.

(٢) نفس المصدر، ص٦٨٢.

إن تصوير الأمور بالشكل الذي بدا لبعض الناس فيه أن لقريش حقوقاً مكتسبة باعتبارها من سلالة ابراهيم عليه السلام عن طريق ابنه اسماعيل عليه السلام، كما كان بعض أهل الكتاب يعودون بنسبهم اليه عن طريق اسحاق عليه السلام، وترتيب حقوق اضافية على هذا الأساس وسلطاناً مكتسباً لهذا السبب فقط، وقوامة على الناس وفضلاً وشرفاً؛ أمر غير مبرر على الاطلاق.. إذ أن المؤهل الوحيد لنيل الفضل والشرف والقوامة ونيل درجة الامامة التي هي جزء متمم لدور الرسالة، ومكمل لمسيرتها عند انقطاعها، لا يناله إلاّ من استحقوه عن جدارة...

وهذا الاستحقاق يتمثل بالاستجابة التامة للرسالة وحملها بكل ما تحفل به من قيم وتصورات.. وإن أي انحراف أو ميل عنها، مهما تكن التبريرات يعني عدم استحقاق من ينحرف أو يميل شرف الانتماء الى الاسلام أصلاً، ناهيك عن مركز الامامة أو الخلافة الرفيع، طالما أن المرء قد تصدّى للقيام بهذا المركز الرفيع. فما لم يكن الاسلام هو الحاكم، وما لم تكن الاستجابة له تامة دون تحفظ.. وما لم يتمسك به اولئك الذين يريدون (استثمار سلطانه) عن ايمان وقناعة، فلا معنى للسلطان الذي يدعونه لأنفسهم، ولا معنى لطلبهم أية حقوق أو امتيازات على أساس قرشيتهم وانتسابهم لابراهيم عليه السلام... ولهذا جاءت مقالة امير المؤمنين عليه السلام لأهل المدينة موضحةً هذا الأمر الدقيق: (... إن في سلطان الله عصمة أمركم، فأعطوه طاعتكم غير ملويّة ولا مستكره بها. والله لتفعلن أو لينقلنّ الله عنكم سلطان الاسلام ثم لا ينقله اليكم أبداً حتى يأزر الأمر اليها..)[1].

فقد كان سلطان الله فيهم طالما كانوا محافظين على الاسلام، وحملوا تصوراته وقيمه.. فهو الضمانة الوحيدة لعصمة امرهم ومنعتهم، وجعلهم

(١) الكامل في التاريخ، م٣، ص٩٥.

يظلون في المقدمة. . كما أن ابتعادهم عنه يعني فقدانهم المؤهل الوحيد لتوحيد شملهم وقوتهم، وإلاّ فهو منقول الى غيرهم.

إن هذه الأمة قد استحقت (وراثة هذه الأمانة، دون ذرية ابراهيم جميعاً، بذلك السبب الوحيد الذي تقوم عليه وراثة العقيدة، سبب الايمان بالرسالة، وحسن القيام عليها، والاستقامة على تصورها الصحيح)[1].

إن هذا التصور الصحيح للرسالة قائم على التوحيد وهو (الاعتقاد بوحدانية الخالق في الألوهية، وعدم وجود شريك له في الربوبية واليقين انه هو المستقل بالخلق والرزق والموت والحياة، والايجاد والاعدام، بل لا مؤثّر في الوجود إلاّ الله، ولا تجوز العبادة إلاّ لله وحده لا شريك له، ولا تجوز الطاعة إلاّ له. . .)[2].

لقد قام القرآن الكريم، ببناء التصور الاسلامي، على أسس واضحة بيّنة، وأكّد على مسألة الوحدانية بشكل رشيق رفيق، يخاطب الفطرة الانسانية السليمة المؤهلة لعبادة الله والاستجابة التامة له.

إن البساطة الكبيرة والوضوح الخارق الذي تعامل به القرآن الكريم، بخصوص هذه المسألة، أمر اختصّ به هذا الكتاب المعجز المبين المنزل، وتكاد آياته، تخاطب الفطرة الانسانية خطاباً مباشراً قريباً، مفهوماً منسجماً معها ومع كل تطلعاتهاالمشروعة السليمة، ومع كل ما تحفل به من ارتفاع وسمو هما ارتفاع وسمو الروح الإلهية التي نفخها في الانسان. . ومن تدنٍّ وهبوط الى التراب الذي خلق منه هذا الانسان **﴿إذ قال ربُّك للملائكةِ إني خالقٌ بشراً من طين فإذا سوّيته ونفختُ فيه من روحي فقَعوا له ساجدين﴾**[3].

---

(١) في ظلال القرآن، م١، ص١٠٥.

(٢) أصل الشيعة وأصولها ـ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ـ النجف الأشرف، ١٣٥٠هـ، ص١٠٦.

(٣) سورة ص، الآية: ٧١ ـ ٧٢.

لم يتعامل القرآن الكريم مع انسان (مثالي) تميّز بصفات ملائكية وحسب، غير موجود على أرض الواقع، وإنما تعامل مع انسان يحفل بالغرائز والرغبات والنزعات المتباينة المتناقضة.. وقد جعل القرآن ـ ضمن مهماته ـ أن يوظف هذه الغرائز والرغبات والنزعات لمصلحة الانسان وتنظيم حياته، بشكل يوحّد في حسه طريق الدنيا والآخرة ويضمن له خيرهما.. وتظل هذه المهمة دائمية متواصلة لا تنقطع في زمن معين، ولا تصل الى هذا الانسان عن طريق كهنة أو أحبار أو سدنة.. وإنما تظلّ تخاطبه بشكل مباشر سريع.

مع الكاتب الاسلامي، محمد قطب، تبرير الانحراف

لقد حسم القرآن الكريم، مسألة الايمان بالله، والتصور الاسلامي الصحيح بخصوص التعامل مع هذه المسألة، لا على أساس يهتم بالممارسات الطقوسية فحسب، وانما على أساس أداء سلوكي حياتي عبادي متكامل.. وبعبارة أدق: منهج كامل للحياة، تترابط كل مفرداته ومواده مع بعضها ترابطاً حياً، متناسقاً، منسجماً متوازناً لا يطغى فيه جانب على آخر... (وانه ليوحّد بين شتى ألوان النشاط البشرية، فلا يفرّقها نشاطات مختلفة، منفلتة، كل واحدة في طريق، فالنشاط السياسي قائم بذاته! والنشاط الاقتصادي قائم بذاته، والنشاط الاجتماعي قائم بذاته، والنشاط الفكري والروحي قائم بذاته، والنشاط الفني قائم بذاته، كأنما يمكن أن يقوم في الحياة البشرية شيء منفصل عن شيء، وكأنما هي خزانات متفرقة، كل واحدة منها لها مفتاحها الخاص..)[1].

لقد أوردنا هنا هذا النص من محاضرة الأستاذ محمد قطب، حيث أن لنا أحاديث معه بخصوص أقواله نفسها عندما تكلم عن المبررات التي ساقها

(١) الصراع بين الفكر الغربي والفكر الاسلامي ـ محمد قطب ـ دار الفاروق، الطائف، ص٦.

معاوية، أو التي ساقها هو لمعاوية، وعندما أكد كاتبنا الكبير أنه انحرف في (المجال السياسي) فقط.. وان هذا الانحراف في هذا المجال الوحيد فقط...! ينبغي أن لا يعطي صورة غير دقيقة لذلك التاريخ... صورة مشوّهة ممسوخة[(١)].

إذ كيف كان يمكن أن يقع الانحراف في المجال السياسي فقط، لو لم تقع من نفس مستعدة للانحراف لا في هذا المجال فقط، وإنما في كل المجالات... وطبيعي أن ذلك الانحراف (وليس مجرد خطأ واحد بسيط)، عندما يقع من قبلها، فان ذلك يعني أنها لم تستجب لطبيعة الاسلام الموحّدة لشتى ألوان النشاط البشري... فلماذا التكلم إذاً عن فصل النشاط السياسي عن بقية النشاطات، عندما نبحث انحراف معاوية وغيره الواضح في هذا الجانب وعدم ربطه بجوانب الانحراف الأخرى، وإهمال تلك الانحرافات وعدم التحدث عنها، واتهام من يتناولها، بأنه يقوم بذلك بدوافع الميول الشيعية..! هذه الاتهامات التي يلجأ اليها كل من يعجز عن مقارعة الحجة بالحجة.. ولا يجد ما يبرر به سلوك من يميل اليه، وان ادَّعى الموضوعية والحياد.. ولنا عودة ـ إن شاء الله ـ إلى هذا الموضوع، عندما نتطرق إلى الحديث عمّا نال الاسلام من شرخ كبير نتيجة انحراف معاوية الفاضح والبيِّن عن خط الاسلام الواضح الأمر الّذي ظلّت تعاني منه هذه الأمة الاسلامية المنكوبة ليومنا هذا.

والطامّة الكبرى أن بعض كبار مفكرينا الاسلاميين، عندما يعيدون الحديث عن وقائع ذلك الانحراف ومبرراته.. ويتكلمون عنه وكأنه كان نتيجة النزاع أو الخلاف الشخصي بين علي ومعاوية.. بين شخصين تحفل نفساهما بنفس القدر من عوامل الخير والشر، وانهما متكافآن من حيث امكانية الوقوع في الخطأ أو تنكب طريق الصواب. وهذا أمر لنا عودة له

---

(١) كيف نكتب التاريخ الاسلامي ـ محمد قطب ـ دار الوطن للنشر ـ الرياض، ١٤١٢هـ، ص٣٣.

بعون الله. غير أننا عندما نستمع الى أقوال مثل هذه (إن قوماً من الناس، تهولهم الزوبعة التي غشيت المجتمع المسلم بالنزاع بين علي ومعاوية)[1]. . فان قوله هذا يهولنا حقاً، وهو الباحث الرصين، عندما يدعو الى التروّي والدقة والموضوعية والحياد، عند كتابة التاريخ. ثم يقوم بتصوير الأمر وكأنه مجرد زوبعة تثار نتيجة صراع بين علي ومعاوية. . هكذا فقط. واننا ينبغي أن لا ننزعج منها، ونعتمد على قوة هذا الدين، التي ستخلصه من النتائج المسيئة لهذه الزوبعة الناشئة من الصراع بين هذين الشخصين. . .

لقد سار الأمر كما أراد معاوية بالضبط. . . عندما صوّر مسألة سعيه لاغتصاب الخلافة من أصحابها الشرعيين، وكأنه خلاف بين شخصين متكافئين قريبين من بعضهما بالنسب والجاه. . ! وأن المعركة كانت خاصة بينهما، ولا علاقة للاسلام، ولا حتى للمسلمين بها. . ! لقد بلغ من (دهاء) معاوية أن كتّاباً إسلاميين عديدين، مثل كاتبنا الاستاذ محمد قطب، مشهود لهم بالمواقف الجيدة والنظرات الصائبة عند تناول العديد من القضايا الاسلامية المتنوعة، ينخدعون به. . فكيف لا ينخدع به السذّج والبسطاء الذين لا ينظرون إلى الأمور بالدرجة نفسها من الدقّة والوعي والعمق. .

أَإِلهٌ مع الله..!؟ رسالة التوحيد.. بعدٌ إلهي خالص

إن رسالة التوحيد، تلغي كل الأطروحات والتصورات البشرية البحتة عن الآلهة، والإله الكبير، ابتداءً من التصورات البدائية الأولى، وحتى الأسطورية الأغريقية ثم الرومانية المشركة التي نشأت في أعقاب المسيحية الهشّة، بعد غياب السيد المسيح عليه السلام ورسالته الحقّة، ومسخ الديانة اليهودية التي أقام اليهود على انقاضها ديانة أخرى، منطلقين من مصالحهم

(١) المصدر السابق، ص٦٨.

وأطماعهم وعقدهم الكبرى. . . كما أن هذه الرسالة تلغي الأدوار المزعومة لآلهة الشرك التي عبدها البوذيون والمانويّون والزرداشتيّون والهندوس وعبدة الأصنام في الجزيرة العربية.

وعندما تؤكد أن كل هذه الآلهة والمعبودات هي من نتاج العقل البشري ﴿إن هي إلاَّ أسماءٌ سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطانٍ إن يتّبعون إلاَّ الظنَّ وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾(١).

﴿ما اتّخذ الله من ولدٍ وما كان معه من إلهٍ إذاً لذهب كلُّ إلهٍ بما خلقَ ولعلا بعضهم على بعضٍ سبحانَ الله عمَّا يصفون﴾(٢).

﴿. . أَءِلهٌ مع الله بل هم قومٌ يعدلون﴾(٣).

﴿. . أَءِلهٌ مع الله بل أكثرهم لا يعلمون﴾(٤).

﴿. . أَءِلهٌ مع الله قليلاً ما تذكّرون﴾(٥).

﴿. . أَءِلهٌ مع الله تعالى الله عما يشركون﴾(٦).

﴿. . أَءِلهٌ مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾(٧).

﴿. . أئِنّكم لتشهدون أنَّ مع الله آلهةً أُخرى قلْ لا أشهدُ قل إنما هو إلهٌ واحدٌ وإنني بريءٌ مما تشركون﴾(٨).

---

(١) سورة النجم، الآية: ٢٣.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٩١.
(٣) سورة النمل، الآية: ٦٠.
(٤) سورة النمل، الآية: ٦١.
(٥) سورة النمل، الآية: ٦٢.
(٦) سورة النمل، الآية: ٦٣.
(٧) سورة النمل، الآية: ٦٤.
(٨) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

﴿هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهةً لولا يأتون عليهم بسلطانٍ بيّنٍ فمن أظلمُ مِمَّن افترى على الله كذباً﴾[1].

﴿ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إنّي لكم منه نذيرٌ مُّبين﴾[2].

. . . وإن هذا العقل البشري، حاول تبرير وتفسير كل ظاهرة وأمر لصالحه، أو لصالح (الملأ) أو الطبقات العليا الرفيعة التي تحكَّمت بالمجتمعات البشرية على مر العصور، فان رسالة التوحيد قامت بمحاولة تصحيح، بل الغاء هذا التصور البشري البحت، ومسح كل لمساته وظلاله التي ألقيت على العقل البشري خلال حقب طويلة من الزمن، وأعلنت عن عزمها المنبثق عن اليقين المطلق لحلّ الجدل والتناقضات التي نشأت نتيجة هذا التصور، لا عن طريق هذا الجدل وهذا التصور نفسه ـ فإن هذا أمرٌ لا يمكن أن يؤدي الى نتيجة بأي حالٍ من الأحوال، وإنما من خلال (الشعور بالمسؤولية، لكن لا الشعور المنبثق عن نفس هذا الجدل، فان الشعور المنبثق عن نفس هذا الجدل لا يحلّ هذا الجدل، هو ابن الجدل، بل هو إفراز هذا التناقض، وإنما الشعور الموضوعي بالمسؤولية لا يكلفه إلاَّ المثل الأعلى الذي يكون جهة عليا، يحس الانسان من خلالها بأنه بين يدي ربٍ قادرٍ سميع بصير محاسب، مجازٍ على الظلم، مجازٍ على العدل)[3].

وإذ أن المعركة لا تأخذ طابع الخلاف النظري حول الأفكار والتصورات البحتة فقط، وإنما هي معركة مصالح وامتيازات ـ على مرّ العصور ـ فانها تتخذ طابعاً شرساً، تقف فيه الأقلية (المنتقاة) لتعزيز سيطرتها ونفوذها، موقفاً صلباً، لا تسامح فيه ولا لين، مكرّسة طاقاتها وامكاناتها الكبيرة، ومنها الأغلبية المستضعفة ذاتها، التي جعلتها تدور في

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٥.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥١.

(٣) المدرسة القرآنية، ص١٨٩.

فلكها، وجعلت منها دوائر متعددة الأقطار والأطوال لحماية مصالحها. . . ورغم انها مستغلة، فانه أُريد لها أن لا تعرف ذلك، وتعلم أن حياتها ووجودها ترتبطان بحياة ووجود الأقلية المتنفذة، وان أي خروج عن قطر أية دائرة محددة لها، يعني الخروج عن بقيتها، وخروج على الأقلية المتنفذة نفسها. . التي غالباً ما تمسك بجهاز الحكم بقبضة حديدية بشكل مباشر، وعن طريق الثروة والمال ووسائل النفوذ المختلفة. . وتحاول أن توحي اليها ـ أي إلى الطبقة الواسعة المستضعفة (الجاهلة غالباً والفقيرة) ـ أن خروجها يعني تحطيم (مصالحها) هي أولاً. . قبل أن يصل الأمر إلى الإضرار بالطبقة الحاكمة. . !!

وليس من السهل على المرء ـ في ظل أوضاع كهذه ـ أن يعلن عن نواياه المجرَّدة، بضرورة محاربة المستغلين المتنفذين، بل وتغيير كل الأوضاع التي كرّست لتعزيز هذه المصالح، والقيام بثورة اجتماعية كبرى. وهذه لا تنجح في أغلب الأحيان، إذ أن التصدّي لها سيكون حازماً وعنيفاً ـ إلاَّ إذا كان الدافع أقوى من مجرد الشعور العادي بالظلم، وإلاَّ إذا كانت هناك قيادة مؤهلة، مكلفة من قِبَل قوة عظمى، غير بشرية وضعت لهذا الكون نظاماً دقيقاً، ووضعت لعموم الناس نظاماً لا يقل دقةً وانسجاماً وتناسقاً عن النظام الكوني الدقيق نفسه. وهذه القيادة متمثلة بالرسول البشر المؤهّل المختار من قِبَل هذه القوة العظمى، يستطيع حمل الرسالة وتبليغها بوعي واصرار. . . بعد أن يتيقن هو نفسه بقدرة من اختاره واصطفاه لعمل هذه الرسالة، وبعد أن عرفه معرفة تامة.

فالنبوة ـ هنا ـ ليست أمراً بشرياً خالصاً، مع أن البشر هو الذي حملها من قِبَل الله ـ سبحانه ـ كما أنها ليست تجسيداً لمصالح الأقلية على حساب الأغلبية، وليست توظيفاً للأفكار البشرية لضمان مصالح هذه الأقلية. وهي ليست منبعاً لأفكار وآراء مهدئة أو منومة أو مخدرة، وليست أفيوناً ـ كما

يدّعي الماديون والملحدون، الذين يقطعون كل صلة أو علاقة للحياة مع الخالق، ويفسرون الوجود على أساس مادي بحت يخضع لقانون الصدفة أو الاحتمالات الخيالي الذي لا يمكن أن يهضم من قِبَل العقل البشري على الاطلاق لما يحفل به من ثغرات وأخطاء وتناقضات غريبة تزيد الأمر تعقيداً وتجعل الوصول الى أي جواب مقنع أمراً مستحيلاً.

النبوة.. ظاهرة ربانية.. وكذلك الامامة

غير أن (النبوة ظاهرة ربّانية في حياة الانسان، هي القانون الذي وضع صيغة الحل بتحويل مصالح الجماعة وكل المصالح الكبرى الى مصالح للفرد عن طريق إشعاره بالامتداد بعد الموت والانتقال الى ساحة العدل والجزاء)[1].

وعندما يعمل دين التوحيد على تقليص أو استئصال امتيازات الأقلية المستغلّة، فإنّ مهمته في ذلك ليست منبثقة عن ذات الرسول أو النبي نفسه لاصلاح الحالات الشاذة وإعادة الأمور الى نصابها بما يحقق العدالة للجميع، إذ أنه لو فعل ذلك على هذا الأساس، لكان عمله وتطلعه بشرياً بحتاً قابلاً للخطأ والصواب.. لكنه يعمل ذلك بوحي من رسالة حُمِّل بها وأرسل بها من قِبَل الله ـ سبحانه ـ رسالة واضحة المعالم في ذهنه.. تحمل القدرة على ارساء حياة متوازنة متوافقة في المجتمع الذي ارسل اليه ـ وهو المجتمع الانساني كله بالنسبة الى الاسلام ـ ومن هنا كانت مهمة هذه الرسالة الأخيرة الخاتمة، مهمة توحيد العالم كله على أساسها وهي مهمة هائلة تحتاج الى قيادة عظيمة ـ تقتدي بقيادة الرسول ﷺ وتجعل منها أساساً لعملها وتوجهاتها.

و(النبوّة هي التي توفر الصلة الموضوعية بين الانسان وما بين المثل

(١) الفتاوى الواضحة، السيد محمد باقر الصدر، المقدمة.

الأعلى.. الحق المنفصل عنها الذي هو ليس من افرازها ومن انتاجها المنخفض، هذه الصلة الموضوعية يجسدها النبي، النبيّ على مر التاريخ.. الأنبياء صلوات الله عليهم هم الذين يجسّدون هذه الصلة الموضوعية)[١].

﴿قل يا أيها الناسُ إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له مُلكُ السّماوات والأرض لا إله إلاّ هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأُمّي الذي يؤمن بالله وكلماته واتّبعوه لعلّكم تهتدون﴾[٢].

﴿إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوحٍ والنبيّين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباطِ وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زَبوراً ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبلُ ورُسلاً لم نقصصهم عليكَ وكلَّم الله موسى تكليماً. رُسلاً مبشّرين ومنذرين لئلاّ يكون للناس على الله حجة بعد الرُّسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾[٣].

ومن هنا نرى دقة انتقاء الرسل من بين ملايين البشر، لحمل هذه المهمة الضخمة التي يتعرضون فيها لمختلف المخاطر وضروب المحن والشدائد، فلا يتنازلون ولا يتوانون عن تبليغ ما حمّلوا الى الناس، ولا ترهبهم تلك القوى المتسلّطة، مهما بالغت في استعراض سلطانها وبطشها وجبروتها.

إن الرسول ينطلق في عمله الرسالي عن يقين مَن وعىٰ وعلم وشاهد وسمع الرسالة، وهي تصل اليه واضحة غير مبهمة، لكي يتولى مهمة ايصالها الى البشر الآخرين، فهو ينطلق في مهمته دون تحفّظ، متيقن من وجود القدرة الإلهية الفاعلة الخالقة المدبّرة القديرة التي تتضاءل امامها كل

(١) المدرسة القرآنية، ص١٩٨.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٦٣ ـ ١٦٥.

القدرات البشرية العادية، مهما أحاطت نفسها بمظاهر القوة والتسلّط. أن هؤلاء الرسل معدّون مسبقاً ومعروفون من قبل مجتمعاتهم قبل نزول الرسالة عليهم، فان مهمتهم تبدو سهلة في هذه المجتمعات ـ وخصوصاً بين الطبقات المغلوبة والمقهورة ـ ولا تكاد تلقى أية صعوبات، لولا التحدي الشرس لآلهة المصالح والشرك، التي تحجّرت على قيمها ومثلها وأوضاعها، والتي حققت في سالف عهدها اكبر قدر من النجاح والفوز في هذه الدنيا، ووظفت كل مخلوقات الله لتثبيت هذه الأوضاع، . . ولا بد أنها ستقف بقوة أمام أية جهة تنشد التغيير، حتى لو كانت بوحي من الله نفسه.

وإذاً فإن المسألة، ليست مسألة رغبة في التغيير، تساور نفس الرسول وحسب، وإلاّ لما كان رسولاً، وإنما كان مجرد مصلح أو ثائر، يريد تغيير نمط واحد من أنماط الحياة، أحسَّ أنه يلحق غبناً أو حيفاً بالمجموع، فأراد تغييره. وكان على هذا الأساس وحده، سيخضع ـ كغيره ـ لكل المشاعر البشرية المتضاربة، وما كان سيتمتع بأيّة قدرة استثنائية، تجعله مؤهلاً لقيادة الناس واستقطابهم حوله. . وكان سيتوقف. . يهرب، أو يساوم أو يتعثر عند أول معركة، وكانت الهزيمة لا بد لاحقة به، وربما هزم أمام نفسه وبنظر أصحابه أنفسهم إذا ما تراجع ولم يمض حتى النهاية. .

يقين تام.. قل الله، ثم ذرهم

إن يقين الرسول الأكيد، وتوجهه التام لحمل الرسالة الموكلة اليه، واندماجه الكلي، بكل ما تحمله من قيم ومبادىء وشعارات، يجعل من تصرفاته الحياتية اليومية، مهما تكن بسيطة، منصبَّة على تجسيد ما يحمله. . وتكاد تكون أبسط مفردات هذه الحياة (شواهد) و(نماذج) معروضة أمام الآخرين الذين يتلقون منه الرسالة.

إن ذاته كلها مكرَّسة للرسالة التي يحملها ولا يكاد يرى غيرها، وتهو

عليه كل القوى المعرقلة والمانعة والمعادية مهما استعملت من قدرات تدميرية وقمعية هائلة أمام الآخرين ما دام متيقناً من الفوز في نهاية المطاف.. فوزاً لا يعرفه أعداؤه ولا يرجونه... إن ذاته منسجمة مع الذات الإلهية التي حمّلته هذه الرسالة انسجاماً تاماً... ﴿.. قل الله ثم ذرهم..﴾[1].

﴿فإن تولّوا فقل حسبيَ الله لا إله إلاّ هو عليه توكّلت وهو ربُّ العرش العظيم﴾[2]. فهو يحب في الله ويبغض في الله ويعطي في الله ويمنع في الله...

إن مهمة الرسول تمتد لايجاد نماذج مشابهة له على الساحة التي يعمل فيها، بعد وفاته واختفائه منها، مع أن هذه النماذج قد لا تؤثر نفس تأثيره أو تتطابق معه تطابقاً تاماً. وهذا أمر لا يعبّر عنه بمجرد ابداء الرغبة بذلك، وإنما من خلال إعداد بعض النماذج المقرّبة منه، والتي يتوسم فيها قابلية وتفوقاً واستعداداً لاكمال مهمته بعد غيابه. انه يريد نقل يقينه الى الآخرين، وهي مهمة تربوية تستدعي صبراً وثباتاً ويقيناً من قِبَل من يعدّ لمثل هذه المهمة..

إن هذا اليقين الذي يحمله الرسول، يجعله لا يرى أمامه إلاّ أداء مهماته على الوجه الذي يريده الله ـ سبحانه ـ أداءً متقناً رفيعاً ينسجم وعظمة الرسالة التي يحملها وعظمة وقدرة الخالق الذي أنزلها واختاره هو لتبليغها. ان عمق شعوره بالمسؤولية هو الذي يجعل منه معصوماً، إذ أن أي انحراف مهما كان بسيطاً، وأي خروج عما يدعو اليه هو نفسه، سيكون انتكاسة كبيرة لهذا الدين الذي يدعو اليه.. وسيكون تفسير أي (خطأ) من الرسول

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩١.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٩.

للآخرين ـ مهما كان هذا الخطأ بسيطاً ـ أمراً غير قابل للفهم أو التبرير، فإن على من يحمل الرسالة وينقلها الى الآخرين، أن يكون وجهاً ناصعاً لها، وصورة ناطقة تشهد بوضوحها وضرورتها ايضاً. . بل الرسالة نفسها.

وما أرسلنا من رسولٍ إلا ليطاع فكيف عُصي الرسول ﷺ؟

لذلك فان شهادة الله لرسله، وخصوصاً لخاتمهم محمد ﷺ بأنه المصطفى، وأنه خير الخلق. . وانه بلغ الغاية في الخلق العظيم. . . ليس من باب زج الثناء لمجرد زج الثناء، وإنما أراد ـ سبحانه ـ بذلك، أن ينبّهنا أن سيرة الرسول ﷺ وسنّته، بكل ما تحفل به من أوضاع وأقوال وأعمال، مكملة لكتابه الكريم المنزل، بل هي امتداد له، وانها تشكل معه قوام الاسلام وأساساً لكل فعالياته وتشريعاته وقيمه. . . لذلك فإنَّ طاعته مفروضة على الناس كطاعة الله. . إذ أن محصل طاعته ستؤدي بالتالي إلى تحقيق ما يريده الله وإلى طاعته سبحانه ومن غير المعقول أن نجد تقاطعاً أو تناقضاً إذا ما أطعناهما كليهما: الله ورسوله.

﴿وما أرسلنا من رسولٍ إلاَّ ليطاعَ بإذن الله. .﴾[1].

﴿من يطع الرسولَ فقد أطاعَ الله. .﴾[2].

﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسِكم عزيزٌ عليه ما عنتُّم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم﴾[3].

﴿. . ومن يطعِ الله ورسوله يدخله جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهارُ

(١) سورة النساء، الآية: ٦٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٠.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ومن يعصِ الله ورسولَه ويتعدَّ حدوده يُدخله ناراً خالداً فيها وله عذابٌ مهين﴾[1].

﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا. . . ﴾[2].

﴿وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم﴾[3].

﴿وما أرسلناك إلاّ رحمةً للعالمين﴾[4].

﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾[5].

وعندما يقول الرسول الكريم عن نفسه (أنا سيدُ البشر ولا فخر) ويقول: (إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه). . فإنه لا يتباهىٰ بذلك تباهي الجاهلين أو يفخر كفخرهم، وإنما يريد إقرار حقيقة: أنه مختار ومصطفى ومنتقى من قِبَل الله بشكل خاص لحمل خاتمة الرسالات، الرسالة الاسلامية الكاملة، الى البشر كافة، في كافة أقطار الأرض وفي كافة الأزمان والعصور. لا على أساس التصورات البشرية الخاصة المجردة، بل على أساس اليقين المطلق والمعرفة الحقيقية بما أنزل الخالق، وعلى أساس المثل الأعلى الذي لم يكن نابعاً من تصوراته الذاتية. . . إن هذا (المثل الأعلىَ المنفصل عنه، الذي هو فوقه، الذي أعطاه نفحة موضوعية من الشعور بالمسؤولية، وهذا الشعور بالمسؤولية تجسد في كل كيانه، في كل مشاعره وأفكاره وعواطفه ومن هنا كان النبيّ معصوماً على مرّ التاريخ)[6] إذ لو لم يكن كذلك، وكان معرَّضاً كغيره للوقوع بنفس الأخطاء التي يقع فيها

(1) سورة النساء، الآية: ١٣ ـ ١٤.
(2) سورة الحجرات، الآية: ١٥.
(3) سورة القلم، الآية: ٤.
(4) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.
(5) سورة الحشر، الآية: ٧.
(6) المدرسة القرآنية، ص١٨٧.

الآخرون، لكان معرضاً أيضاً لعدم القدرة على القيام بنقل الرسالة نقلاً أميناً، أو تحريفها بما يوافق هواه، ولما كان ذلك يمثّل انتكاسة واضحة لهذا الدين ـ تسبب فيها قيام الرسول نفسه بالتحريف والتبديل! فإن انتكاسات أخرى محتملة لا بد أن نتوقعها من أناسٍ آخرين، لا يحملون نفس اليقين الذي يحمله، كما نتوقع أن تتزايد وتتعمق على مرّ الأيام، ومعنى ذلك أن هذه الرسالة مقضيٌ عليها بالفشل والموت منذ البداية، وان ضمانة ديمومتها وثباتها وتحكمها في الحياة أن لا يكون ناقلها الى الناس، وهو الرسول، خاضعاً لما يخضع له الناس الآخرون من عوامل الضعف والانحراف والانسياق وراء الهوى أو المصلحة الشخصية وان يكون منزهاً عنها، ليكون الجميع على يقين بأن الرسالة قد وصلتهم كاملة سالمة غير محرَّفة ولا مبدَّلة . . .

* * *

دور الامامة يندمج مع دور النبوة.. ولا بد من امتدادها

إن أمام الرسل دائماً ـ وعلى امتداد التاريخ ـ معارك حقيقية، إذ أن من احتكروا السلطة والنفوذ والثروات، ونصبوا انفسهم مثلاً عليا وآلهة وطواغيت، لم يكونوا ليتركوا الساحة، ويدعوا الأمور هكذا ببساطة، امام من جاءوا يساوون بين الناس، على أساس العدل (الالهي) والسلطة الإلهية وحدها ووحدها فقط، ولم يكونوا ليتركوا قيمومتهم وزعامتهم على الناس، لمجرد الاستجابة لرسالات لم يكونوا هم ـ دون غيرهم على الخصوص يدركون محتواها الحقيقي ـ في غمرة تمتعهم بالامتيازات وحياة الرفاه والبذخ والتسلط . . . فكان لا بدّ من المعارك! لا بد من قيامهم بتكريس كل قواهم واستنفاد كل طاقاتهم للتصدي لأي عملية تغيير تعمل على (تعكير) صفو حياتهم التي نظموها، على أساس ضمان هذه المصالح، واستمرار وتكرار نموذج الحالة التي عاشوها وعاشها آباؤهم من قبل.

والمعركة لا بد أن تواجه باستعداد مماثل لها من قبل هؤلاء الرسل، بل ان هذه المعركة لا بد أن تكون أول ما يضعه هؤلاء الرسل نصب أعينهم.. وعليهم أن يعدوا أنفسهم ومن آمنوا برسالاتهم لخوضها ضد الطواغيت والآلهة المصطنعة.. (والمثل المنخفضة التي تنصب من نفسها قيماً على البشر، وحاجزاً، وقاطع طريق بالنسبة للمسيرة التاريخية.. لا بد من معركة ضد هذه الآلهة ولا بد من قيادة تتبنى هذه المعركة. وهذه القيادة هي الامامة، هي دور الامام. الامام هو القائد الذي يتولى المعركة. ودور الامامة يندمج مع دور النبوة في مرحلة من النبوة يتحدث عنها القرآن.. ودور الامامة يندمج مع دور النبوة، ولكنه يمتد حتى بعد النبي، إذا ترك النبي الساحة، وبعد لا تزال المعركة قائمة، ولا تزال الرسالة بحاجة الى مواصلة هذه المعركة من أجل القضاء على تلك الآلهة، حينئذٍ يمتد دور الامامة حتى بعد انتهاء النبي)[١].

ومن هنا قام القرآن الكريم بإعداد المسلم لفهم دوره الايماني الذي يعني ببساطة التمسك بالاسلام كله، والعمل بكل تعاليمه وأحكامه، ويعني أيضاً رفض كل ما عداه ﴿إنَّ الدين عند الله الاسلام..﴾[٢].

﴿أفغيرَ دين الله يبغون..﴾[٣].

﴿فأقم وجهك للدين القيّم..﴾[٤].

﴿ومن يبتغِ غير الاسلام ديناً فلن يقبلَ منه..﴾[٥].

---

(١) المصدر السابق ص١٩٦.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٨٣.
(٤) سورة الروم، الآية: ٤٣.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

﴿إنَّ الله اصطفى لكم الدينَ فلا تموتُنَّ إلاّ وأنتم مسلمون﴾[1].

﴿فمن يُرِد الله أن يهدَيهُ يشرح صدره للاسلام﴾[2].

﴿. . اتقوا الله حق تُقاته ولا تموتُنَّ إلاّ وأنتم مسلمون﴾[3].

﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾.

لقد أعدّه لمهمات صعبة، لمعارك يخوضها في سبيل الله، يثبت فيها صدق ايمانه وصدق توجهه وصدق تمسكه بالاسلام. . الدين الذي شرح الله له صدره وهداه به وأراده أن لا يموت إلاّ وهو متمسك به. . . وقد أراده أن يعلن عن صدقه وعدم ارتيابه بالله ورسوله بمجرد القول وإنّما بالفعل المصمم الهادف الذي يجسّد إصراره وعزمه على التغيير ودعوة الناس الى دين الحق والدفاع عنه، مهما كانت الصعوبات والمتاعب التي سيلقاها.

ومهمة القرآن في ذلك، كانت مهمة متواصلة طويلة، استمرَّت طيلة العهدين اللذين نزل بهما في مكة والمدينة. . كما أنها ستستمر الى ما شاء الله، مع كل الذين يتوجهون الى هذا الكتاب الكريم، فيطالعون فيه قول الله الحق النافذ المبين، غير المحرَّف ولا المزوَّر، الكلام السهل الممتنع المعجز، ان توجيهه لنا ـ في مجال الاستعداد الدائم للجهاد مع النفس ومع أعداء الاسلام الناصبين له العداوة على الدوام، يوضح لنا بعبارة موجزة الدور الذي ينبغي أن نقوم به كمسلمين، مؤمنين، صادقين، غير مرتابين ولا متشككين ولا مترددين طوال حياتنا لا في مرحلة معينة وحسب. ﴿إنما الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٢.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

الله . . ﴾[1]، فهم يجسّدون ايمانهم يقيناً وعملاً، لا يحسبون حساباً إلاَّ لله وحده. لا خوف إلاَّ منه ولا حبّ إلاَّ لَه . . ولا نهج إلاَّ نهجه، ولا قول إلاَّ قوله ولا توكّل إلاَّ عليه .

ومنهجهم في العبادة لا يتمثل بمجرد الإعراب عن ذلك الحب، وسماع قوله وقراءة كتابه . . وانما يتمثل في أداء سلوكي متكامل منسجم مع انحيازهم التام الى صفّه جملةً وتفصيلاً ورفض كل ما عداه . . . ﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وَجِلت قلوبهم وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون** . . ﴾[2].

الايمان.. نوايا مجردة أم عمل حقيقي

ولا يقتصر عمل المؤمنين على مجرد (الايمان) الذي قد تستشعره نفوسهم وتتشربه حواسهم دون نهج حياتي سلوكي عام واضح، يأخذون أنفسهم على انتهاجه وعدم الخروج أو الحيدة عنه . . . كما أنه يمتد للتمهيد للآخرين الذين لم تتضح لهم معالم هذا الدرب، والأخذ بأيديهم ليسيروا عليه متوسمين نفس الطريق الذي سار عليه رسول الله ﷺ والصفوة من صحبه رضوان الله عليهم .

وأمر كهذا لا يُنال بمجرّد التمني والنوايا (الصادقة) . . وإنما تثبت النوايا صدقها، إذا ما حزمت النفس أمرها للجهاد على الساحتين كلتيهما: ساحة النفس وساحة القتال الفعلي بالسيف واللسان والرأي والشعور . . والجهاد لا يكون إلاَّ في سبيل الله، وإلاَّ فانه غير مقبول . . إذ أنه غير مجدٍ إذا لم يكن كذلك، وهناك ميادين عديدة يتبين لنا فيه كيف أنه في سبيل الله، إذا ما كان في سبيل الدفاع عن الدين أو المال أو العرض . . . والجهاد قد يكون

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٥ .

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢ .

بالنفس أو المال، وهما أعزّ ما يملك الانسان. انه يعد نفسه للتضحية والبذل، ويتوقع كل شيء في المعركة السجال الناشبة بينه وبين عدوه. . غير أن أمراً واحداً، يدرك أنه بالغه، مهما كانت نتيجة المعركة الأرضية الدائرة. . وهو النصر المحتوم. . والفوز الأكيد. . حتى وإن استشهد أو قتل أو افتقر أو جُرح أو أُسر أو تشرّد؛ فلقد أدّى مهمته إلى أبعد مدى استطاع القيام به، وما عليه إلاّ أن ينتظر الجزاء.

وهنا نقطة الافتراق عن النظرات الأرضية البحتة، النظرات البشرية المجردة، التي لا تتطلع إلاّ إلى الطين والوحل والتراب، ولا تكاد تحسّ بروح الله التي نفخها فيها والمحيطة بها، والتي تريد أن تسمو بها الى كل ما تحفل به من معانٍ زاخرة بالعظمة والارتفاع والسمو. غير أنها تعاكس هذه الروح الإلهية وتأبى أن تسير إلاّ عكس التيار.

علي عليه السلام استمرار لرسول الله صلى الله عليه وآله (.. أنا وأنت أبوا هذه الأمة)

إن هذه المسيرة، هذه المعركة الدائمة لا بد لها من قائد حكيم، قائد مسدد بالعناية الإلهية، يسير أمام الأمة المسلمة، وتراه على الدوام رائداً وإماماً. إن دور النبي في هذه القيادة والامامة لا جدل عليه ولا خلاف. . غير أن حياة هذا النبي، لا بد أن تنتهي من على هذه الأرض. . مع أن دوره لا بد أن يستمر بنفس القوة والوضوح. . وأن يحمل رسالته من تربى في احضانه وتلقى منه وفهم عنه. . . لا بد أن يكون ابن القرآن الحقيقي ـ الذي لم يعرف طريقاً آخر ولم يتلق أو يفهم سوى لغة القرآن، هو المؤهّل لهذا الدور القيادي الحسّاس الذي يعتمد عليه مصير الأمة ومستقبلها. . ما دامت المعركة قائمة، وما دام الدين لم ينتشر بعد ولم يفهم من قِبَل فئات كبيرة من الأمة، بل من قِبَل شعوب عديدة في العالم.

إن دور الامامة ينبغي أن يُفهم على هذا الشكل. . ولا بدّ لها من إدراك

ضرورة هذه القيادة المتمثلة بالامام والتي هي شكل مشابه لقيادة الرسول. . . ويفترض أن يكون لها نفس الدور القوي لتلك القيادة، لو أن الأمور سادت كما خطط لها ﷺ وأعدَّ لها من قبل. . . ولم يكن الأمر مجرد ثناء يزجه الرسول ﷺ لأمير المؤمنين عليه السلام عندما قال له: **(أنا وأنت أبوا هذه الأمة)**، فهو يريد بذلك أن يلفت نظرياً إلى تطابق مسؤوليتهما في تربية هذه الأمة وقيادتها والأخذ بيدها حتى تتجاوز الأخطار وحتى تتاح لها الفرصة الكافية لفهم الاسلام من خلال العمل به وانتهاجه طريقاً وحيداً في الحياة، طريقاً يؤدي سلوكه الى الفوز الأكيد. . (الامامة هي في الحقيقة تلك القيادة التي تندمج مع دور النبوة. النبي إمام أيضاً. النبي إمام ولكن الإمامة لا تنتهي بانتهاء النبي، إذا كانت المعركة قائمة، وإذا ما كانت الرسالة بحاجة الى قائد يواصل المعركة. إذاً سوف يستمر هذا الجانب من دور النبي من خلال الامامة)[1].

بهذا المعنى ينبغي أن نفهم قول أمير المؤمنين عليه السلام باستمرار الامامة بعد وفاة النبي ﷺ. وان لها رجالها المؤهّلين لحملها كما تحمَّل مسؤولياتها النبي ﷺ من قبل. . . (. . . أرسله ﷺ بأمره صادعاً، وبذكره ناطقاً، فأدى أميناً، ومضى رشيداً، وخلّف فينا راية الحق، من تقدّمها مرق، ومن تخلّف عنها زهق، ومن لزمها لحق. . . ألا انَّ مثل آل محمد ﷺ كمثل نجوم السماء، إذا خوى نجم طلع نجم. .)[2]، ومن هذا المنظور ينبغي أن يكون فهمنا لكلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المعنى، وان لا نفهم أنه يريد منه مجرد إعلام المسلمين بمنزلة آل البيت عليهم السلام العالية. . دون ترتيب مسؤوليات حقيقية عليهم تتناسب ومكانتهم ودورهم وفهمهم العالي للاسلام وإمامتهم للأمة.

---

(١) المدرسة القرآنية، ص١٩٨.

(٢) نهج البلاغة، ص٢٤٤.

(.. والله ما أسمعهم الرسول شيئاً، إلاّ وها أنذا اليوم مسمعكموه، وما اسماعكم اليوم بدون اسماعهم بالأمس..)[١].

(تالله لقد علمتُ بتبليغ الرسالات وإتمام العدات وتمام الكلمات، وعندنا أهل البيت أبواب الحكم وضياء الأمر)[٢].

(نحن الشعار والأصحاب والخزنة والأبواب، لا تؤتى البيوت إلاّ من أبوابها، من أدّاها من غير أبوابها سمي سارقاً)[٣].

(نحن النمرقة الوسطى بها يلحق التالي واليها يرجع الغالي)[٤].

(أنا يعسوب المؤمنين..)[٥].

(.. فبهم (آل النبي) كرائم القرآن، وهم كنوز الرحمن، إن نطقوا صدقوا، وإن صمتوا لم يسبقوا)[٦].

(.. وإنما هو تعلم من ذي علم.. فعلم علّمه الله نبيّه فعلمنيه، ودعا لي بأن يعيه صدري وتضطم عليه جوانحي)[٧].

إن ما ذكره أمير المؤمنين عليه السلام، لا يشير هنا الى مواهب بشرية عادية تؤهّل حامليها لمهمات محدودة... بل يشير الى امكانات استثنائية أعدّ أصحابها لتحمل مسؤوليات استثنائية غير عادية.. وهي قيادة الأمة وإمامتها. وسنتحدث عمّا ورد بشأنها عن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وما ورد من إشارات وأقوال صريحة بذلك في فصول لاحقة، بعون الله.

---

(١) نهج البلاغة، ص٢٠٩.

(٢) نفس المصدر، ص٢٨٣.

(٣) نفس المصدر، ص٣٣٠.

(٤) نفس المصدر، ص٦٨١،

(٥) نفس المصدر، ص٧٣١.

(٦) نفس المصدر، ص٢٣١.

(٧) نفس المصدر، ص٢٩٨.

خلافة الانسان.. تكريس لعبودية الله

إن خلافة الانسان على هذه الأرض مهمة صعبة وأمانة ثقيلة، تصدّى الانسان وحده للنهوض بها، بعد أن رفضتها السّماوات والأرض والجبال وأشفقن منها ﴿إنَّا عرضنا الأمانة على السّمٰاوات والأرض والجبال فأبينَ أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنَّه كان ظلوماً جهولاً﴾[1].

وعلى طريق النهوض بأعباء هذه الخلافة، ولتمكين الانسان من أداء مهامها بالشكل الذي يرضيه... فانه (سبحانه)، أوضح هذه المهام ووضع له مناهج متكاملة، تمثّلت بالأديان المختلفة التي ترافقت مع مسيرة البشرية، والتي لم تكن تختلف عن بعضها من حيث الجوهر، وكلها تنصبّ على عبادته والاخلاص له والتمكين لكلمته لتكون هي العليا... وهذه المناهج لم تكن مجرد أداء لبعض الشعائر أو الطقوس التعبدية وحسب، وإنما كانت مناهج وتشريعات متكاملة للحياة تتدخل بكل أمورها وخصوصياتها، وتوجهها التوجيه الصائب الذي من شأنه أن يحلّ كل التناقضات والاشكالات التي أوجدها الانسان نفسه على هذه الأرض، في غمرة الصراع على المصالح والدفاع عن الآلهة المصطنعة والطواغيت ـ وبدعم وتوجيه منها في أغلب الأحيان... ﴿شَرَعَ لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصَّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أنْ أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه...﴾[2].

لقد حددت الأديان بشكل حاسم وواضح مهمات الانسان في خلافته على هذه الأرض.. وأوضح الاسلام ـ خاتم هذه الأديان وخلاصتها

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١٣.

ونموذجها الشامل ـ منهجه الواضح الصريح للانسان، بعد أن طمست معالم الديانات السابقة بفعل الطواغيت وآلهة الهوى والعصبية والمصالح، والكهّان والأحبار الذين قاموا بتحريف مضامين الكتب المقدسة وتزويرها واخفاء بعضها واتلافها إلى الأبد.

إن منهج الاسلام، الذي تكفَّل باعثه بحفظه ـ في نهاية المطاف ـ عن طريق حفظ كتاب الاسلام نفسه وقانونه ودستوره الأبدي ـ القرآن الكريم ـ **﴿إنَّا نحن نزَّلنا الذكر وإنَّا له لحافظون﴾**[1] ـ وقد صدق الله وعده ـ أوضح بجلاء مجمل النشاطات الانسانية المطلوبة لمهمة خلافة الأرض وإعمارها، وتنظيم العلاقات البشرية بشكل ينتفي معه وجود الاستغلال والظلم وهيمنة الطواغيت والآلهة والأصنام، ووجود طبقات متباينة تبايناً حاداً صارخاً في مستوياتها المعيشية والاجتماعية، كما كان الحال في اوروبا في ظلّ المسيحية الممسوخة والمزورة، وكما هو الحال بعد ذلك وقبله على مرّ العصور.. وكما هو الحال الآن ايضاً ـ عندما أوجدت (عوالم ثلاث) من المجتمعات والشعوب على خارطة الأرض.. وقد شاء واضعو هذه الخارطة، أن يكون عالمنا الاسلامي ضمن العالم الثالث الجائع الجاهل المريض.. وحتى في عوالمهم الأولى..! وجدت طبقات وعوالم..

إن مهمة الاسلام الأولى، تكريس عبودية الانسان لله وحده، وتخليصه من عبادة الطواغيت والشهوات والهوى. ومهمة هؤلاء الطواغيت منع هذه المهمة وإيقافها، لتكريس عبودية الانسان لهم ولمصالحهم، من خلال التلاعب بهواه وإضعافه، وتزيين كل ما ينحطّ بالنفس البشرية وينزل بها الى حمأة الوحل والأقذار.

---

(١) سور الحجر، الآية: ٩.

﴿أرأيت من اتَّخذ إلهه هواه أفأنت تكونُ عليه وكيلاً﴾[١].

﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتَّبعون أهواءهم ومن أضَلُّ ممن اتَّبع هواه بغير هدىً من الله . . ﴾[٢].

﴿بل اتّبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم﴾[٣].

﴿أفمن كان على بيّنةٍ من ربّه كمن زُيّن له سوءُ عمله واتبعوا أهواءهم﴾[٤].

وإلا كيف يستميل الطغاة الناس ليكونوا عبيداً لهم . . ؟

وإذ يقف الدين حجر عثرة في طريق أولئك الطغاة لتحقيق طموحاتهم وتطلعاتهم! غير المشروعة، فانهم يحاولون (ترويضه) و(تطويعه)، بتأويل ما يرد في القرآن الكريم وتفسيره على هواهم[٥]، وتحريف بعض الأحاديث وافتراء بعضها على لسان رسول الله ﷺ وبعض صحابته لاضفاء الشرعية على وضعهم في مركز الخلافة، وتصرفاتهم وسلوكهم البعيد عن الاسلام والمنافي له بشكل واضح . . و(ترويض) من اختاروهم ليقفوا الى جانبهم، بعد أن اختاروا الوقوف الى جانب الحق واستئصالهم إن استدعى الأمر، عن طريق القتل أو النفي أو السجن . .

وهذه جوانب نتعرض لها، في معرض التطرق الى الخرق الجسيم الذي تعرّض له الاسلام في بداية الحكم الأموي، بل وقبل استلامه السلطة،

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٤٣.

(٢) سورة القصص، الآية: ٥٠.

(٣) سورة الروم، الآية: ٢٩.

(٤) سورة محمد، الآية: ١٤.

(٥) . . لذلك كتب أمير المؤمنين الى عبد الله بن العباس: (لا تخاصمهم بالقرآن فإن القرآن حمالٌ ذو وجوه تقول ويقولون ولكن حاججهمبالسنَّة فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً) نهج البلاغة، ص٦٥١.

أو (الخلافة) بشكل رسمي، استجابت له الأمة طواعية أو جبراً. . . حتى أن المظهر الاحتفالي قد أضفي عليه، ليكون ذلك العام مشهوداً ومعروفاً بـ«عام الجماعة» مع أنه كان عام الافتراق العلني عن الاسلام، مع أن من أرادوا ذلك الافتراق لم تتح لهم فرصة تحقيق كل أحلامهم لابعاد الناس نهائياً عن الاسلام، إذ لم يقدروا على ايجاد طريقة حاسمة لاستئصال شأفة هذا الدين من كل النفوس والقلوب.

بين عصمة أهل البيت الطاهرين وانحراف الطلقاء وأشياعهم

إننا نستطيع فهم أسباب العداء الذي يكنّه مَن لم ينتسبوا لهذا الدين، ولم يعلنوا ولاءهم العلني له أو انتماءهم اليه غير أننا لا نستطيع أن نفسّر قيام من تسمّوا باسمه وانتسبوا اليه بتخريبه وحرفه، وربما لا نجد لذلك إلاّ سبباً واحداً وهو: أنهم لم يسلموا طواعية، ولم يستجيبوا إلاّ تحت وطأة الظروف وفي جو المد الاسلامي الذي اكتسحهم، فلم يَرَ مناصاً من احناء هاماتهم. . وإلاّ ضاعوا إلى الأبد. . وكانت المكاسب التي جنوها في غياب الشرعية والجو الصحي النقي أكبر مما حسبوا. . . إذ وظّفت (الخلافة) بالتالي لصالحهم. . ولو علموا ذلك، منذ البداية، لكانوا أول المسلمين، وما كانوا من الطلقاء الذين أجبروا على اعتناق الاسلام. غير أن للحوادث مفاجآتها الغريبة دائماً.

ومهمات الاسلام لترسيخ قيم التوحيد والعبودية الخالصة لله وحده، اضطلع بها القرآن الكريم، والرسول العظيم ﷺ في وقت واحد. . فكلام الله المنزل على عبده الكريم ﷺ، جسّده هذا العبد سيرةً وضّاءة وسنّة معدّة للعمل بها على امتداد الزمان والأمكنة. . وإن ابتعدت الشقة، ونأت أطوال هذا الزمن وأبعاد الأمكنة عن الزمن الأول للرسالة، والمكان الأول الذي نزلت وترعرعت فيه.

ولا يحسبنَّ أحد أن مهمة إمامة الأمة التي اضطلع بها الرسول ﷺ كانت ستنقضي أو تنقطع بعد موته مباشرة، بل لا بد للامامة أن تستمر، وإن انقطعت الرسالة بموت الرسول ﷺ. . كان لا بد لدور الامامة أن يستمر حتى بعد وفاة النبي وابتعاده عن الساحة؛ لا بد من قيام من يستطيع فهم الاسلام، وتجسيد معطياته عملاً وسلوكاً بدور الامامة. . . ولا بد لمن يضطلع بهذا الدور أن يمتلك بعض المؤهلات التي امتلكها الامام الأول، وهو الرسول الكريم ﷺ.

لا بد من عصمة تقي هذا الامام، كما وقت الرسول الكريم من غلبة الهوى والشهوة والسهو والنسيان وغيرها. . وغيرها، مما ينتاب الانسان العادي. . لا بد من تسديد إلهي لحمايته من مجمل الأخطاء البشريّة التي يتعرض لها الناس في مسيرتهم الحياتية الطويلة[1]. . .

وهنا تكمن نقطة الخلاف الأولى. . إذ لو فهم من تولى منصب الخلافة، طبيعة العمل الذي قام به بانتزاع هذا المنصب من (صاحبه) الشرعي ـ المعصوم ـ لكان قد تراجع عن ذلك منذ البداية. . . بعد أن تجرّأ آخرون ـ فيما بعد ـ مع أنهم أبعد الناس عن الاسلام، على الوثوب على سدة الحكم متحدّين الأمة كلها. . . وقد حدث ذلك خلال النصف الأول من القرن الأول نفسه الذي نزلت فيه الرسالة. . ولما وجد سبباً يدعوه للاحتفاظ بمنصبه، ولو ليوم واحد. . . ولما فكر أصلاً بمنازعة صاحب الحق حقه. . . بل حق هذه الأمة التي كان لا بد لها ومن حقها وهي في بداية لقائها مع الاسلام وتعرفها عليه، وفي نشوة هذا اللقاء والفرح والخلاص من

---

(١) وقد شهد الله لنبيه ﷺ وآله عليهم السلام في كتابه العزيز بهذه الصفات النادرة التي منحهم إياها دون بقية البشر بقوله: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجسَ أهل البيتِ ويطهركم تطهيرا. .﴾ وقد وردت هذه الآية كما جاء في كل الصحاح والآثار المعتبرة بحق النبي ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

أوشاب الجاهلية وأقذارها أن تزيد من التعرف عليه والسير على نهجه، في جو صحي نظيف، بظل قيادة واعية مؤهلة، تجسّد بسلوكها وسيرتها، سلوك وسيرة رسول الله ﷺ نفسه، وتكمل مسيرته بشكل لا يرى فيه المرء أي تناقض أو انحراف أو ابتعاد عن تلك المسيرة الشامخة. . .

فما دامت المعركة قائمة، وما دام الاسلام يتطلع، ليمتد في ارجاء المعمورة، رغم الطواغيت ودول الظلم. . وما دام أعداء الاسلام يستعدون دائماً لضربه ومحوه، وما دامت الجاهلية تعيش في كثير من النفوس التي لم تفهم الاسلام بعد، ولم تتشرب مبادءه وقيمه. . ولم ترتوِ من منهله العذب الزلال. . . فإن القيادة أو الامامة المسددة بالعناية الإلهية والمعصومة عن الخطأ والزلل. . . كفيلة بجعل هذه المعركة تحقق النصر على كل أعداء الاسلام في الجزيرة العربية وخارجها على السواء. .

وهنا ندرك أبعاد شنّ الحملة الظالمة، لا لنفي العصمة عمّن اغتصبت منه الخلافة وحسب، بل ونفي أي نص في هذا الحق، صادر عن رسول الله ﷺ. . أي نفي مضمون ومحتوى الإمامة، هذا الأصل المهم من أصول الدين. . وإلغاء هذا الأصل المثبت والمقرر من قبل الله سبحانه. . وهو أمر لا يملك تغييره إلاّ هو. . جلّ وعلا. . . !

* * *

بين عقلية وعقلية الذين عاشوا في أحضان الوحي، والذين عاشوا حياة الجاهلية

وهنا ينبغي أن لا نقلب صفحات التاريخ بالشكل الذي يثير حفيظة بعضنا على بعض بخصوص (نشوء الخلاف) على الخلافة بالطريقة التي أتاحت لمعاوية نفسه في النهاية أن يبرر جلوسه على كرسي الخلافة، ويجعل

من نفسه (منافساً) لعلي عليه السلام، بل وأن يطمع فيها حتى عبيد الله بن زياد بن ابيه بعد وفاة يزيد[1]. . . !!

إننا لا بد أن نستعرض ـ عند التطرّق إلى هذه النقطة الحسّاسة المهمة ـ طبيعة العقلية القرشية التي استسلمت لسلطان الدين الجديد، بعد أن كان سلطانها هو المهيمن والمسيطر على الساحة. . . ولا نحسبنَّ أنها رأت في محمد صلى الله عليه وآله منافساً لها وهو ابنها. . . بل ربما فكرت في كيفية الافادة منه وتوظيف دينه الجديد لمصلحتها، واستثمار علاقتها به. . وهي التي اشتهرت بعقليتها التجارية وحساباتها المالية الدقيقة. . . لكي توسع من نفوذها وتجارتها وكسبها. . . ! لكنها لمست اتجاهاً في هذا الدين يمكن أن يعصف بكل قيمها وكياناتها الجاهلية (العريقة)؛ رأت فيه تعرضاً سافراً وقوياً لنمط حياتها المتحجر والقائم على عبادة الأصنام الحجرية والبشرية على السواء، ولم تلمس من ابنها النبي القرشي أي استعداد للمساومة في أداء رسالته ـ وقد عرضت عليه الملك والجاه والمال ليتخلى عنها، وربما عن الجزء الذي يمسّ مصالحها ـ ولم تلمس منه أي تحيز إلى جانب قيمها الموروثة، وهي عشيرته وقومه.

كان نبض الرسالة القوي لا يتماشىٰ مع دمائهم الراكدة الثقيلة. . . إن نبضه الدافق المتحفز الحي سيعصف بدمائهم الخاملة الضعيفة. . . ومن هنا خافوا الموت. . وخافوا أن يساويهم الضعفاء من الناس بعد أن حسبوا أن

---

(١) فقد ذكر الطبري أن عبيد الله بن زياد حين مات يزيد بن معاوية، قام خطيباً في أهل البصرة وحاول استمالتهم بقوله: (فوالله لتجدُنّ مُهاجر والدي ومولدي فيكم، وداري. . وان أمير المؤمنين يزيد بن معاوية قد توفي، وقد اختلف أهل الشام. . وأنتم اليوم أكثر الناس عدداً. . . فاختاروا لأنفسكم رجلاً ترتضونه لدينكم وجماعتكم. .). . ثم (. .بسط يده فبايعوه، ثم انصرفوا بعد البيعة وهم يقولون: لا يظن ابن مرجانه أنّا نستقاد له في الجماعة والفرقة: كذَبَ والله! ثم وثبوا عليه. .) الطبري، م٣، ص٣٦٤ ـ ٣٦٥.

الدنيا لم تكن لتستقيم دونهم ودون مالهم وتجارتهم وقوامتهم على البيت الحرام وسقاية الحجيج.. وغيرها من مظاهر العظمة والنفوذ والجاه التي التمسوها لأنفسهم وأضافوها لرصيدهم في النسب القرشي العالي... !

إن العقلية الجاهلية في الجزيرة العربية، التي نشأت نتيجة تراكمات شعورية وسلوكية امتدت لمئات السنين، رغم بعض الاشعاعات التي أطلَّت منها في بعض الأحيان، ورغم بعض مظاهر السلوك الايجابي المتمثل بالكرم والشجاعة والنجدة والفروسية وغيرها.. لم تكن تستطيع هضم الاسلام كله، بعد أن جاءه بنظرة وتصور جديدين للحياة، تنسفان كل التصورات السابقة وتضعانها في زوايا النسيان.. مع أن طريقة الاسلام لترسيخ تصوراته الجديدة اعتمدت الصعود التدريجي بالانسان الى قيم الاسلام، وتعاملت مع الواقعية البشرية، ولم تكن فيها أية لمسة يرفضها العقل البشري أو لا ينسجم معها...

إن أول العقليات التي رفضت التصورات والقيم الجاهلية، جملةً وتفصيلاً، هي عقلية الرسول ﷺ نفسه، حتى قبل أن تنزل عليه الرسالة، ثم بعد أن أُنزلت عليه، وتيقَّنها وعلمها بشكل ثابت وأكيد، جعل سلوكه وكل مظاهر حياته تنسجم معها وتكون تكملة لها... ولا بد أنه يحتاج الى من يؤازره في هذا الأمر، ويملك نفس يقينه، أو يقيناً ثابتاً على الأقل، مبنياً على القناعة والتصديق التام به وبرسالته ليكمل مسيرته إذا ما توفي واختفىٰ من الساحة...

ومن هنا كان إعداده الخاص لمن أراد أن يتولى المسؤولية بعده، ومن هنا ايضاً كان التصاقه به منذ الطفولة وحتى وفاته ﷺ... (ولم يكن ذلك دون سبب أن تفتحت عينا علي عليه السلام على دنيا محمد ﷺ... وكانت مهمة النبي ﷺ تشمل قيامه بإعداد الجماعة المؤمنة الأولى المتيقنة المتحمسة لهذا الدين، لتكون طليعة للناس ورائدة... غير أن مستوياتها لا بد أن

تختلف طبقاً للفروق الفردية بينها أولاً، والمدد السابقة التي عاشتها في زمن الجاهلية قبل أن تدخل الاسلام. فهذه لها أثرها في تعزيز القيم الجاهلية ويكون من الصعب انتزاعها أو استئصالها إلاّ بعد مرور مدة طويلة، كما أن الأمر بالنسبة للشيوخ والكبار يكون أصعب منه بالنسبة لصغار السن والشباب...

ومهما أردنا أن نقول عن طبيعة الصلة الوثيقة بين الرسول ﷺ ووصيه عليه السلام... فان أول سبب موضوعي لذلك يعود الى الانسجام بين طبيعتيهما.. ونستطيع الوصول الى ذلك بدراسة الشخصيتين الكريمتين دراسة موضوعية غير متحيزة، وبعرضهما على القرآن الكريم، نجد أنهما شريكا القرآن حقاً.. وان سلوكهما وعملهما، يشكل طريقاً ممتداً متكاملاً معه..

إن الدراسة الواعية المبنية على أعلى الدرجات من الفهم والتعمق، واستعراض مختلف جوانب الشخصيتين الكريمتين، تبين لنا أن اختيار الوصي لم يكن عبثاً، ولم يكن بدافع من عاطفة قرابة حميمة أو رحم قريب، وإلاّ فقد كان للنبي أقرباء عديدون، إن لم يصلوا إلى مستوى علي عليه السلام، فهم كانوا يتفوقون على غيرهم، ممن جلس على كرسي الخلافة فيما بعد بكل المواصفات والمؤهلات المطلوبة.. فلماذا لم يختر أحدهم للمهمة التي اختار لها علياً وقربه منه، وأخذ على عاتقه مهمة تربيته وإعداده ليكون نموذجاً مشابهاً له ونسخة منه...؟

كلنا على الحق لو توخيناه حقاً

إن هذه المسألة، عندما تناقش هنا، لا ينبغي أن يمر عليها مروراً براً، لأن كل اختلاف وفرقة نشأ عنها. ومناقشتها بموضوعية، ينبغي أن لا م بالشكل الذي يحرك الأحقاد ويزيد العداوات... إن تلك الحوادث قد

انتهت... ووقع ما وقع... وعلينا أن نجمع شتات أمرنا مرة أخرى، مستنيرين بنبع الضوء الأصيل، كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ، لنعالج كل مشاكلنا المعاصرة، ونصحح تصوراتنا وأفكارنا، ونعيد تقييم حوادث التاريخ الخاصة بهذا الدين، ومسيرته، ومواقف صنّاعِهِ المختلفة، ونعيد تقييم الرجال وإعادة النظر بالمثل الأصيلة، ونشذب هذا الدين من كل ما لحق به من تلفيقات وأباطيل، وتحريفات وتأويل.

ما ضرَّنا لو أعدنا حق واعتبار، مَن غُبن وحُرم حقه، ولو بعد هذه المدة الطويلة إنه لم يكن ليستفيد منها الآن فائدة شخصية، بعد مرور قرون عديدة على وفاته. غير أن المستفيد منها نحن ان من شأن ذلك أن يصحح مسيرتنا وتوجهاتنا ويوحّد خط المشروع وتوحّد هذه المسيرة إن أمثال هذه المسائل التاريخية عندما تُثار، ينبغي أن لا تكون باعثاً لمزيد من الفرقة والاختلاف.. وإنما على العكس تقريبنا وجمعنا على طريق انجاز المهمة التي كلفنا بها جميعاً، وهي تحكيم دين الله الحق في حياتنا.

وكم ستكون هذه المهمة ميسّرة وممتعة، لو توحّدت القلوب والمشاعر على طريق هذا العمل الإلهي العظيم الذي لا يتاح إلاّ لمن ارتضى الله وهدى قلبه للايمان والخير والصلاح، ونذر نفسه لخدمة الله، لا يهمه إلاّ رضاه وإلاّ هداه.. فعلام نجعل من مسائل (الخلاف) حول أمثال هذه الأمور مسائل شخصية بحتة، مع انها مسائل عامة، تهم الجميع.. وان التحيز الى أحد الطرفين دون وجه حق يعني، التجنّي على هذا الطرف نفسه، إضافة الى أنه تجنٍ على الطرف الآخر.. وان الأمور متى عُرفت بشكل واضح، فإن من شأن ذلك أن لا يلحق الأذى بأي طرف، فقد يكون التصرف نابعاً من (اجتهاد) أو رغبة أو ميل خاص أو نتيجة ظروف معينة، وليس من دافع خالص للشر مثلما يحاول البعض تصويره..!

وإعادة الأمور الى نصابها ـ ولو بعد فترة متأخرة، وبنظرنا ومن يجيء

بعدنا وحسب، لن تضر أو تنفع من يقف الآن بين يدي الخالق العادل الرحيم الذي يجازي ويثيب ويتصرف بخلقه كما يشاء ويريد.. ! وهل نملك أن نغيّر ـ نحن ـ من الأمر شيئاً؟

يهلك فيّ رجلان

لا شكَّ أن غبشاً أو ضباباً قد أحاط بجو المسألة كله؛ مسألة استخلاف أبي بكر وعمر بعد رسول الله ﷺ دون عليّ عليه السلام، ثم استخلاف عثمان بعد ذلك من قِبَل مجلس للشورى رشّح أعضاءه عمر... فمما لا شك فيه أن التاريخ لم يقصّ علينا إلاّ الذي سمعه وسجله، أو الذي أريد إسماعه أو تسجيله بعد ذلك؛ أما ما لم يسمعه، ودار خلف الكواليس بعيداً عن سمعه وبصره ـ وهي أمور لا بد أن تحصل؛ إذ لا يمكن أن يفصح كل انسان عن نواياه ودوافعه دائماً بشكل علني، فلم يكن التاريخ معنياً بتسجيلها.. إذ أنها أمور لا يعلمها إلاّ من انتواها... ويعلمها الله وحده... وإذاً فإن مسائل الجزم بخصوص النوايا والأفعال، لا يمكن أن تجعلنا نأخذ بها على أساس التصور المجرّد لحسن الظن أو سوء الظن بمن قام بها استناداً إلى مواقف مسبقة متبناة، ومتأثرة بمواقف قديمة للآباء والأجداد... هذه هي المسألة ببساطة..

وهي مسألة دعا الامام علي عليه السلام نفسه إلى عدم تبنيها أو الأخذ بها، والتحيّز بدون وجه حق، ودون تدبّر وتأمّل:

(يهلك فيّ رجلان: محبٌ مفرط وباهت مفتر)[1].

(هلك فيّ رجلان: محبٌ غالٍ ومبغضٌ قالٍ)[2].

(.. وسيهلك فيّ صنفان: محبٌ مفرط يذهب به الحقّ إلى غير

---

(١) نهج البلاغة، ص٧٦٥ و٦٨٤.

(٢) المصدر السابق.

الحق، ومبغضٌ مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق.. وخير الناس فيَّ حالاً النمط الأوسط فالزموه..)[1].

وقد روي عن الشعبي انه قال: (كان علي بن أبي طالب عليه السلام في هذه الأمة مثل المسيح بن مريم في بني اسرائيل: أحبه قوم فكفروا في حبه، وأبغضه قوم فكفروا في بغضه)[2].

فالموقفان المتطرّفان المتناقضان، لا يخدمان حتى القضية التي يدّعيان تبنّيها والانحياز اليها وهي قضية الاسلام...

إن الانحياز لعلي عليه السلام.. هكذا.. دون معرفته ودون فهم سيرته ومواقفه، أو الانحياز ضده، دون معرفة السبب الذي يدعو لذلك.. لهو في الحالتين تجنٍ صارخ عليه... انه عليه السلام يدعونا جميعاً إلى منهجه، وفهم مواقفه وسيرته وموقعه الحقيقي من رسول الله صلى الله عليه وآله.. وأسباب احتلاله هذا الموقع.. وحينذاك سيدرك الجميع.. أن سيرته لم تختلف عن سيرة الرسول الكريم.. بل هي مشابهة ومكملة لها.. هي سيرة الاسلام نفسه...

إن هذه المعرفة لا تُنال بالتمنّي وبمجرد الرغبة في ذلك، بل لا بد من البحث والدرس والاطّلاع.. وهو أمر لا بد أن نأخذ أنفسنا عليه، ما دمنا طلاّباً للحقيقة... أما تبنّي مواقف الآباء الذين هم شيعة لعلي يحبونه ويوالونه.. ولا بد أن العديدين منهم قد درسوا جوانب كثيرة من حياته وسيرته، أو أنهم كانوا من الذين نصبوا له العداوة.. وربما لم يعرفوا إلاّ

---

(١) المصدر السابق، ص٢٩٦.

(٢) العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، مكتبة الرياض الحديثة، دار الفكر، تحقيق محمد سعيد العريان، ج٥، ص٥٩، وقد أخرج الحاكم ص١٢٢، ج٣ من المستدرك عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: (يا علي إن فيك من عيسى مثلاً ابغضته اليهود حتى بهتوا أمه، وأحبه النصارى حتى أنزلوه بالمنزلة التي ليس بها)، المراجعات، ص٢٠٨.

القليل عنه، وربما القليل المشوّه المزوّر، فهذا أمرٌ نلمسه في واقعنا، ونرى أنه هو الذي يعمل على تشتيت أمرنا وافتراقنا وتثبيت سوء النوايا فيما بيننا.. والأمر نفسه ينبغي أن يكون مع كل شخصية اسلامية برزت على ساحة الأحداث، لا بد من دراسة وبحث دقيقين عن المواقف والأعمال، ولا بد من البحث عن الخلفيات التي كمنت خلفها، فبدون ذلك لا يمكن أن نلتقي، وسيبقى فراقنا دائمياً.. وستبقى معارك الجدل، وربما السيف، بيننا سجالاً وأوارها مشتعلاً.. وستظل الأمور والمواقف غير محسومة وغامضة وضبابية... وسيجد من يريد تأجيج الخلاف وتعميقه مجالاً رحباً، لا للنيل ممن يتبنون مختلف المذاهب والمواقف، بل والنيل من الاسلام وكل المسلمين انفسهم.. والأمثلة أمامنا أكثر من أن تعدّ أو تحصى، وقد شكّلت إحدى مشاكلنا الدائمية (المستعصية).

إن الخاسر الوحيد هم المسلمون.. وانهم في عصر المواجهة هذا الذي يتقنع العدو فيه بأقنعة العلم والموضوعية والحداثة والتطور... وكأن هذه الأمور هي الغريبة فعلاً عن الاسلام، وكأنها تتقاطع وتتعارض مع قيمه وتطلعاته الدائمية لقيادة الحياة وحل مشكلاتها وتناقضاتها المفتعلة... انهم في عصر المواجهة هذا الذي تتصارع فيه المصالح والقيم، والذي يسفر فيه الأعداء عن وجههم القبيح ونواياهم المدمرة... بحاجة الى توجه موحد، أساسه الاسلام وكتابه العظيم... دون التحسّس الدائم (بالعقد القديمة) و(الخلافات العقائدية..!) بخصوص بعض الأفكار وبعض مسائل التاريخ التي لم يتم الحوار فيها بجدية، إن لم يكن بتصور مسبق، أخذ طابع التعصّب المذهبي البغيض رغم وضوح العديد من الأمور والشواهد.

* * *

انسياق مع تضليلات معاوية

ولنستعرض وجهاً محدداً للمسألة، لا نخلط فيه أوراق معاوية مع أوراق أبي بكر وعمر وعثمان، كما أراد هو نفسه وسعى اليه، كاحدى التبريرات التي حاول أن يستند عليها لاتباعه (أحقيته) في الخلافة دون علي، واضعاً نفسه في ركب من سبقوه.. رغم الجميع.. كما يفعل البعض الآن حينما تنطلي عليهم حيلة معاوية الماكرة جداً فيضعوه في ركب الخلفاء السابقين.. فمعاوية ليس بالانسان الساذج الذي يقدم على مصارعة علي دون أن يعد للأمر عدته، ويشهر السلاح المناسب من المكر والدهاء والسياسة..!

ولا نريد لهذه المسألة أن تأخذ حيزاً كبيراً من هذا الكتاب، مع أننا لا نريد اهمالها لأن لها مساساً كبيراً بهذه الدراسة... ولأنها مسألة كبيرة، والتفرغ لها، ودراستها، على أساس علمي موضوعي بعيد عن التحيز والعاطفة المجردة والتصورات المسبقة، أمر يستدعي قيام عدد من المتخصصين المعنيين لهذه المهمة التي يبدو أنها لم تنته لحد الآن وربما تستمر لبعض الوقت على طريقة الجدل البيزنطي الذي لا يؤدي الى نتيجة بأي حال من الأحوال.

فالبحث إذاً يتخذ وجهتين في هذا المجال، وهو مجال (التنافس) على خلافة المسلمين بعد وفاة رسول الله ﷺ.

الوجهة الأولى: (المنافسة) بين أبي بكر وعمر وعثمان من جهة وبين علي من جهة أخرى.

الوجهة الثانية: (المنافسة) بين معاوية وعلي بعد ذلك.

ولكل من هاتين الوجهتين خصوصياتها وأسبابها ودوافعها. ولا يجب

بأي حال من الأحوال ـ ومن باب الأمانة التاريخية على الأقل ـ دمجهما كمرحلة واحدة تتخذ نفس الاتجاه ولها نفس الأسباب والدوافع، وإلاّ كان ذلك جناية كبيرة على الحقائق والوقائع التاريخية وعلى من تشملهم هذه الدراسة جميعاً.

إن معاوية عمل على إظهار كل (خلاف) معه وكل (منافسة) وكأنه خلاف ومنافسة مع من سبقوه وانه كان (مظلوماً) و(مغبوناً) كما كان من سبقوه ايضاً، وأوحى بطريقة ماكرة بأنه يسير بسيرة الشيخين وأنه الى صفهما.. محاولاً استغلال هذه (المنزلة) التي وضع فيها نفسه بدهاء شديد خصوصاً وأنه يعلم أنهما يتمتعان بمنزلة واسعة لدى فئات عديدة من المسلمين، وأراد بذلك أن يستميل هؤلاء ويحصل على نفس المنزلة التي حصل عليها الشيخان... ويضمن أن ينحاز اليه من انحاز اليهما.. ضد علي عليه السلام.

وهذا ما نجح فيه إلى حد كبير؛ لقد أراد معاوية تصوير علي عليه السلام وكأنه محتج دائمي ورافض لكل (خليفة) (يجمع) عليه المسلمون ـ ابتداءً من أبي بكر وحتى معاوية نفسه... وأن الدافع الى ذلك (الحسد والبغي).. وأراد تصوير المسألة لتبدو ـ حينما تمتد في المستقبل ـ وكأنها (حسد وبغي) من (أولاد وأحفاد) من حُرم الخلافة، لأولاد من أصبح (خليفة) وأصبحوا هم (خلفاء) بعده.

ولا نحسبنَّ أن معاوية وقد مهّد لحكم يزيد، وذلل له رقاب العرب على حد تعبيره، كان سيغفل عن بعض التفاصيل المحتملة مثل رفض الحسين عليه السلام وغيره له.. وقد بدا وكأنه كان يحتمل هذه المسائل على ضوء معرفته بالحسين عليه السلام.. ويزيد.. على السواء.. وقد أخبرتنا وقائع التاريخ ـ كما سنرى فيما بعد ـ أنه أعدّ للأمر عدّته حتى بعد وفاته، وأوصى

مولاه أن يظهر عهداً مكتوباً لعبيدالله بن زياد على ولاية الكوفة إذا ما سار الحسين إليها.

كما أراد معاوية أن يصوّر علياً كانسان خيالي غير واقعي أو (مثالي)، بمعنىً ابتعاده عن القيم (البشرية) المعادية والمتدنّية... وأن ما يطمح اليه لا يدخل ضمن الأمور التي يمكن تحقيقها، وأنه قليل الحيلة والدهاء... وأراد توظيف القيم المتدنية ـ بمختلف الحجج والذرائع ـ ليحارب بها (القيم المثالية) التي دعا لها الامام.. وهي على أيّ حال قيم الاسلام نفسها.. وهي ليست (مثالية) إلاّ لأنها قيم عُليا أراد الاسلام رفع جميع الناس إليها، ولم يرد لها أن تهبط الى المستوى البهيمي المنحط، لتأخذ بيد البشرية منذ البداية الى الطريق الإلهي المُعدّ من قِبَل الخالق القدير إعداداً متقناً منسجماً بشكل تام مع الطبيعة البشرية السويّة...

وسنتطرق ـ إن شاء الله ـ إلى بعض الخطوات والأساليب التي لجأ اليها معاوية بهذا الخصوص، وواظب عليها بجدّ وحماس للوصول الى غايته النهائية، وهي اخضاع الأمة كلها وجعلها تمتثل له امتثالاً تاماً، وجعل نفسه في مصاف ابي بكر وعمر وعثمان ـ مع أنه اعترف في بعض المناسبات بأنه لا يمكن أن يصل حتى إلى مستوى عثمان[1].. وإظهار نفسه كمنافسٍ مساوٍ لعلي عليه السلام، بل ومتفوقاً عليه في بعض الأمور مثل السياسة والدهاء... وتحميله مسؤولية قتل عثمان والسكوت عن قَتَلتِه، مع أن معاوية نفسه، كان أحد الذين مهّدوا لقتل عثمان وكان أحد الأسباب التي مهّدت لقتله.

وهذه مسألة تنطوي على كثير من المكر، وعلى الجميع أن ينتبهوا اليها... فمعاوية ـ على أي حال، ليس كأبي بكر وعمر، وحتى ليس

(١) فقد روي أن معاوية قال ليزيد: (كيف تراك فاعلاً إنْ وُلّيت؟ قال: كنت والله يا أبه عاملاً فيهم عمل عمر بن الخطاب. فقال معاوية: سبحان الله يا بني. والله لقد جهدت على سيرة عثمان بن عفان فما اطقتها. فكيف بك وسيرة عمر؟) البداية والنهاية، ٨ ـ ٢٣٣.

كعثمان ـ كما اعترف هو بذلك. . . إنه معاوية فقط. . . مزيج خاص من عبقرية مدمرة انتهازية، لا ترى إلاّ مصالحها ولا ترى سوى هذه الدنيا أمامها. . وليس في عمله ما يدل على أنه يحسب حساباً لله أو للآخرة والمعاد ويوم الجزاء. . . إن توجهه أرضي بحت، لا يهتم بأية قيم سماوية أو دين قويم، حتى ولو كان هو الاسلام نفسه، الذي اتخذه ذريعة وغطاءً يجمّل ويزيّن به عرشه المزركش بشعارات الشرعية والجماعة ووحدة الأمة.

وقد يهول هذا الكلام بعض الناس، وقد يعتبرونه قذفاً بحق شخصية (إسلامية) واجهت الروم ووقفت بوجوههم. . ! وعملت على توسيع (الفتوحات الاسلامية). . وحاربت الخوارج، وأرست دعائم الدولة العربية.

أما ما قامت به هذه (الشخصية) فعلاً وماذا كانت الدوافع لبعض اجراءاتها وتصرفاتها، فهذا الذي يعطيه هؤلاء أهمية ثانوية، ونرى نحن ضرورة توضيحه، فهذه مباحث عديدة ليس من اليسير الاجابة عن التساؤلات التي قد ترد بشأنها، في صفحات معدودات، فهل نحن نتكلم عن وحدة عربية بمفهوم حزب قومي مثلاً، لنقول أن معاوية قد انتصر للعرب وعزّز الوحدة العربية، أم أننا نتكلم عن (زعيم) للدولة الاسلامية الوحيدة في العالم. . ؟

وعلى أي حال: إن العودة إلى هذه النقاط ستتيح لنا التحدث عنها بإسهاب ووضوح. . غير أننا سنتحدث بايجاز ـ كما قلنا ـ عن الأمر الأول الذي لم يكن معاوية طرفاً مباشراً فيه. . . وهي مسألة الخلاف بين علي عليه السلام ومن سبقوه على الخلافة.

* * *

علي عليه السلام مُعَدٌ و(مصمم) لدور الخلافة بين التسديد الإلهي والامتيازات الشخصية

انتقل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى، بعد أن أدى رسالته إلى الناس كافة. . . غير أن هذه الرسالة كانت تحتاج لمن يحملها كما حملها الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، تحتاج لمن يستمر في توضيحها ونشرها، ويقف على رأس الدولة الاسلامية الوليدة والناشئة في خضمّ الجاهليات العديدة، ليخرج بها من معارك متوقعة ـ بل واقعة فعلاً ـ منتصرة على كل تلك الجاهليات. . . فهي رسالة الى الناس كافة، في مشارق الأرض ومغاربها، تحكم الناس في هذه المشارق والمغارب، وتوجه حياتهم، بل وتقودها، وتكون المصدر الوحيد لكل توجهاتها وتطلعاتها، وأصل كل قيمها وحضاراتها ومناهج حياتها. . لا لأمدٍ محدود. . وإنما الى الأبد. . إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. . .

وهي مهمة ضخمة جداً وحساسة جداً، ينبغي أن يتصدى لها قائد كالرسول صلى الله عليه وآله وسلم نفسه. . أو رجل تلقّىٰ عنه ـ مباشرة ـ رسالته. . ويؤديها أداءً واعياً كأدائه. . . رجل يفهم هذه الرسالة حق الفهم. . ويؤمن بها كل الايمان. . . وقد خلا من كل نزعة أو سابقة أو نظرة جاهلية قديمة. . . رجل لم يعش حياة الجاهلية لضمان سلامته من أمراضها الظاهرة والكامنة. . .

يفهم رسالة الاسلام حق الفهم، ويعي كل مهماتها وأسرارها، ويكون بسلوكه الحياتي اليومي وجهاً من وجوهها ورمزاً من رموزها. . لا بد لمن يعدّ لمثل هذه المهمة الإلهية الدقيقة أن يكون على أعلى قدر من الوعي بالمهمات المرتقبة، ولا بدَّ أن يكون متمتعاً بأعلى المقدرات التي تؤهله للنجاح في هذه المهمات الصعبة والدقيقة (بعد غياب رسول الله ووفاته صلى الله عليه وآله وسلم. . ومعداً بشكل خاص على يدي الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم نفسه،

يتلقى عنه بشكل مباشر، وينشأ ويتربى على يديه الكريمتين. . . إضافة إلى سابقة في الدخول الى هذا الدين، وأصل طاهر منزّه شريف لا يقلّ عن أصل رسول الله ﷺ الطاهر المنزّه الشريف. . نفسه. .

وحتى المراحل العمرية ـ منذ بداياتها ـ والتي أمضيت مع رسول الله ﷺ وأريد لبقيتها أن تكون امتداداً لعمره الشريف نفسه ﷺ، كانت تبدو وكأنها أمر مقصود ومدبّر من قِبَل العناية الإلهية. . لكي يعيش الناس في ظل الرسول ﷺ حتى بعد وفاته[1].

وقد يقول قائل: أهي مواصفات (يضعها) من يضعها. .! لتبرير الانحياز لعلي عليه السلام. . لكي يشغل هذه المهمة؟ وهي متوفرة فيه فعلاً. .؟ ولماذا التشدّد بهذه الشروط؟ لماذا يكون على رأس الدولة الاسلامية الوليدة أن يكون متمتعاً بهذه الشروط؟ والجواب: لأنه رأس الدولة الاسلامية، التي ينبغي أن ترى فيه رسول الله ﷺ نفسه. ذلك الرجل الذي اقتنع به الجميع

(١) ويمكن أن نفهم ـ على هذا الأساس ـ لماذا كان الامام علي عليه السلام يشير دائماً إلى قربه من النبي ﷺ وإلى علاقتهما الحميمة منذ بداية حياته عليه السلام وحتى وفاته ﷺ. . فلم تكن تلك الفترة الطويلة لتمر بينهما دون أن يتطبع بطبعه ويكون مثله ويفهم الاسلام كما فَهمه ـ ويمكن مراجعة الاشارات العديدة التي أشار بها الامام عليه السلام إلى ذلك ومنها هذه الاشارة الواضحة: (وقد علمتم موضعي من رسول الله ﷺ بالقرابة القريبة، والمنزلة الخَصيصة. وضعني في حجره وأنا ولدٌ، يضمني الى صدره، ويكنفني في فراشه، ويُمسني جسده، ويشمني عرفه، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول، ولا خطلة في فعل. . . ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر امه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري. ولم يجمع بين واحد يومئذٍ في الاسلام غير رسول الله ﷺ وخديجة وأنا ثالثهما. أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح النبوة، ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه ﷺ، فقلت يا رسول الله ما هذه الرنة؟ فقال: هذا الشيطان قد أيس من عبادته. إنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى إلاّ أنك لست بنبي، ولكنك لوزير وانك لعلى خير»). . نهج البلاغة، تحقيق وضبط د. صبحي الصالح، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م، ص٣٠٠ ـ ٣٠١.

وآمن به الجميع ولم يختلف عليه اثنان . .

فهو ليس رأس الدولة الرومانية أو الفارسية أو غيرهما انه رمز للاسلام نفسه .

وقد يقول قائل : ومن أراده لهذه المهمة؟ ومن أعدّه لها؟ ونجيب أيضاً : الرسول الكريم ﷺ أراده لها . وربما يتساءل : هل نصَّ على ذلك وأراده كرغبة إلهية موحىً بها أم كرغبة وهوى شخصي . . ؟

وهنا قد نلمح أول شرخ في جدار الإلفة والوحدة والأخوة الاسلامية . . . فهل نبيح لأنفسنا أن نعتقد أن الرسول ﷺ ينطق عن الهوى . . وأن رغباته الشخصية وعواطفه نحو ابن عمه الأثير ، بل أخيه وزوج ابنته وربيبه ، تغلب على رغباته في رفع الاسلام ونشره وإعلاء شأنه؟ وهل تتقاطع تلك مع هذه؟ ألم يكن الاسلام يستحوذ على كل مشاعره ورغباته بل ووجوده؟ فهل كان سيميل بدافع العاطفة المجرَّدة بحق هذه الأخ الأصغر العزيز الذي محضه حبه ، وينسى مهمته الكبرى التي كرَّس لها كل لحظة من حياته الشريفة ، ولم ينسها أبداً؟

إذا ما اعتقد أحد بذلك ومال إلى الظن به . . وتشكَّك برسول الله ﷺ وأمانته وحرصه على تبليغ الرسالة بشكل تام . . فانه يشكك بحقيقة التنزيل نفسه وبصحة الرسالة نفسها . . . وكيف يؤمن انسان بأمر تراود حوله الشكوك؟

رغبة الرسول ﷺ لم تكن رغبة شخصية بحتة ؛ فهو بعد أن أعدَّ أخاه وربيبه لهذه المهمة الدقيقة طوال حياته الشريفة ، ليكمل مشواره الطويل ، بما امتلك من مؤهلات نادرة غير متاحة لبشر عادي (كالقوة الخارقة في الجسم والعقل . . .) ، لم ينس ، قبل أن يعرب عن ذلك صراحة في حجة الوداع عند

(غدير خم)[1] أن يشير إشارات موحية واضحة الى موقع علي من الاسلام

(١) أخرج الطبراني وغيره بسند مجمع على صحته (صرّح بصحته غير واحد من الأعلام: عن زيد بن أرقم قال: خطب رسول الله ﷺ، بغدير خم تحت شجرات، فقال: أيها الناس، يوشك أن أُدعى فأجب، وإني مسؤول، وانكم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وجاهدت ونصحت، فجزاك الله خيراً، فقال: أليس تشهدون أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وان جنته حق، وأن ناره حق، وأن الموت حق، وان البعث بعد الموت حق، وان الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور؟؟ قالوا: بلى نشهد بذلك، قال: اللهم اشهد. ثم قال: يا أيها الناس، إن الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه، فهذا مولاه، يعني علياً، اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه، ثم قال: يا أيها الناس إني فرطكم، وانكم واردون عليَّ الحوض، حوض اعرض مما بين بصرى الى صنعاء، فيه عدد النجوم قدحان من فضة، واني سائلكم حين تردون عليَّ عن الثقلين، كيف تخلفوني فيهما، الثقل الأكبر، كتاب الله عزَّ وجل، سبب طرفه بيد الله تعالى، وطرفه بأيديكم، فاستمسكوا به، لا تضلوا ولا تبدلوا، وعترتي أهل بيتي، فانه قد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن ينقضيا، حتى يردا عليَّ الحوض. اهـ (هذا لفظ الحديث عند الطبراني وابن جرير، والحكيم الترمذي عن زيد بن ارقم، وقد نقله ابن حجر عن الطبراني وغيره باللفظ الذي سمعته، وأرسل صحته ارسال المسلمات فراجع ص٢٥ من الصواعق)، المراجعات ـ الامام عبد الحسين شرف الدين الموسوي، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط١٨، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م ص٢١٥ ـ ٢١٦ وقد علَّق الامام عبد الحسين شرف الدين تعليقات لطيفة على فحوى خطاب الغدير فقال: (إنما نعى اليهم نفسه الزكية تنبيهاً إلى أن الوقت قد استوجب تبليغ عهده واقتضى الأذان بتعيين خليفة من بعده، وأنه لا يسعه تأخير ذلك مخافة أن يدعى فيجيب قبل احكام هذه المهمة التي لا بد له من احكامها، ولا غنى لأمته عن اتمامها) ص١٥ف، وقال: (لما كان عهده الى أخيه ثقيلاً على أهل التنافس والحسد والشحناء والنفاق، أارد ﷺ ـ قبل أن ينادي بذلك ـ أن يتقدم في الاعتذار اليهم تأليفاً لقلوبهم واشفاقاً من معرة اقوالهم وأفعالهم، فقال: وإني مسؤول، ليعلموا أنه مأمور بذلك ومسؤول عنه، فلا سبيل له إلى تركه. وقد أخرج الامام الواحدي في كتابه أسباب النزول بالاسناد الى أبي سعيد الخدري، قال: نزلت هذه الآية ﴿**يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل اليك من ربك**﴾ (المائدة:٦٧)، يوم غدير خم في علي بن ابي طالب) ص٢١٦، وقال: (لعلّه أشار بقوله ﷺ: وإنكم مسؤولون، إلى ما أخرجه الديلمي وغيره، كما في الصواعق وغيرها، عن ابن سعيد، أن النبي ﷺ قال: ﴿**وقفوهم إنهم مسؤولون**﴾ (الصافات:٢٤) عن ولاية علي. وقال الامام الواحدي: انهم مسؤولون عن ولاية علي وأهل =

ومنه ﷺ خاصة، وأن يقول للناس، من هو علي، وأن يدلهم عليه، مع أنهم يعرفونه جيداً كقائد موعود مرتقب للأمة الاسلامية.

وفي خضم الخلاف والصراع ـ الذي نشأ فيما بعد ـ راح كثيرون يدّعون، أن تصريحات الرسول وإشاراته الى علي عليه السلام لم تكن خاصة به، وأنه ﷺ أشار إشارات أخرى مشابهة الى غيره من الصحابة، ألمح فيها الى أهميتهم وصلاحيتهم للصعب من الأمور..! ولكننا نسأل هؤلاء: هل أن إشارات الرسول إلى علي عليه السلام كانت مجرد إشارات عابرة، أم أنها كانت تريد اعداد هذه الأمة للالتفاف حول هذا القائد المرتقب والمعدّ والمربّىٰ من قِبلَ الرسول نفسه ﷺ، وكذلك من يأتي بعده من سلالته الشريفة؟

وهل كانت الآيات القرآنية الكريمة النازلة له بحق علي[1] تعبّر عن

= البيت، فيكون الغرض من قوله: وانكم مسؤولون، تهديد أهل الخلاف لوصيه ووليه) ص٢١٦، وقال: (تدبر هذه الخطبة من تدبرها، وأعطى التأمل فيها حقه، فعلم أنها ترمي إلى أن ولاية علي من أصول الدين كما عليه الامامية حيث سألها أولاً، فقال: أليس تشهدون أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله؟ إلى أن قال: وان الساعة آتية لا ريب فيها، وان الله يبعث من في القبور، ثم عقب ذلك بذكر الولاية ليعلم أنها على حد تلك الأمور التي سألهم عنها فأقروا بها، وهذا ظاهر لكل من عرف أساليب الكلام ومغازيه من أولي الأفهام) ص٢١٦. (إن الله أولى بي من نفسي، وأنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ومن كنت أولى به من نفسه، فعلي أولى به من نفسه) ص٢١٦. وقد أخرج هذا الحديث بصيغ وألفاظ أخرى مشابهة النسائي عن زيد بن ارقم ص٢١ من الخصائص العلوية، وأخرجه الامام احمد من حديث البراء بن عازب عن طريقين.. وأخرجه النسائي عن عائشة بنت سعد، وأخرجه مسلم من باب فضائل علي من صحيحه (ص٣٢٥، ج٢). والسنن في هذا كثيرة لا تحاط ولا تضبط وهي نصوص صريحة بأنه ولي عهده، وصاحب الأمر من بعده).

(١) . (قال ابن عباس: ما نزلت في أحد من كتاب الله ما نزل في علي) (أخرجه ابن عساكر وغير واحد من أصحاب السنن)... وقال مرة أخرى: (نزل في علي ثلاث مائة آية من كتاب الله عز وجل) ـ (من حديث أخرجه ابن عساكر ايضاً) وقال مرة ثالثة: (ما أنزل الله: يا أيها الذين آمنوا، إلاّ وعلي أميرها وشريفها، ولقد عاتب الله أصحاب محمد ﷺ في غير مكان من كتابه العزيز وما ذكر علياً إلا بخير. اهـ) من حديث أخرجه الطبراني وابن ابي حاتم وغير واحد من اصحاب =

الإشادة المجرّدة من قِبَل الذات الإلهية بهذا الرجل.. لا لشيء أو لهدف معين خاص، رغم كثرتها ووضوحها..؟ وهل كانت الأحاديث الشريفة[1] تعبّر عن مجرد الايضاح عن الصلات والعلاقات الحميمة بين الرجلين، تنتهي وينتهي مفعولها وأهميتها بمجرد الاعراب عنها..؟ هذا إذا كلف بعضنا أنفسهم بالاطلاع على هذه الآيات والأحاديث وموقف النبي ﷺ الواضح منه عليه السلام.. وعرفوا سبب نزول هذه الآيات في حقه.. وهي واضحة لا لبس فيها ولا خلاف...؟

بين ثقافة الاسلام.. وثقافة السب الأموية.. سياسة في التضليل والجهل

لقد كرّست حملة شرسة، بعد مضي سنين على نزول القرآن ووفاة الرسول ﷺ، لتحريف بعض الأحاديث النبوية، ووضع غيرها، ونسبتها

= السنن ونقله ابن حجر، ونقل الأحاديث الثلاثة التي قبله في الفصل٣ من الباب٩ ص٧٦ من صواعقه.. وقد نزلت فيه آية الولاية وهي قوله تعالى: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلواة ويؤتون الزكواة وهم راكعون ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ (المائدة: ٥٥ ـ ٥٦) كما ورد عن ابن عباس، وراجع مسندي ابن مردويه وابي الشيخ وكنز العمال (الحديث ٦١٣٧) ص٤٠٥، ج٦، وقد نقل اجماع المفسرين انها في علي غير واحد من أهل السنة.. وفي الباب١٨ من غاية المرام ٢٤ حديثاً من طريق الجمهور في نزولها بما قلناه، راجع المراجعات ص١٩٠ ـ ١٩١ حيث تجد العديد من الأحاديث الصحيحة بهذا الصدد. ولا يسعنا في هذه العجالة ذكر كل ما نزل فيه عليه السلام.. فذلك أمر أفردت له مصنفات وكتب عديدة.

(١) الأحاديث الشريفة في علي فاق عددها ما قاله الرسول ﷺ حول العديد من الأمور، ولعلنا سنتطرق الى ذكر بعضها عند الكلام عن بعض جوانب شخصيته عليه السلام، وهي أحاديث أجمعت كتب الحديث المعتبرة عند أهل السنّة وغيرهم باعتبارها صحيحة عن طريق الأسانيد المعتبرة لديهم. ولو أردنا التطرق إلى هذه الأحاديث وأسانيدها لاستدعى ذلك مجلدات عديدة. وقد تصدى بعض العلماء الأفاضل لذكر بعضها مثل العلامة عبد الحسين شرف الدين الموسوي في المراجعات وغيره.

اليه ﷺ، وتأويل النصوص القرآنية، وشرحها بما يلائم أغراض تلك الحملة المشؤومة[1] التي لا نزال نعيش آثارها حتى اليوم، بعد أن نجحت بتنفيذ العديد من خططها وأهدافها. . . والتي استهدفت في البداية توطيد الحكم الأموي، الذي لم يدم طويلاً رغم أن نمطه وأسلوبه وفلسفته قد دامت طويلاً، وقد وجدت النماذج المشابهة له على مر التاريخ الاسلامي.

ومع ذلك، فلا خلاف في أن الكثير مما قيل في شأن علي وآل البيت عليهم السلام قد سلم من تلك التشويهات والتحريفات. . . فقد كانوا أقوى من أن تمحوهم أو تشوّه صورهم الدعايات الأموية المضللة. . إلاّ أن الموقف منهم ظلّ من قبل العديدين موقفاً سلبياً وبارداً ولا عجب فقدرات الدولة الأموية التي عاشت قرابة الف شهر، كانت كلها مكرّسة لطمس فضائل علي وآل البيت، وإذ لم تنجح في ذلك في بعض الأحيان، فإنها

(١) عن الجاحظ (أن معاوية ما اكتفى بسب علي حتى وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي تقتضي الطعن فيه والبراءة منه وجعل لهم جعلاً يرغب في مثله فاختلقوا ما أرضاه. .) (وقد بذل معاوية لسمره بن جندب أربعمائة الف حتى يروي أن هذه الآية نزلت في علي بن ابي طالب ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألدّ الخصام، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسدَ فيها ويهلكَ الحرثَ والنسل. .﴾ (البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٥) وأن الآية التالية نزلت في ابن ملجم وهي: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد﴾ (البقرة: ٢٠٧) (وظهرت أحاديثهم الكاذبة، ونشأ عليها الصبيان يتعلمون ذلك. وكان أشد الناس في ذلك الشعراء المراؤون والمتصنعون الذين يظهرون الخشوع والورع، فكذبوا وانتحلوا الأديث وولدوها، فيحظون بذلك عند الولاة والقضاة ويدنون مجالسهم ويصيبون بذلك الاموال والقطايع والمنازل، حتى صارت احاديثهم ورواياتهم عندهم حقاً وصدقاً. فرووها وقبلوها وتعلموها وعلّموها وأحبوا عليها وأبغضوا من ردها أو شك فيها، فاجتمعت على ذلك جماعتهم وصارت في يد المتنسكين والمتدينين. . فقبلوها وهم يرون أنها حق، ولو علموا بطلانها وتيقنوا أنها مفتعلة لأعرضوا عن روايتها، ولم يدينوا بها، ولم يبغضوا من خالفها، فصار الحق في ذلك الزمان عندهم باطلاً والباطل حقاً والكذب صدقاً والصدق كذباً)، شجرة طوبى، محمد مهدي المازندراني الحائري، المطبعة العلمية، النجف ١٣٦٩هـ ص٨٤ ـ ٩٠.

وقفت موقفاً صارماً حيال من كان يميل اليهم أو يتولاهم أو يرى رأيهم، وقد لجأت إلى أساليب الشتم والقذف والافتراء بحقهم، وخصوصاً في علي عليه السلام . . كما لجأت إلى أقسى الأساليب لصدّ الناس عنهم ومنعهم من موالاتهم. . فقد روى الجاحظ (أن معاوية كان يقول في آخر خطبة الجمعة: «اللهم إن أبا تراب ألحد في دينك، وصدَّ عن سبيلك، فالعنه لعناً وبيلاً وعذّبه عذاباً أليماً». . وكتب بذلك الى الآفاق، فكانت هذه الكلمات يُشار بها على المنابر، إلى خلافة عمر بن عبد العزيز) وقال الجاحظ: (إن قوماً من بني أمية قالوا لمعاوية: إنك قد بلغت أملك، فلو كففت عن لعن هذا الرجل. فقال: لا والله حتى يربو عليه الصغير ويهرم عليه الكبير ولا يذكر له فضلاً). . . وكتب معاوية الى جميع عمّاله في جميع الأمصار: أن لا تجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة.

وكتب زياد بن أبيه اليه في حق الحضرميين أنهم على دين علي وعلى رأيه، فكتب اليه معاوية، اقتل كل من كان على دين علي وعلى رأيه. فقتلهم ومثّل بهم.

وكتب معاوية إلى جميع البلدان: انظروا من قامت عليه البيّنة أنه يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان.

كان الرجل يرمى بالزندقة والكفر. . كان يكرم ويعظم ولا يتعرض له بمكروه، والرجل من الشيعة لا يأمن على نفسه في بلد من البلدان، لا سيما البصرة والكوفة. .)[1].

لقد حاول أبناء أولئك الذين أرادوا صدّ الاسلام عن الانتشار أول أمره، تشويه صورة الذين نشروه ووقفوا حياتهم في سبيل ذلك. . . بعد أن احتلوا هم مواقعهم وجعلوا من انفسهم (حماة) للاسلام وحكاماً باسمه.

---

(١) شجرة طوبى، ٨٤ ـ ٨٩.

هذه إحدى الفجوات الكبيرة، التي ضاع في غمرتها، ما أراد الرسول الكريم ﷺ إيصاله الينا، بخصوص هذه الشخصية العظيمة التي أرادها أن تكمل مسيرته بنفس الوعي والعزيمة والصدق الذي حمله ﷺ. . ومع ذلك فان ما وصل الينا وسلم من الافتراء والطمس، يكفينا لكي نفهم أن عليّاً كان الشخص الوحيد الذي يحمل المؤهلات الكافية لقيادة الأمة الاسلامية على خطىٰ الرسول الكريم ﷺ.

ولن يسع المجال لكي نتحدث عن الامام علي عليه السلام هنا، فنلم بشخصيته إلماماً كافياً، غير أننا يمكن أن نلقي الضوء على بعض جوانبها بالشكل الذي يتاح لنا، ولن يكون ذلك في مجال المقارنة بينه وبين معاوية أو غيره، عند التطرق إلى (الخلاف) بينهما على العديد من الأمور، وخصوصاً (الخلافة) التي ادعاها معاوية لنفسه وسبب ذلك صدعاً في الاسلام، وثلمة كبيرة في بنيانه العظيم. . . وسيبدو لنا البون شاسعاً بين الشخصيتين. . . حيث سنرى ضآلة شخصية (العاهل الأموي) أمام الشخصية الشبيهة بشخصية الرسول ﷺ. وربما إذا ما فعلنا ذلك وفق المقاييس البشرية، فإن الأمر ربما يكون غير جائز لنا وفق المقاييس الإلهية. . إذ: هل يجوز أن نقارن معاوية برسول الله ﷺ نفسه؟ وإذاً: كيف يجوز أن نقارنه بعلي وهو أخ الرسول ووصيه وزوج ابنته البتول؟ إنه هو نفسه، غير أنه ليس بنبي، ولم ينزل عليه وحي.

* * *

الخلافة.. كالنبوة.. مهمة إلهية لا يؤديها إلاّ المعصوم..

لقد بدا لنا واضحاً، أن دور الامامة يندمج مع دور النبوة في مرحلة نزول الرسالة، ثم يستمر بعد وفاة الرسول، فمهمات الامام هي كمهمات الرسول، وكل الدلائل التي وصلتنا كانت تدل على نوعية المهمات الدقيقة

والكبيرة التي كان النبي يعدّ لها الامام والوصي من بعده، وطبيعة التربية والعلاقة الوثيقة الدائمية بينهما، بحيث تتيح له فرصة التلقي المستمر عنه، وكما كان الشعور العالي بالمسؤولية يسيطر على كل كيان النبي وكل مشاعره وأحاسيسه، عمل ﷺ على أن يكون الأمر كذلك مع وصيه عليه السلام . . . وقد رأينا فعلاً، كيف كان نفس هذا الشعور بالمسؤولية يستولي على كل كيان الامام، فلا يرى أمامه إلاَّ الله وإلاَّ الاسلام الذي أراد سبحانه من الجميع أن يتحملوا مسؤولية نشره وتوضيحه، ووضعه على طريق البشر منهجاً حياتياً متكاملاً كفيلاً بحلّ كل اشكالاتها وعقدها . . .

وكانت المؤهلات العلمية والقيادية التي تمتع بها الامام عليه السلام ، قد جعلت منه مدرسة لعلماء الاسلام. . فأي علم من علوم الاسلام لم يكن هو مؤسسه وباعثه. .؟ كما كان بصفاته الشخصية الفريدة محط أنظار الأمة كلها. . هذا أمر مؤكد وواقع. . وإلاَّ فهل كان أحد يستطيع أن يؤدي مهمة القيادة بالشكل الذي أدّاه به الامام عليه السلام . . دون هذا الشعور بالمسؤولية الذي تمتع به، ودون هذا الزخم الهائل من العلم والمعرفة، وهذه الشحنة العظيمة من الايمان والوعي بحقائق الاسلام ومبادئه وقيمه التي حملها. .؟

هذه المهمة الضخمة التي كان على الامام أن يستمر بها بعد اختفاء النبي من الساحة، هي التي تستدعي أن يكون متمتعاً بهذه الصفات القيادية البارزة. . خصوصاً وأن معركة الاسلام مع أعدائه لم تنقطع، ولم يكن محتملاً لها أن تنقطع، ما دامت قوى الشر والظلام والمصالح والشهوات تولي على مساحات كبيرة من العالم. . وما دام الامام هو الذي ينبغي أن المعركة، فلا بد لدور الامامة أن يستمر طالما ظلَّت هذه المعركة قائمة سلام وخصومه.

فهذه الصلة الربانية التي تمثلت بالنبوة أولاً ثم بالامامة، يجسدها ، وأوصياؤهم. . ومع أن أوصياء بعض الأنبياء السابقين، كانوا أنبياء

بدورهم، إلاَّ أن النبوة في الاسلام، اختصَّ بها الرسول الكريم ﷺ وحده، ولا مجال لأي ادعاء أو افتراء، بأن الوحي قد نزل على غيره.. وإلاَّ فهي ادعاءات باطلة يهدف منها تشويه سمعة أولئك الذين قيل أنه نزل عليهم.. لا غير..!!

ولم يرد الله ـ سبحانه ـ لعملية الخلافة أن تكون عشوائية، ومبنية على تصورات الانسان وحده، لم يكن يريدها من خلق هذا الانسان، وإنما أرادها أن تكون مبنيَّة على إرادته وتصميمه هو.. وهكذا بعث بسلسلة الرسل (البشر)، يحملون رسالته ومنهجه الذي أراده على هذه الأرض، لتنظيم عملية الاستخلاف... ومن هنا كان ثبات الرسل، وإصرارهم على تبليغ رسالات ربهم، مهما كانت الصعوبات، فعلمهم علم يقيني لا لبس فيه ولا غموض.. وهكذا صمدوا أمام كل الهجمات الشرسة لأعدائهم، ولم يتراجعوا ولم يكلوا.. وهكذا كانوا من أصلب الثوار على الساحة البشرية التي لم يصمد فيها كل الثوار الآخرين.. فعصمة الأنبياء كانت بمشيئته الإلهية جعلت منهم لا يرون أمامهم إلاَّ الذي بعثهم برسالته.. وإلاَّ طريقه ومنهجه.

ولا بد لمن يتولون مسؤولية قيادة نفس المعارك التي يخوضها هؤلاء الرسل، ويؤدون نفس الأدوار التي أدوها، أن يملكوا نفس الوعي والشعور العالي بالمسؤولية الذي امتلكوه.. ولا بد أن يكونوا على درجة من العصمة تقيهم السقوط في زحمة المشاعر والتصرفات الانسانية المتضاربة، ولا يرون أمامهم إلاَّ المثل الأعلى الذي رآه أولئك الرسل.. المثل الأعلى العالي، الذي لا ينبع عن التصورات البشرية الأرضية المجردة.. المثل الذي ينفصل عن هذه التصورات ويتفوق عليها بقدرته وواقعيته، والذي تجلى وحيه للأنبياء كحقيقة واقعة مرئية واضحة، لا يرون أمامهم إلاَّ الله، ولا يتجهون إلاَّ إليه وحده، ولا يتعرفون إلاَّ بوحيه.. وإن كان هذا الوحي لم ينزل على

الوصي، لكنه قد أتيحت له فرصة الاتصال بالنبي المرسل اتصالاً واعياً واسعاً لا يتاح لأي بشر عادي. . وتزوده بكل ما زود هذا النبي من تسديد إلهي يقيه العصمة ويمنعه من السقوط والانحراف، وبقدر من العلم الإلهي يجعله يدرك الأمور وينظر اليها بمستوى عالٍ من الادراك والوعي لا يتسنى للانسان العادي الذي تغمره همومه العادية اليومية والذي لا تشكل (التطلعات) أو (التوجهات) الإلهية، إلاَّ بعض تلك الهموم أو الهواجس اليومية العادية، وقد ينسى في غمرة الصراع على المصالح وربما على الحياة، تلك التطلعات أو التوجهات. . وقد تكون مجرد أمور دينية متلقاة، قد يقوم هو برسم بعض أشكالها وفق مصالحه وظروف حياته، ويبرر كل خروج أو انحراف عنها بمبررات عديدة لا تمتّ إلى الاسلام بأية صلة.

أما (المعصوم) فلا يرى أمامه سوى الله وسوى الاسلام، سوى الشعور العالي بالمسؤولية الذي يمتلكه والقيادة التي أوكلت اليه والطريق الذي رسم له، كما أن له من الوعي والفهم والمعرفة، ما يتيح له انتهاج الطريق الذي رسم له بدقة تامة. . وعدم الخروج عنها مهما كانت الظروف والأحوال، ومهما كانت الضغوط والاغراءات التي قد يتعرض لها. . . ومن هذا المنطلق. . ومن هذا الفهم لشخصية المعصوم ينبغي لنا فهم كلمات الامام علي عليه السلام . . . لنجد أنها لم تكن من باب زجّ المديح لذاته ـ وما كان بحاجة لذلك وقد مدحه وزكّاه الله ورسوله ـ ولكنها كانت من باب التعريف بنفسه. . ولم يرَ بأساً من القيام بهذا التعريف طالما أنه كان لا يخرج عن نطاق الحقيقة. . وطالما كان ذلك ضرورياً لنا، لنعرف مع من نتعامل وعمَّن نتكلم.

(. . وإني لعلى بيّنة من ربي ومنهاج نبيّي وإني لعلى الطريق الواضح ألقطه لقطاً. .)[1].

---

(١) نهج البلاغة ٢٤١.

(.. إنـي للمحـق الـذي يُتَّبَـع وإن الكتـاب لمعـي مـا فـارقتـه مـذ صحبته)[1].

(.. إن معي لبصيرتي، ما لبست ولا لبس عليَّ)[2].

(.. إنما مثلي بينكم مثل السراج في الظلمة يستضيء به من ولجها)[3].

(.. فلأنا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض)[4].

(.. وأنا من رسول الله كالصنو من الصنو والذراع من العضد)[5].

(.. ما شككت في الحق مذ أريته)[6].

(إني ما رأيت شيئاً إلاَّ ورأيت الله معه، وقبله، وبعده، وفيه...)[7].

﴿.. قلِ الله ثم ذَرهـم﴾[8].

(ما كُذِّبت ولا كَذبت ولا ضللت ولا ضلَّ بي)[9].

إن هذه الحقائق تتيح لنا أن نفهم سلوك المعصوم، وعدم استعداده للمساومة والانحراف، وربما رأى بعضنا، بتصوراتهم الأرضية المتدنية، أن لا بأس على المعصوم من بعض (التنازلات) و(المناورات).. ثم يحقق بعد ذلك ما يريد بعد أن يتمكن... وقد فكَّر بعضنا بذلك، وحاول أن ينظّر ويفلسف الأمور ويفسّرها، ويتمنى لو كان حاضراً بنفسه مع الامام (ليشير)

---

(١) نهج البلاغة ٢٨٦.

(٢) نهج البلاغة ٣٠٧.

(٣) نهج البلاغة ٤٠٩.

(٤) نهج البلاغة ٤١١.

(٥) نهج البلاغة ٥٨٩.

(٦) نهج البلاغة ٦٩٩.

(٧) نفس المصدر.

(٨) سورة الأنعام، الآية: ٩١.

(٩) نهج البلاغة ٧٠٠.

عليه ببعض آرائه بخصوص العديد من الأمور التي عرضت له . . .

لا للمساومات والتنازلات.. إن شر الناس عند الله إمامٌ جائر

وقد نظر بعض المعاصرين للامام، نفس هذه النظرات (المعاصرة) لنا فعرضوا على الامام أن يتنازل لمعاوية عن بعض الأمور ـ مثل ولاية الشام، ويستجيب لبعض طلباته، ويقره على مكانه، ريثما تستتب له الأمور . . فقد أشار عليه المغيرة بن شعبة ـ بقوله ـ بعدما بويع له بالخلافة . . (. . أرسل إلى عبد الله بن عامر وإلى معاوية وإلى عمّال عثمان بعهودهم، تقرهم على أعمالهم، ويبايعون لك الناس، فانهم يهدّئون البلاد ويسكنون الناس . .)[1] وقد رفض الامام ذلك بالطبع .

كما أشار عليه شَبَث بن ربعي التميمي، عندما أرسله الامام مع آخرين الى معاوية ليدعوه إلى الله وإلى الطاعة والجماعة ـ على حد تعبير الامام عليه السلام ـ قال شَبَث : (ألا تطمعه في سلطان تولّيه إياه، ومنزلة يكون لها بها أثرة عندك إن هو بايعك؟)[2] .

غير أن الامام لم يرد إلاّ تثبيت دعائم الاسلام، لا دعائم عرشه هو أو خلافته! فهو لم يكن ليقبل بهذه الخلافة، إلاّ أن يقيم حقاً أو يمنع باطلاً . . . هذه هي مهمته كما يراها، وكما أعدَّ لها . . . وكما يراها الاسلام . . . ومن أولى منه بالعمل على هدى الاسلام . . . فاذا ما داور وناور وساوم على حساب مبادئه، فهل كنا نتوقع من قائد آخر يأتي من بعده ـ مهما كانت منزلته ومكانته، أن يسير على هدى الاسلام ومبادئه فقط . . . ؟ وهكذا رفض تلك العروض التي بدت مغرية في ظاهرها، إلاّ أنها كانت تنطوي على شيء عظيم ومخاطر عديدة قد تلحق بالاسلام في عاجل الأمر أو في آجله .

---

(١) الطبري ٢ ـ ٧٠٣ وراجع ص٢٣٠ مقدمة ابن خلدون .
(٢) ؟؟؟؟؟؟

إن الامام علي عليه السلام، في سعيه لتوطيد دعائم الدولة الاسلامية، لم يلجأ إلى ما لجأ اليه غيره من أساليب مقطوعة الجذور عن الاسلام وبعيدة عنه، وإنما أراد تثبيت هذه الدولة الاسلامية بالاسلام نفسه... وكان بذلك ممثلاً أميناً لرسول الله صلى الله عليه وآله نفسه.. ذلك الباني والمؤسس الأول لهذه الدولة.. وقد حاول في مناسبات عديدة أن يوضح أن مهمة الامامة أو الخلافة ليست مكسباً شخصياً يُمنح لفرد من هذه الأمة، بقدر ما هي مسؤولية ثقيلة تترتب عليها واجبات عديدة، يشكل الخروج عليها جوراً وخروجاً عن الاسلام:

(.. إنَّ أفضل عباد الله عند الله إمام عادل، هُديَ وهدى، فأقام سنَّة معلومة وأمات بِدعة مجهولة)[١].

(.. إنَّ شرَّ الناسِ عند الله إمامٌ جائرٌ ضلَّ وضُلَّ به، فأمات سنَّة مأخوذة، وأحيا بدعة متروكة. وإني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «يؤتى يوم القيامة بالامام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر، فيلقى في نار جهنم، فيدور فيها كما تدور الرَّحىٰ، ثم يرتبط في قعرها»)[٢].

(إن أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه، وأعلمهم بأمر الله فيه)[٣].

(.. أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل فتكون في أموالهم نَهمته ولا الجاهل فيضلهم بجهله ولا الجافي فيقطعهم بجفائه ولا الحائف للدول فيتخذَ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق، ويقف بها دون

---

(١) نهج البلاغة ٢٣٤ ـ ٢٣٥ والعقد الفريد.

(٢) نفس المصدر ص٢٣٥ والعقد الفريد ص٥٥.

(٣) نفس المصدر ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

المقاطع، ولا المعطّل للسنّة فيهلك الأمة)[١].

(الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه)[٢].

* * *

(خاصف النعل).. قاتل على تأويل القرآن.. كما قاتل على تنزيله

انه يستلهم في كل أقواله وتصرفاته قيم الاسلام، ولا يرى إلاّ مثله الأعلى الوحيد، كما أنه يتمتع بقدر من الايمان والمعرفة يتيح له أن يزود الأمة كلها بعطائه وعلمه ومعرفته... كما كان رسول الله ﷺ بالضبط...

إن الآية التالية (صريحة في لزوم العصمة في الامام لمن تدبّرها جيداً، وأن يكون أفضل أهل زمانه في كل فضيلة، وأعلمهم بكل علم، لأن الغرض منه تكميل البشر وتزكية النفوس وتهذيبها بالعلم والعمل الصالح ﴿**هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبلُ لفي ضلال مبين**﴾[٣]، والناقص لا يكون مكملاً والفاقد لا يكون معطياً. فالامام في الكمالات دون النبي وفوق البشر)[٤].

العصمة.. ضمانة لعدم انحراف الأمة..

ولهذا السبب كانت عصمة الرسول ﷺ هي التي جعلت إمامته وقيادته للأمة الاسلامية مضمونة العواقب في النصر الأكيد والفوز الحاسم، لأنهم

(١) نفس المصدر، ص١٨٩.

(٢) نفس المصدر ص٨١ وقد روى عبد الله بن العباس قال: دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام بذي قار وهو يخصف نعله فقال: ما قيمة هذا النعل؟ فقلت: لا قيمة لها. فقال عليه السلام: والله لهي أحب إليَّ من أمرتكم، إلاّ أن أقيم حقاً أو أدحض باطلاً، ص١٣٤، نهج البلاغة.

(٣) سورة الجمعة، الآية: ٢.

(٤) أصل الشيعة وأصولها، ص١٠٣.

كانوا يقتبسون منه قناعة وايمان بالله لا يتزعزعان، فكأنهم يبصرون بعينيه ويسمعون ما يسمعه. . ومن هنا كان مسيرهم غير المتحفظ وراءه مدركين أنه لا بد أن يقودهم الى الطريق السوي، ومن هنا كانت استماتتهم في الدفاع عن دينهم، وهم قلة، ووقوفهم بوجه قوى الشر الملتحمة المتحدة المصرة على ابادتهم ومحوهم.

إن الروايات المتواترة الصحيحة ـ ورواتها الثقات يعدون بالمئات ـ تؤكد رغبة رسول الله ﷺ في أن يكون علياً وصيه ووزيره من بعده ـ كما رأينا في خطبة الغدير السابقة ـ وهي رغبة لا يمكن اعتبارها شخصية نابعة عن هوى خاص في أخيه وابن عمه، بل لا بد أن تكون موحاة من قِبَل الله وموصى بها منه سبحانه. . . لقد طلب منه ﷺ، وأقرّ بطلبه ذلك حقيقة واقعة وهي: انه عليه السلام من النبي ﷺ بمنزلة هٰارون النبي من موسى النبي، ـ وكان هٰارون خليفة موسى على قومه إذا غاب عنهم ـ إلاّ أنه عليه السلام ليس بنبي، إذ أن الرسالة انقطعت، غير أن الامامة، كما يؤكد الرسول ﷺ لم تنقطع. . أراد منه أن يكمل مشوار القيادة الطويل لهذه الأمة، ويأخذ على عاتقه اخراجها منتصرة أمام كل التحديات التي تواجهها على كل الساحات، ساحة النفس البشرية، وساحة المنافسة على المصالح والامتيازات، ساحة الطواغيت التي تحكم العالم وتحيط بالجزيرة من أقطارها.

هذه الأحاديث والروايات العديدة[1] لا غبار عليها، ولا اختلاف فيها عند جميع أبناء الأمة الاسلامية، أما كيف يتداولونها وكيف يفهمونها، فهنا

(١) راجع (المراجعات ـ للامام عبد الحسين شرف الدين الموسوي) عليه رضوان الله، ففيه تقصٍ دقيق لأهم هذه الروايات، مما يزيل كل شك وارتياب من الأذهان التي ربما لم تطلع ولم تعلم بما قيل في حق علي وآل بيته عليهم السلام الحملة المنظمة والمقصودة لطمس حقهم في الولاية، والاكتفاء بتناول بعض فضائلهم العامة التي يتساوون فيها مع الناس العاديين الآخرين من الصحابة والتابعين وغيرهم.

سر (الخلاف) الكبير، وسرّ المسألة كلها، وهو الذي يجعلنا نتساءل عن سبب السكوت والتراخي عن هذه الأحاديث التي لا تحتمل التأويل، وعن سبب السكوت عن تأويل بعض نصوص القرآن الكريم ايضاً، وهو أمر محير ومثير للعجب، إذ يمرون عليها مروراً عابراً ولا يتدبرون معانيها جيداً، وقد يفعلون بالقرآن الكريم ما فعلوه معها، فكأنهم بذلك التأويل الخاطىء المتعمد، يقرأون قرآناً آخر.. لم يملكوا أن يغيروا مبانيه وألفاظه وعباراته فغيروا معانيه ومضامينه، وهذا أمر في غاية الخطورة، يستدعي أن تقوم الأمة كلها بوجه فاعليه وتردهم عن ذلك بمختلف الوسائل المناسبة... (عن أبي سعيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن، كما قاتلت على تنزيله»... وشخص إلى الامام علي بعينه، بقوله: «ولكنه خاصف النعل..» وكان قد أعطى علياً نعلاً يخصفه)[1]، وكان معاوية نفسه يتزعم أكبر حملة لتأويل القرآن ووضع الأحاديث وقد خاطبهم الامام عليه السلام في إحدى رسائله قائلاً: (.. فعدوت على طلب الدنيا بتأويل القرآن)[2].

لقد استمعنا إلى حديث الغدير، وهو من الأحاديث المشهورة المتواترة التي نصّت على إمامة علي عليه السلام والذي استمعت فيه جمهرة كبيرة

(١) البداية والنهاية، ٨ ـ ٣٧٥، وانظر (المراجعات) ٢٠٩ ـ ٢١٠ قوله ﷺ من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله، فاستشرف لها القوم وفيهم أبو بكر وعمر. قال ابو بكر: أنا هو؟ قال: لا. قال عمر: أنا هو؟ قال: لا. ولكن خاصف النعل يعني علياً. (أخرجه الحاكم ص١٢٢ ج٣ من المستدرك وأخرجه الامام أحمد والبيقهي وسعيد بن منصور وأبو نعيم وأبو يعلى...الخ. وعن ابي ذر، إذ قال: «قال رسول الله ﷺ فسي بيده ان فيكم لرجلاً يقاتل الناس بعدي على تأويل القرآن كما قاتلت المشركين على تنزيله» فيما اخرجه الديلمي كما في ص١٥٥ ج٦ من الكنز.

(٢) نهج البلاغة: ٦٢٧.

من المسلمين لرسول الله ﷺ بعد منصرفه من حجة الوداع عائداً إلى المدينة المنورة.

وقد كان الرسول الكريم ﷺ وهو ابن الجزيرة العربية وابن قريش، والذي يتمتع بأعلى درجة من الوعي والادراك الصادق ورهافة الحس، يدرك أن اجتماع الفضل في بيته، النبوة والامامة معاً، سيثير فئات كبيرة من الناس، لم تزل بعد تنظر بمقاييس الجاهلية، ولعلها تنفّس على النبي الكريم وأخيه وصهره هذا الشرف الكبير، الذي لا بد أن تضمحل وتتلاشى معه كل أمجادهم وشرفهم وفخرهم... إن هؤلاء ـ وإن انضموا إلى الاسلام وأصبحوا تحت لوائه ـ لا بد وأنهم ليسوا على مستوى واحد من الفهم والشعور بالمسؤولية، وان كثيرين منهم ربما يعتبرون موقف النبي ﷺ بدعوة الناس إلى اتخاذ علي عليه السلام إماماً من بعده نابعاً عن هوى شخصي... وانهم إن لم يتسنى لهم الإعراب عن رأيهم هذا صراحة ورسول الله ﷺ فيهم، فربما أعربوا عنه فيما بعد، عند وفاة الرسول ﷺ.. والاسلام لا يزال في أول مراحله لم ينتشر في الجزيرة العربية كلها، ولم يتمكن من النفوس كلها.. والمعركة لا تزال قائمة بينه وبين أعدائه المعلنين.. وفي ذلك ما فيه من احتمال مرجح لردة كبيرة قد تقضي عليه قضاءً نهائياً.

لقد تردد رسول الله ﷺ في إعلان وصيته التي ستثير في أغلب الظن حفيظة الكثيرين وربما سببت ضرراً كبيراً للاسلام نفسه.. هذه الرسالة التي كرّس لها ﷺ كل لحظة من حياته وشعوره... وحينها جاءه التأكيد الإلهي واضحاً وحاسماً.. فالله أعلم بكل شيء وبكل ما سيحدث.. لقد أوحى إليه ـ سبحانه ـ **﴿يا أيُّها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلّغتَ رسالته والله يعصمك من الناس، إنَّ الله لا يهدي القوم الكافرين﴾**[1]. (فلم يجد بداً من الامتثال بعد هذا الانذار الشديد، فخطب الناس عند منصرفه من

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

حجة الوداع في غدير خم، فنادى، وجلّهم يسمعون: «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» فقالوا: اللهم نعم. فقال: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله»، ثم أكّد ذلك في مواطن أخرى تلويحاً وتصريحاً وإشارةً ونصاً، حتى أدى الوظيفة وبلغ عند الله المعذرة..)[1]... وهكذا نزل قوله تعالى: ﴿... اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً﴾[2].

وبغض النظر عن النصوص الواردة، فان المتتبع لسيرة الامام عليه السلام، يرى أن الصفات المطلوبة لقيادة الأمة على نهج الاسلام، كانت متوفرة فيه بشكل لا يمكن لأحد منافسته فيه بأي حال من الأحوال. ولقد شهد له بذلك حتى من سبقه من الخلفاء، وحتى من جاء بعده، ومنهم خصوم ألدّاء له وفي مقدمتهم معاوية نفسه[3] (قال ابن حجر في صواعقه: أخرج أحمد ان رجلاً سأل معاوية عن مسألة، فقال: سل عنها علياً فهو أعلم، قال: جوابك فيها أحب إليّ من جواب علي! قال: بئس ما قلت! لقد كرهت رجلاً كان رسول الله يغره بالعلم غراً، ولقد قال له: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي» وكان عمر إذا أشكل عليه شيء أخذ منه، إلى آخر كلامه)[4].

---

(١) أصل الشيعة وأصولها، ص١٠٨ والمراجعات، ففيه توضيح كافٍ عن مسألة الوصية لا تدع مجالاً لشك أو ارتياب.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٣) أثناء المقصد الخامس من المقاصد التي أوردها في الآية الرابعة عشر من الباب ١١، ص١٠٧ من الصواعق.

(٤) حيث قال وأخرجه آخرون (قال) ولكن زاد بعضهم: قم لا أقام الله رجليك ومحىٰ اسمه من الديوان إلى آخر ما نقله في ص١٠٧ من صواعقه، مما يدل على أن جماعة من المحدثين غير أحمد أخرجوا حديث المنزلة بالاسناد الى معاوية (المراجعات، ص: ١٦٥).

لماذا تنازل أمير المؤمنين عليه السلام عن حقه في الخلافة؟

ويطرح سؤال: إذا كان الأمر كذلك، وقد رأى عليه السلام أنه قد أُبعد عن المهمة التي أُعدَّ لها، وهو يعلم بحقه فيها، فلماذا سكت ولم يتقدم للجلوس على كرسي الخلافة ولو بالقوة؟ وهو سؤال مهم، والاجابة عنه سهلة لمن درس شخصية الامام عليه السلام دراسةً واعيةً متعمقةً، وتفاعل مع بعض جوانب نفسه الكبيرة، ونظر إلى الأمور من الزاوية التي شملتها عقليته الاسلامية الواسعة، وتصوره الاسلامي الصحيح. . . ولا بد لنا من استطلاع رأيه ـ هو أولاً ـ حول هذه المسألة، لنجد أنه لم يصرّح أو يشير ـ ولو إشارة عابرة ـ بعدم وجود حق له في هذا الأمر، بل على العكس، فهو يؤكد هذا الحق دائماً، حتى وهو لا يعمد إلى المطالبة به وإرجاعه.

إن المبررات التي طرحها عليه السلام والتي أوضح فيها سبب سكوته، مبررات مقنعة جديرة بأن تجعلنا جميعاً ندرك دوافع هذا السكوت. . إذا ما فهمنا طبيعة نظرته للأمور وإذا ما فهمنا طبيعة المرحلة الدقيقة التي كان يمرّ بها الاسلام وهو يواجه معركته الكبرى الحاسمة بمواجهة الشرك والجاهلية. . . فليس من المعقول أن يشغل الامام المسلمين بمعركة جانبية أخرى بينهم، قد تكون سبباً لخسارة المعركة الكبرى مع أعدائه الرئيسيين. . وهي معركته هو ايضاً على أي حال.

إنه يتقبل الأمر الواقع على أمل نجاح تلك المعركة الكبرى في النهاية، ويتناسى حقه ويهملهم في غمرة الشعور الكبير بالمسؤولية الملقى على عاتقه. . مع أنه لم يرد من وراء إعلان هذا الحق في الخلافة ـ كلما أتيحت له الفرصة ـ (والجميع يعلمون بذلك وقد علموه أكثر فيما بعد وبيَّنته لهم الوقائع)، الحصول على مكاسب أو امتيازات شخصية ليقول عنه من قد

يقول : انه كان متهالكاً على كرسي الخلافة، وأنه كان يبثّ ظلامته من غصبه حقه كلما أتيحت له الفرصة.

نعم. كان يعلن حقه ويبثّ ظلامته كلماوجد ذلك مناسباً. . . لكنه لم يكن يتظلم لنفسه. . ولم يكن (يبكي) على (مغانم) أخذت منه وعلى ملكٍ عريض ضاع في أيدي الآخرين. . ولكنه كان يتظلم للاسلام الذي أعيقت مسيرته بغياب قائده الحقيقي، ولم ينشتر انتشاره الطبيعي كما لو كان ذلك القائد يتقدم المسيرة. . ولوصل إلى أبعد مدى كان يمكن أن يصله في تلك الحقبة من الزمن. . التي بدت وكأنها زمناً مقطوعاً عن زمن رسول الله ﷺ وليست امتداداً طبيعياً صحيحاً له.

.. لقد علمتم أني أحق الناس بها..

وكلنا يعرف طبيعة الظروف والأحداث التي جرت بعد وفاة رسول الله ﷺ مباشرة، وهي أحداث بحاجة الى توضيح أكثر ودراسات جدية عديدة، لا تكون نتيجتها الاساءة الى المسلمين وإنما وحدتهم وجمعهم تحت المنظور الاسلامي الموحد الشامل في الحكم والحياة. . .

(لقد علمتم أني أحق الناس بها من غيري. ووالله لأسلمنَّ ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جورٌ إلاّ عليَّ خاصة التماساً لأجر ذلك وفضله، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفة وزبرجة)[1].

(اللهم إنك تعلم أنه لم يكن منّا منافسة في سلطان ولا التماس شيء من فضول الحطام ولكن لنرد المعالم من دينك ونظهر الاصلاح في بلادك أمن المظلومون من عبادك وتقام المعطلة من حدودك)[2].

(أما الاستبداد علينا بهذا المقام ونحن الأعلون نسباً والأشدّون

نهج البلاغة، ص١٧٨.

١) المصدر السابق، ص٣٠١.

برسول الله ﷺ نوطاً، فانها كانت أثَرَة، شحَّت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس آخرين. والحَكَمُ الله، والمَعُودُ اليه القيامة. . .

ودع عنك نهباً صيح في حجراته)[(١)]

(. . . فنظرت فأنا ليس لي رافد ولا ذاب ولا مساعد إلاّ أهل بيتي فَضننتُ بهم عن المنية فأغضيت عن القذى، وجرعت ريقي على الشجى وصبرت على كظم الغيض على أمرّ من العلقم، وألم للقلب من حزِّ الشفار. .)[(٢)].

(. . أما والله لقد تقمصها (فلان) وانه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرَّحى. . . فسدلت دونها ثوباً وطويت عنها كشحاً، وطفقت أرتأي بين أن أصول بيد جذاء أو أصبر على طخيةٍ عمياء. . . فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى، فصبرت وفي العين قذىً وفي الحلق شجى أرى تراثي نهباً. . . فصبرت على طول المدة وشدة المحنة. . .)[(٣)].

(. . وقد كان ابوك (ابو سفيان) أتاني حين قبض رسول الله ﷺ فقال: ابسط يدك أبايعك فأنت أحق الناس بهذا الأمر، فكنت أنا الذي أبيت عليه مخافة الفرقة بين المسلمين لقرب عهد الناس بالكفر. . .)[(٤)].

كانت بيعتهما فلته.. ويل لعمر ولأم عمر إن لم يعف الله عنه..

ويبدو أن الخليفتين الأولين رأيا أن بيعتهما كانت فلتة وقى الله المسلمين شرها. . فقد روي عن أبي بكر قوله: (فإني وددت أني سألت

---

(١) نفس المصدر، ص٣٤٩.

(٢) نفس المصدر، ص٤٨٠.

(٣) نفس المصدر، ص٨٦ ـ ٨٨.

(٤) العقد الفريد، ص٦٥.

رسول الله ﷺ لمن الأمر من بعده لا ينازعه أحد)[١] وعن عمر قوله قبل أن يموت من طعنة أبي لؤلؤة، وقد وضع خده على الأرض: (ويل لعمر ولأم عمر إن لم يعف الله عنه)[٢] ولما قيل له: (لو أنك عهدت إلى عبدالله قال: يحسب آل الخطاب أن يحاسب منهم رجل واحد عن أمة محمد ﷺ ولوددت أني نجوت من هذا الأمر كفافاً لا لي ولا علي)[٣]. وعندما قيل له أيضاً: (لو عهدت.. فقال: قد كنت أجمعت بعد مقالتي لكم ان أولّي رجلاً أمركم، أرجو أن يحملكم على الحق وأشار الى علي)[٤].

* * *

كان هذا موقفه من خلافة من تولى الأمر قبله، عبَّر عنه بصراحة ولم يخف حتى أحاسيسه ومشاعره الشخصية.. لقد وقف منهم وقفته المبدأية المشهورة التي كانت تستهدف دائماً الحفاظ على الاسلام وإعلاء شأنه، ولا شيء غير ذلك..

ونكرر هنا أننا لم نرد استعراض مسألة الخلافة لنثير بعض كوامن النفوس بل لنؤكد أنها ما كان ينبغي أن تلقي بظلال سوداء على علاقتنا مع بعضنا، وأنها ينبغي أن لا تكون دافعاً لمزيد من الفرقة والخلاف...

كيف ينظر أتباع خط أهل البيت إلى مسألة الخلافة؟

وإذا كان الامام عليه السلام قد سكت عن حقه في الخلافة للأسباب التي بيَّنها في بعض كلماته وخطبه... فان سكوته عن معاوية يعني أنه تخلىٰ عن

(١) العقد الفريد، ص٢٠ ـ ٢٥.

(٢) العقد الفريد، ص٢٠ ـ ٢٥.

(٣) العقد الفريد، ص٢٠ ـ ٢٥.

(٤) العقد الفريد، ص٢٠ ـ ٢٥.

الاسلام نهائياً وترك الساحة لمعاوية. . وهذا ما لم يكن ليفعله بأي حالٍ من الأحوال. . .

أما كيف ينظر المسلمون الى المسألة، وخصوصاً (الشيعة الجعفرية الامامية)، ـ وهم غير العديد من (الفرق) التي نسبت اليهم خطأ ـ وكيف فهموها، وهل نظروا اليها نفس النظرة المبدئية التي نظر بها الامام عليه السلام، وهل وعوها كما وعاها، متأثرين به على الأقل. . .؟ لا بدافع (التقية) التي يهمهم بها البعض على أنها ستار لاخفاء النوايا والمشاعر الحقيقية، وأنها نوع من النفاق الناتج عن مخاوف أو أطماع أو محاذير معينة. . .! كيف نظروا إلى تاريخ هذه المسألة الحساسة من قضايا التاريخ الاسلامي، وكيف تناولوها؟ هل راحوا يتباكون على (الكرسي) الذي اغتصب؟ وهل راحوا يلعنون ويسبون من فعل ذلك كما يدّعى عليهم. . !؟ وهل صمتوا ونسوا هذا الحق في غمرة تسامحهم في هذا الأمر؟ كيف لامرىء أن يعرف حقيقة مواقفهم فلا يشك فيها وفي صدقها. .؟

وهنا آثرت نقل ثلاثة نصوص كاملة لثلاثة مراجع من مراجع الشيعة وزعماء مرموقين مسموعي الكلمة، مطاعين بل و(مقَلَّدين) من قبل جماهير واسعة منهم، لمعرفة رأيهم الواضح فيها.

وأول هؤلاء فهو الامام عبد الحسين شرف الدين الموسوي، كتب رأيه عام ١٣٣٠هـ أي قبل تسعين عاماً في مراجعاته مع سماحة المرحوم الشيخ سليم البشري ـ شيخ الجامع الأزهر ـ في وقت لم يكن فيه الوعي الاسلامي لدى فئات كبيرة من المسلمين قد بلغ ما بلغه اليوم من عمق وشمول. . وكانت المواجهة مع القوى المعادية للاسلام لا تتسم بما تتسم به اليوم من وضوح وتحدٍ، بل كانت (خصومات) المسلمين تنصبّ فيما بينهم على هذه القضية بالذات، وعلى بعض الأمور الجانبية والفرعية الأخرى، والتي جعلوا من الخلاف فيها سبباً للتناحر الشديد فيما بينهم والنيل من بعضهم.

وثاني هؤلاء هو الامام المرحوم الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، فقد جاء رأيه قبل سبعين عاماً ١٣٥٠هـ في كتابه (أصل الشيعة وأصولها) المطبوع في النجف الأشرف.

أما ثالثهم فهو الامام الشهيد محمد باقر الصدر، الذي أوضح رأيه بخصوص هذه المسألة في آخر محاضرة له قبيل استشهاده عام ١٣٩٩هـ، وأمام مجموعة من كبار العلماء في الحوزة العلمية في النجف الأشرف نفسها.

ومن الطبيعي أن هؤلاء المراجع الذين عبّروا بوضوح عن رأي اخوانهم العلماء الآخرين لم يكونوا في وضع يخشون معه التعبير عن آرائهم بصراحة تامة.. وما قالوه لم يكن إلاّ رأي الشيعة بأجمعهم... وهو نفس رأي الامام علي عليه السلام...

وتبني موقف الامام عليه السلام ورأيه، لا بد أنه يمثل الطريق الأسلم والأصح، لحل الاشكالات والخلافات الخاصة بهذه القضية التي يقف فيها الكثيرون مواقف متجنية على الامام نفسه وعلى الآخرين بنفس الوقت، وهو أمر له جذوره وأسبابه المتحدرة من الموقف الأموي المصطنع، والمتشنج والمعادي للامام، والذي يعلن الميل الظاهري لمن سبقه من الخلفاء ـ لا حباً بهم ـ بل من باب الكره للامام.. كما أنها ناتجة عن التصديق بالدور الماكر الذي لعبه معاوية في هذه النقطة الحساسة والوقوع في الفخ الذي نصبه واستدرج الجميع اليه ليسبب العداوة بين الجميع، حتى تنسى قضيته، ولا تعود إلاّ كاحدى القضايا الكثيرة المطروحة على الساحة.. وكأنما كان (نزاعه) مع علي مجرد واحد من النزاعات الأخرى المتكررة التي أثيرت معه عليه السلام.

فلنستمع إلى رأي الامام المغفور له السيد عبد الحسين شرف الدين في

المراجعة٥٢ في ١٥ محرم سنة ١٣٣٠هـ (نحن نؤمن بفضائل أهل السوابق من المهاجرين والأنصار كافة رضي الله عنهم ورضوا عنه، وفضائلهم لا تحصى ولا تستقصى، وحسبهم ما جاء في ذلك من آيات الكتاب وصحاح السنَّة، وقد تدبرناه إذ تتبعناه ـ فما وجدناه ـ كما يعلم الله عزَّ وجل ـ معارضاً لنصوص علي، ولا صالحاً لمعارضة شيء من سائر خصائصه. نعم ينفرد خصومنا برواية أحاديث في الفضائل لم تثبت عندنا، فمعارضتهم إيانا بها مصادرة لا تنتظر من غير مكابر متحكم، إذ لا يسعنا اعتبارها بوجه من الوجوه، مهما كانت معتبرة عند الخصم. ألا ترى أنا لا نعارض خصومنا بما انفردنا بروايته، ولا نحتج عليهم إلاَّ بما جاء من طريقهم، كحديث الغدير ونحوه، على أنَّا تتبعنا ما انفرد به القوم من أحاديث الفضائل فما وجدنا فيه شيئاً من المعارضة، ولا فيه أي دلالة على الخلافة، ولذلك لم يستند اليه ـ في خلافة الخلفاء الثلاثة ـ أحد)[1].

ولنطالع هذه الفقرات للمرجع كاشف الغطاء عليه رحمة الله (ثم لما ارتحل الرسول من هذه الدار الى دار القرار، ورأى جمع من الصحابة أن لا تكون الخلافة لعلي عليه السلام، إما لصغر سنه، أو لأن قريشاً كرهت أن تجتمع النبوة والخلافة لبني هاشم، زعماً منهم أن النبوة والخلافة اليهم، يضعونها حيث شاءوا، أو لأمور أخرى لسنا بصدد البحث عنها، ولكنه باتفاق الفريقين امتنع أولاً عن البيعة ـ بل في صحيح البخاري في باب غزوة خيبر ـ أنه لم يبايع إلاَّ بعد ستة أشهر، وتبعه على ذلك جماعة من عيون أصحابه كالزبير وعمار والمقداد وآخرين.

ثم لما رأى أن تخلفه يوجب فتقاً في الاسلام لا يرتق وكسراً لا يجبر، وكل أحد يعلم أن علياً ما كان يطلب الخلافة رغبة في الأمر ولا حرصاً ع الملك والغلبة والأثرة، وحديثه مع ابن عباس في ذي قار مشهور، وإنما ي

(١) المراجعات، ص ٢١٤ ـ ٢١٥.

تقوية الاسلام وتوسيع نطاقه ومد رواقه وإقامة الحق وإماتة الباطل، وحين رأى أن المتخلفَين، أعني الخليفة الأول والثاني بذلا أقصى الجهد في نشر كلمة التوحيد، وتجهيز الجنود وتوسيع الفتوح، ولم يستأثروا ولم يستبدوا، بايع وسالم وأغضىٰ عما يراه حقاً له، محافظاً على الاسلام أن تصدع وحدته، وتتفرق كلمته، ويعود الناس الى جاهليتهم، وبقي شيعته منضوين تحت جناحه ومستنيرين بمصباحه ولم يكن للشيعة والتشيع يومئذٍ مجال للظهور، لأن الاسلام كان يجري على مناهجه القويمة.

ثم لا يذهبن عنك أنه ليس معنى هذا أنا نريد أن ننكر ما لأولئك الخلفاء من الحسنات وبعض الخدمات للاسلام، التي لا يجحدها إلاّ مكابر، ولسنا بحمد الله من المكابرين ولا سبَّابين ولا شتَّامين بل ممن يشكر الحسنة ويغض عن السيئة ونقول ﴿**تلك أمةٌ قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم**﴾[1]، وحسابهم على الله، فان عفا فبفضله، وإن عاقب فبعدله.

. . . ولكن كبار المسلمين بعد النبي ﷺ تأولوا تلك النصوص (الخاصة بحق علي في الخلافة) نظراً منهم لصالح الاسلام حسب اجتهادهم، فقدموا وأخّروا وقالوا: الأمر يحدث بعده الأمر، وامتنع علي وجماعة من عظماء الصحابة عن البيعة أولاً، ثم رأى امتناعه عن الموافقة والمسالمة ضرر كبير على الاسلام، بل ربما ينهار من أساسه وهو بعد في أول نشوئه وترعرعه. وأنت تعلم أن الاسلام عند أمير المؤمنين عليه السلام من العزة والكرامة والحرص عليه والغيرة بالمقام الذي يضحي له بنفسه، وأنفس ما لديه، وكم قذف بنفسه في لهوات المنايا تضحية للاسلام. وزد على ذلك أنه رأى الرجل الذي تخلف على المسلمين قد نصح للاسلام وصار يبذل جهوده في قوته وإعزازه وبسط رايته على البسيطة. وهذا أقصىٰ ما يتوخاه أمير المؤمنين من الخلافة والإمرة، فمن ذلك كله تابع وبايع حيث رأى أنَّ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤١.

بذلك مصلحة الاسلام وهو على منصبه الإلهي من الامامة وإن سلم لغيره التصرف والرئاسة العامة فإن ذلك المقام مما يمتنع التنازل عنه بحال من الأحوال)[1].

ولنقرأ - أيضاً - هذه الفقرات المطوّلة للشهيد الصدر رضوان الله عليه.. (.. حب الله هو الذي جعل علياً عليه الصلاة والسلام دائماً يقف مواقف الشجاعة، مواقف البطولة، هذه الشجاعة، شجاعة علي عليه السلام ليست شجاعة السباع، ليست شجاعة الأسود وإنما هي شجاعة الايمان وحب الله، لماذا؟ لأن هذه الشجاعة لم تكن فقط شجاعة البراز في ميدان الحرب، بل كانت احياناً شجاعة الرفض، أحياناً شجاعة الصبر. علي بن أبي طالب ضرب المثل الأعلى في شجاعة المبارزة في ميدان الحرب، شدّ حزامه وهو ناهز الستين من عمره الشريف وهجم على الخوارج وحده فقاتل أربعة آلاف انسان. هذه قمة الشجاعة في ميدان المبارزة، لأن حب الله أسكره، فلم يجعله يلتفت أن هؤلاء أربعة آلاف وهو واحد. وضرب قمة الشجاعة في الصبر، في السكوت عن الحق حينما فرض عليه الاسلام أن يصبر عن حقه وهو في قمة شبابه، لم يكن في شيخوخته، وكان في قمة شبابه، كانت حرارة الشباب ملء وجدانه ولكن الاسلام قال له اسكت، اصبر عن حقك حفاظاً على بيضة الدين، ما دام هؤلاء يتحملون حفظ الشعائر الظاهرية للاسلام والدين.. سكت ما دام هؤلاء كانوا يتحفظون على الظواهر والشعائر الظاهرية للاسلام والدين، وكان هذا قمة الشجاعة في الصبر ايضاً. هذه ليست شجاعة الأسود، هذه شجاعة المؤمن الذي أسكره حب الله، وكان قمة الشجاعة في الرفض وفي الاباء حينما طرح عليه ذلك الرجل أن يبايعه على شروط تخالف كتاب الله وسنّة رسوله بعد مقتل الخليفة الثاني، ماذا صنع هذا الرجل العظيم؟ هذا الرجل العظيم الذي كان يحترق

(١) أصل الشيعة وأصولها، ص ٩٠ - ٩١ - ١٠٠ - ١٠٨.

لأن الخلافة ذهبت من يده، يحترق من أجل الله، لا من أجل نفسه، يقول: «ولقد تقمَّصها ابن أبي قحافة وهو يعلم أن محلّي منها محل القطب من الرحىٰ» هذا الرجل الذي كان يحترق لأن الخلافة خرجت من يده. لو أن إنساناً يقرأ هذه العبارة وحدها لقال: ما أكثر شهوة هذا الرجل إلى السلطان وإلى الخلافة، لكن هذا الرجل نفسه، هذا الرجل بذاته عرضت عليه الخلافة، عرضت عليه رئاسة الدنيا فرفضها لا لشيء إلاّ لأنها شرطت بشرط يخالف كتاب الله وسنَّة رسوله، من هنا نعرف أن ذلك الاحتراق لم يكن من أجل ذاته، وإنما كان من اجل الله سبحانه وتعالى. إذاً هذه الشجاعة، شجاعة البراز في يوم البراز وشجاعة الصبر في يوم الصبر، وشجاعة الرفض في يوم الرفض، هذه الشجاعة خلقها في قلب علي حبه لله لا اعتقاده بوجود الله..)[1].

لقد كان الشهيد الصدر يعرب عن آرائه هذه في مجتمع من العلماء الكبار في الحوزة العلمية في النجف الأشرف كما قلنا ـ وكلهم من الشيعة الامامية ـ أي في مجتمع مقفل للشيعة... فكان يقول قوله هذا دون تحفظ ولم يرد منه أن يكون مجرد قول يسمعه الآخرون ثم لا يهتمون به، بل الاقتداء بمواقف الامام عليه السلام في هذا الجانب وفي غيره من الجوانب الأخرى... (اننا ندعي أننا ورثة الأنبياء وورثة الأئمة والأولياء، إننا السائرون على طريق محمد صلى الله عليه وآله وعلي والحسن والحسين عليهم السلام.. ألسنا نحاول أن نعيش شرف هذه النسبة، وهذه النسبة تجعل موقفنا أدق من مواقف الآخرين، لأننا نحن حملة أقوال هؤلاء وأفعال هؤلاء، اعرف الناس بأقوالهم وأعرف الناس بأفعالهم. ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وآله: «اننا معاشر الأنبياء لا نورث ذهباً ولا فضة ولا عقاراً، إنما نورث العلم والحكمة»، ألم يقل علي بن أبي طالب عليه السلام: إن امارتكم هذه أو خلافتكم لا تساوي عندي

(١) المدرسة القرآنية ٢٤٩ ـ ٢٥١.

شيئاً إلاَّ أن أقيم حقاً أو أدحض باطلاً. علي بن أبي طالب عليه السلام كان يعمل لله سبحانه وتعالى، لم يكن يعمل لدنياه، لو كان علي يعمل لدنياه، لكان أشقى الناس وأتعس الناس، لأن علياً حمل دمه على يده منذ طفولته، منذ صباه، يذب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وعن دين الله وعن رسالة الله، لم يتردد لحظة في أن يقدم، لم يكن يحسب للموت حساباً، لم يكن يحسب للحياة حساباً، كان دمه دائماً على يده، كان أطوع الناس لرسول الله في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وكان أطوع الناس لرسول الله بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، كان أكثر الناس عملاً في سبيل الدين ومعاناة من أجل الاسلام..)[1].

ربما توقع كثيرون أن يُقال غير هذا القول، وربما حاول آخرون أن يُقال غير هذا القول. أما لماذا، ولمصلحة من؟ فهذا ما يتكشف لنا أمره الآن بشكل واضح. إنه جزء من مهمات الدوائر التبشرية التي جعلت من عدائها للاسلام وتحطيمه أكبر هدف لها... وطبيعي أن شق وحدة المسلمين وتعميق خلافاتهم وإبراز ما كان مندثراً منها، عامل أساس لانجاز هذه المهمة على الوجه الأكمل، إضافة لما تقوم به من مهمات أخرى، غرضها إبعاد المسلمين عن دينهم بعد أن لم يتسنَّ لها كسبهم الى صفها، وبعد أن لم تنجح باقناع المسلمين لتبني قيمهم الغريبة ومثلهم العليا المشوَّهة.

ولكن إذا لم يرَ المسلم أمامه إلاَّ الله، كما رآه الامام علي عليه السلام، ولم يروا إلاَّ مصلحة هذا الدين وطريقه القويم، وإذا ما اعتمدوا نظرته وطريقه لمعالجة كل حالة حياتية معاصرة والنظر الى كل حادث من حوادث التاريخ الاسلامي وغيره... لا يجد أمامه في هذه الحالة إلاَّ أن يغلب مصلحة الاسلام على مصالحه ونظراته الذاتية التي قد تنحدر به الى نفس الطريق التي انحدرت اليها النفوس التي لم تعرف الاسلام ولم تعيه...!

---

(١) المصدر السابق، ص٢٥٣ ـ ٢٥٤.

وفي هذا دروس بليغة لنا. . . لكي ننظر بانصاف ووعي ودون تحيز إلى كل أمورنا وحياتنا وتاريخنا، ونعالج كل قضايا الاسلام المعاصرة وحوادثه الماضية على أساس مصلحة هذا الدين وهذه الأمة، وإلاَّ كنَّا قد انسقنا وراء ما يريده لنا أعداؤنا من فرقة وخصام، وحققنا كل أهدافه وأمانيه.

* * *

منهج الشيخ (الشرّي).. إيراد الحقائق.. وحوار لا يتبنى مواقف مسبقة..

إيرادات الشيخ (الشري) ومباحثه حول الخلافة والدستور الاسلامي كان لها أثر بالغ على أجيال من الكتَّاب والباحثين امتد إلى يومنا هذا. فعلامَ يناقش المحق بأسلوب المهزوم المغلوب! وكيف يمكن أن نرى جميع المخالفين أصحاب رؤية ونظر مع أن أغلبهم مضللين مخدوعين!؟

كشف الحقائق والحوار الهادىء الرصين الذي لا يتبنى مواقف مسبقة ولا يقف موقف المتعسف من الآخرين وإيراد ما يرويه جميع المسلمين من الفريقين، كفيلة بتعزيز التفاهم بين المسلمين بعيداً عن الهوى والعصبية والتشنج. . . خسارتنا في افتراق الكلمة لا تعادلها إلاَّ خسارتنا في الماضي وفي صدر تاريخنا الاسلامي عندما اصبحنا طوائف وشيعاً وعندما استغلت النزعات التي لم تتبلور بعد لتصبح نزعات اسلامية خالصة، في انحراف غير واضح بنظر الكثيرين، تأكدت نتائجه فيما بعد وفي أقل من نصف قرن وبعده بقليل عندما تسلطت على مقدرات المسلمين فئات قامت كياناتها على محاربة الاسلام.

إن العد التصاعدي في وتائر الانحراف، من انحراف غير ملحوظ في البداية الى انحراف معلن أيام الأمويين والعباسيين كان نتيجة طبيعية لسلب

الخلافة من صاحبها الشرعي المؤهل لحفظ التجربة الاسلامية واغفائها الى آخرين احتفظوا بخزين كبير من التصرفات المتأثرة بالحياة الجاهلية التي عاشوا قسماً كبيراً من أعمارهم فيها.

كيف استسلم المسلمون وهم يرون يزيداً والوليد وأشباههما ونظائرهما على سدة الحكم خلفاء وأمراء للمؤمنين... ؟

لو أن منهجاً دقيقاً في النظر والتدبر تحكم في عقولنا منذ البداية أكنّا سنصل الى ما وصلنا اليه الآن؟ وهل كان المسلمون يتركون بعيداً عن قوى التأثير والنفوذ ليقرروا امرهم بينهم؟

التفاتات الشيخ (الشري) ومعادلاته (الرياضية) الواضحة التي لا تقبل الخطأ، ربما لفتت أنظار العديدين من الباحثين والدارسين الذين طلعوا علينا - بدورهم - بأساليب وتحليلات ومحاكمات جديرة بالتقدير، واستمروا يرفدون المكتبة الاسلامية بكتب وبحوث قيّمة نلمس فيها كل حين شيئاً جديداً.

عملي في تحقيق البحث:

اعتمدت في ضبط نص البحث على طبعة مطبعة الاتحاد في بيروت التي نشرت في ذي الحجة ١٣٦٥هـ، تشرين الثاني ١٩٤٦م، وهي - كما يبدو - الطبعة الوحيدة لهذا البحث القيّم.. وقد حاولت تلافي الأخطاء الطباعية الواردة في تلك الطبعة.

وقمت بتخريج الآيات القرآنية من المصحف الكريم وأشرت إلى شرحها بما يساعد على فهم النصوص والموضوع بشكل عام، كما خرّجت الروايات من المصادر المعتمدة للفريقين. ووثّقت بعض الاحالات والأقوال التي ذكرها المغفور له بالاشارة الى مصادرها وكتبت بعض التعليقات والشروح والاستشهادات التي رأيت انها ضرورية في الهامش. ووضعت

بعض العناوين الاضافية بين قوسين معقوفين [ ] واعتمدت في ذكر مصادر الفريقين على الدراسات الموثَّقة والاستشهادات المستخرجة من قِبَل بعض العلماء والباحثين الثقاة أمثال السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي والفيروز آبادي والشيخ عبد الحسين الاميني النجفي وغيرهم، إذ أنهم بذلوا جهوداً مخلصة عظيمة لجمعها وتصنيفها وتحقيقها.

كما عملت على ايضاح بعض المفاهيم الحديثة التي وردت في البحث بخصوص أنظمة الحكم والدستور وما اليها، متوخياً بذلك جعله مفهوماً من قِبَل الجميع وإبراز الدوافع العظيمة للمؤلف الكبير في توحيد كلمة المسلمين وصفوفهم وحسم نقاشاتهم التي طال عليها الأمد حول أكثر المسائل حساسية وإثارة للجدل بينهم، مع أنها من أكثر المسائل وضوحاً لو نظرنا اليها بعيداً عن التعصب والهوى والأداء والقناعات المسبقة.

سائلاً الله أن يلهمنا الصواب ويسدّد خطانا في طريق الهدى والحق إلى ما يحب ويرضىٰ.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة على محمد وآله الطاهرين.

محمد نعمة السماوي

ديترويت ـ الولايات المتحدة

في الأول من شهر جمادي الثاني ١٤٢٠هـ

الحادي عشر من تشرين الأول ١٩٩٩م

بسم الله وبه نستعين

تمهيـد

لقد حاولت في هذه الصفحات القليلة أن أبحث موضوع الخلافة من الناحية الدستورية الاسلامية، وجهدت أن يأتي البحث علمياً جديد الأسلوب في هذا الموضوع، القديم، وأن يكون نزيهاً، مجرَّداً، ينساق فيه الرأي إلى حيث تسوقه البراهين العلمية المستمدة من طبيعة المبادىء الاسلامية وظروفها الأولى، ومن الوثائق التاريخية التي يصح الاستناد اليها.

وقد أخرجته في أربعة فصول:

١ ـ بعنوان: اشكال الحكومات وأفضلها.

٢ ـ بعنوان: الشكل الحكومي الموافق لطبيعة المبادىء الاسلامية ولظروفها الأولى.

٣ ـ بعنوان: استنطاق النصوص الدستورية الاسلامية العامة في شأن الحكومة الخالفة.

٤ ـ بعنوان: استنطاق النصوص الخاصة في شأن الحكومة الخالفة.

وسيرى القارىء الكريم أني تقيّدت بالمنهاج العلمي في بحثي هذا، وإن كنت لا أدّعي أني وُفّقت فيه كل التوفيق، ولكنه ـ على كل حال ـ بحث اتخذ أسلوباً جديداً، وطابعاً جديداً، رجوت فيه أن يكون نقطة ابتداء لأبحاث يقوم بها غيري، تكون نافعة ومفيدة للناشئة العربية المثقفة، والله ولي التوفيق.



[الفصل الأول]

أشكال الحكومات وأفضلها

[الحكومة الشعبية]

تكون الحكومة شعبية إذا وصلت الى الحكم بانتخاب الشعب واختياره الاجماعي أو الأكثري، فإن وصولها الى الحكم حين يكون انتخابياً ولو بالأكثرية يجعلها حاكمة بوكالة من الشعب، ومأذونة من قبله، أو من قِبَل أكثريته في تدبير شؤونه[1].

---

(١) يشير المؤلف ـ باعتباره يكتب للجميع ـ إلى اتجاهات الحكم السائدة الآن وفي الماضي، مع احتفاظه بقناعاته الشخصية بشأنها، ولا يخفىٰ منطقه الرياضي على القارىء الكريم، الذي يريد به بالتالي اثبات الشكل الأصلح للحكم من وجهة أولئك الذين يحملون تصوراً اسلامياً غير محرّف.

فهو يذكر النمط الشعبي الانتخابي للحكم السائد في دول العالم الأول بعد استبعاد السلطة الزمنية للكنيسة وتأثير الأفكار المعادية للأديان عموماً، وهو النمط المرغوب اكثر من غيره بعد توسع الأنماط التسلطية والدكتاتورية وغير الشعبية في بقية انحاء العالم، وبعد غياب الأديان عن ساحة العمل السياسي إلاّ في نطاق محدود وبعد تحريف العديد من أنظمتها وتعاليمها الأساسية بخصوص الحكم لتكون منسجمة مع مصالح الحكّام.

وإذ أن الشعب أي شعب ينتخب ممثليه بنفسه ليعملوا وفق ضوابط ودساتير أقرّها هو ووافق عليها، فانه دون شك يعتبر أن الحكّومة التي تتشكل من هؤلاء الممثلين حكومة شرعية، مع أنه قد لا يكون موفقاً في كل أو في بعض اختياره.

وبنظر (الديمقراطية الليبرالية)، فان الحاكم هو أمين الشعب الذي هو صاحب السيادة، كما أنه يستطيع استردادها ممن كان أُعطي الحق بممارستها.

والحكومة الشعبية في الغالب ـ وفي النظر المعروف دائماً ـ تكون مقيّدة بهيئة تشريعية أو هيئتين، وتكون قرارات الحكومة غير نافذة إلاَّ بعد موافقة أكثرية الهيئة التشريعية عليها. والهيئة التشريعية تكون منتخبة من الشعب انتخاباً إجماعياً أو أكثرياً.

وهناك شكل خاص من الحكومة الشعبية، يكون فيه الحاكم منتخباً من الشعب، ولكنه مطلق اليد، حر التصرف، وتكون حريته وطلاقة يده بتفويض الشعب إيّاه تفويضاً اختيارياً، كالحكومة النازيّة التي كانت تحكم الشعب الألماني، الذي جعل من (هتلر)، حاكماً فرداً، أولاه ثقته، وفوّض إليه أمره. وحكومة هذا شأنها، تكون حكومة شعبية، وإن كانت في العرف الدولي محرومة من اسم الديمقراطية[1].

= ان اختلاف مناهج وأشكال (الحكومات الشعبية) ينبع من اعتبارات وخصوصيات عديدة، غير أن الديمقراطية ظلّت الادعاء الكبير للأنظمة على اختلاف أنواعها ويعود ذلك إلى أنها ـ كمبدأ ـ تحوي على قدر كبير من المطاطية بحيث تجمع الكثير من المتناقضات وتحاول حل التناقض بين حرية الفرد ومصلحة الجماعة.

(١) لا يخفىٰ أن العام الذي كتب فيه هذا البحث، ١٩٤٦م قد شهد القضاء على الحكم النازي في المانيا بقيادة (هتلر) رغم أن الأفكار النازيّة لم تنته تماماً. وقد ركّزت (الهتلرية) على العرق معتبرة الشعب نفسه هو الأمة، وأنهما معاً يجب النظر اليهما كحقيقة عضوية وليس كمجتمع من كائنات بشرية من نوع واحد فيزيائياً ومعنوياً وينتمون جميعاً إلى عرق واحد.

وتقوم النظرية الهتلرية العرقية على دعائم ثلاث:

١ ـ اعطاء قيمة عظيمة للنخبة الشمالية التي لا تزال ممثلة بالشعب الألماني.

٢ ـ تداخل أعراق سلبية في الشعب الألماني ولكنها أقل قيمة منه.

٣ ـ التخلص من العرق اليهوذي بطرده أو عزله أو حتى ابادته.

والدولة عند هتلر وسيلة وأداة تقنية للادارة، وتضعها النازية في اهتماماتها الثانوية. وتعتبر بأن السلطات جميعها يجب أن تتركز في يد (الفوهرر)، الحاكم المطلق للشعب الألماني. وما التشريع إلاَّ تعبير عن إرادته، وعلى الادارة أن تنصاع لأوامره. وهو القائد العام والأعلى للقوات المسلحة:

«أنت المانيا..»، عبارة قالها «أدولف هس» لِـ«أدولف هتلر».. «وعندما تتصرف فان الأمة هي =

[الحكومة غير الشعبيّة]

وتكون الحكومة غير شعبية، إذا كانت تحكم بغير إرادة الشعب ورضاه؛ إذ يكون الحاكم اجبارياً بالنسبة إلى مجموع ارادة الأمة، فهو حاكم غير منتخب منها بالأكثرية، أو بالاجماع، ولا هو وكيل عنها في تدبير شؤونها.

إن حكومةً كهذه ـ وأسمّيها حكومة الأقليّات، مرّة تكون نتيجة لتغلّب حزب من الشعب، يشكّل أقلّية بالنسبة إلى المجموع، ومثاله الحكومة السوفياتية التي تشكلت بادىء الأمر بقوة الحزب الشيوعي القليل العدد[1].

= التي تتصرف، وعندما تحكم فان الشعب هو الذي يحكم». استطاع «هتلر» أن يطبق أفكاره ونظرياته التي أوردها في «كفاحي»، عندما كان يحقق انتصاراته في البداية قبل أن تحل به الهزيمة بعد ذلك وينتحر.

ولا شك أن التركيز على فرد واحد لأي سبب ومهما كانت امكاناته وكفاءاته، يتم على حساب حرية الرأي وعلى أساس تضليل واسع تقوم به الأجهزة الحكومية والنقابية التابعة لهذا الفرد ونظام حكمه.

(١) لدينا أمثلة عديدة على الحكومات غير الشعبية، رغم ادعاءات بعضها انها حكومات شعبية باعتبارها تعبر عن (أهداف) و(مصالح) الشعب، ورغم رفعها شعارات مضللة عن التفاف الجماهير حولها وحبهم لها، وما الى ذلك. . .

الحكومة السوفيتية التي تضم عدة دول متحدة على أساس الشيوعية الماركسية، انفرط عقدها في مطلع هذا العقد. وتستند الفكرة السياسية الماركسية الى نظرية فلسفية تجمع بين المادية والجدلية وهي الجدلية المادّية. كان ماركس يرى أنه اكتشف أن الحاضر غير المستقر يؤدي الى مستقبل مناقض للحاضر، كما أن الحاضر هو مناقض للماضي.

وترى الماركسية أن جميع العلاقات الاجتماعية ترتكز أصلاً على أسس اقتصادية. وان طريقة الانتاج تحدد النظام الاجتماعي والسياسي وأن أي تبدل في طريقة الانتاج يؤدي الى تبدل في العلاقات الانسانية ذاتها. .

ولا تتم الثورة النهائية إلاّ بانتصار البروليتاريا ـ التي هي أكثر عدداً وبؤساً وفقراً على البرجوازية لتحقق بذلك ديكتاتورية البروليتاريا التي أعلنها (لينين).

ومع أن (طبقة البروليتاريا) هي أكثر عدداً فعلاً إلاّ أنها لا تتبنى بأجمعها المفاهيم الماركسية أو =

وثانية، تكون نتيجة لتغلّب طبقة على طبقة، كطبقة الأشراف، وطبقة الأغنياء الرأسماليين، وتسمى الحكومة (الارستقراطية)[1] أو حكومة النبلاء إن كانت الطبقة الأولى، وإن كانت الثانية سميت بحكومة الرأسماليين أو الحكومة (الاوليغاركية)[2].

= الشيوعية، وإنما تتبناها قلّة منها، وهذه القلة لا تستطيع أن تدّعي أنها تمثل الجميع الذي يتفوق عليها عددياً بمئات المرات. كما أن التطبيق العملي للشيوعية لم يؤد إلاّ إلى إشاعة المزيد من الفقر والفساد. وكانت النتيجة انهيار الصرح الذي شيّدته خلال أكثر من سبعين عاماً في أشهر معدودات.

لا يمكن فهم منطق (لينين) بأنه (لا يوجد تعارض ما بين المبادىء الديمقراطية السوفيتية، ومبدأ السلطات الدكتاتورية التي يتولاها بعض الأفراد)، إلاّ إذا فهمنا المنطق السوفيتي للديمقراطية، واستمعنا الى كلام (لينين) نفسه: (.. إذا كان القيصر، قد تمكن من حكم روسيا، بمائة وثلاثين الفاً من أفراد الطبقة الارستقراطية، فان البلاشفة يمكنهم أن يفعلوا ذلك بمائتين وأربعين الفاً من البلاشفة..) وطبيعي أن هؤلاء ـ حتى بعد أن ازداد عددهم ـ كانوا يدّعون تمثيل الشعب الروسي، بل جميع شعوب الاتحاد السوفياتي في ما بعد.

(١) لا يمكن تحديد أشكال واضحة لأنواع الحكومات غير الشرعية، إذ أنها تتداخل وتمتزج بشكل غريب، فقد يحقق حزب ما نجاحاً ويتسلق أفراد منه قمة السلطة فيستعبدون من آزروهم ووقفوا معهم من ابناء الحزب الآخرين ويركزون السلطات ومراكز القوى بأيدي أقربائهم أو عشيرتهم ويستأثرون بكل شيء ويشكلون طبقة خاصة بيدها المال والنفوذ، وقد يستغلّون حركة ذات شعارات دينية متطرفة للوصول الى السلطة ثم يضربون بتلك الحركة عرض الحائط فلا يقربون إلاّ من يستجيب لهم من زعمائها، فتتكون عند ذلك طبقة ثرية ترأس الحكم بيدها الأموال الطائلة، كما أنها تدّعي الانتماء لأصول مرموقة لتكون بذلك طبقة (نبيلة) ذات دم خاص تفتخر به أمام الآخرين.. وتتداخل أشكال الحكومات القبلية (الرأسمالية) مع تلك التي تدعي النبالة أو التي ترفع ترفع شعارات حزبية براقة مع التي تحمل شعارات دينية مظهرية لتكون خليطاً غير مألوف أو معروف خصوصاً وأن متغيرات الحياة ومستجداتها تجعل المتسلطين على هذه الحكومات يفكرون بأساليب وأشكال غير مألوفة ولا معروفة.. ولعل نماذج الحكومات الشرقية التي عاصرناها وعشنا في ظلها خير مثال على ذلك.

(٢) الاوليغاركية أو الاوليغارشية هي حكم القلة أو الحكومة أو الدولة التي تقوم السلطة الفعلية فيها على أيدي قلة من المجتمع وهي عادة امتداد للحكم الارستقراطي حين يفسد ويدخل مرحلة =

وكثيراً ما تكون نتيجة لتغلّب قبيلة على سواها. وهي إن كانت تستند على مبدأ المجد الموروث دخلت في نطاق حكومة النبلاء، وإن كانت تستند على قوة القبيلة المالية، كانت من الحكومات الرأسمالية.

[نمطان من الحكم]

وثالثة تكون نتيجة لتعيين إلهي، كما لو عيّن النبي خليفة من بعده مستنداً على وحي السماء. وإذا لم يكن مستنداً على الوحي، تكون الحكومة داخلة في القسم الأول من (حكم الأقليات)، إذ يكون التعيين مستنداً إلى مبادىء الحزب الدينية، وإلى تغلب هذا الحزب واستيلائه على السلطة[1].

= الانهيار. ويستخدم هذا التعبير حالياً لوصف الحكومات التي تعتمد على نفوذ اجنبي أو التي ليس لها رصيد جماهيري بحيث تعتمد على دوائر التأثير في السلطة مثل رجال المال أو الصناعة أو التي تعتمد على القوة المسلحة؛ فهي في الأساس حكم قلّة ويختلف ذلك عن حكم الأقلية.

أماالاوليغاركية المالية فهي فئة تضم أكبر المصرفيين والصناعيين الاحتكاريين الذين يسيطرون على اقتصاد وسياسة البلدان الرأسمالية المعاصرة. إنَّ ما يميز عصر الامبريالية هو اندماج رأس المال المصرفي برأس المال الصناعي، وقد ادى تكوين رأس المال الحالي الى تركيز القسم الأعظم من الثروة الاجتماعية في ايدي مجموعة صغيرة من كبار الاحتكاريين. وهكذا، ففي الولايات المتحدة قبل الحرب العالمية الثانية كان ١٪ من السكان يستحوذون على ٥٩٪ من الثروة الوطنية، إن ٨ ـ ٩ مجموعات من الاوليغارشية المالية سيطرت على كامل اقتصاد البلاد مستغلة تشتت الشركات المساهمة، ولكن مع تطور الرأسمالية بدأت الاوليغارشية المالية تتركز بشكل خاص بين اصحاب الشركات المتعددة الجنسيات.

(١) مسألة التعيين الإلهي، التي تتم عن طريق الرسول، مضمونة النتائج، فالرسول لا يمثِّل حزباً دينياً أو فئة من فئات المجتمع، وإنما يمثل الأمة كلها، وله عليها حق الولاية.

إن الآيات القرآنية الدالة على عصمة الرسول ﷺ وتسديده بالعناية الإلهية ينبغي أن تجعلنا لا نلتفت الى التخرصات القائلة بأن تسديده وعدم خطئه إنما هو في أمور الوحي والتبليغ وانه في الأمور العادية مثلنا..

وإذا ما سلمنا جدلاً بذلك، ألا نجد أن الوحي معنيّ بمستقبل الأمة وسعادتها على القرون..

وهل أن مسألة الخلافة مسألة حياتية عادية لا يغير فيها الخطأ ويمكن تلافيه إذا ما حدث فعلاً؟

وهل انها تخص حياة النبي ﷺ وحده؟

وإذا نحن تكلمنا في حكومة (ثيوقراطية) إلهية، فليس يعني ذلك أننا نفرض القول بوجود حكومة من هذا القبيل على القارىء فرضاً.

كلا، فإننا في تقسيماتنا هذه، نحاول أن نذكر الفروض الموجودة، والممكنة والمتصورة، ولا نخصّ بالذكر الأقسام الموجودة فقط.

كما أنه لا ينبغي أن يفهم من ذكر الحكومة الإلهية، أننا نرى في حكم الملوك ـ الذين كانوا يدّعون أنهم يحكمون بحق إلهي ـ مثالاً أو نظيراً لتلك الحكومة؛ فإن دعوى الملوك المذكورة، ودعوى اتباعهم ترجع الى ادعاء غير معقول، إذ تؤوّل إلى أن العظمة الإلهية تؤيد القوة الطاغية، وتحبّذ الجور والاستبداد والظلم، فهي تساعد القوة الطاغية مساعدة تشريعية باعطائها حق الحكم؛ كما تساعدها عملياً، بمساعدتها على ابقاء نفوذها، وفي ذلك ما يدعو إلى الهزء والسخرية ولا يحتاج فهم بطلانه الى برهان[1].

= ان الوضوح الخارق بمسألة استخلاف امير المؤمنين عليه السلام سواء بالدلالة عليه وتزكيته من قِبَل القرآن الكريم، أو بتأكيد ذلك من قِبَل رسول الله ﷺ الذي أشاد به وطلب اتّباعه وأعده إعداداً خاصاً لمهمة الخلافة من بعده وإكمال مسيرته بنفس الأسلوب الذي كان يقوم به، من شأنه أن يتغلب على تخرصات المعارضين والمشككين، لو لم تكن التحالفات ضده قد قامت بين معظم بطون قريش والأحزاب وحرصت على منعه من أداء حقه الطبيعي في الحكم وحرمت بذلك المسلمين من عدالته واستقامته وعلمه.

وسواء كانت الأحزاب ذات طابع تنظيمي، كما هو حال اليوم أو كانت قائمة على تحالفات ومواثيق وعقود مرتبطة بمصالح الأشخاص المتحالفين وأغراضهم، فان تسمية الأحزاب يمكن أن تطلق عليها جميعاً.

فالحزب الأموي على سبيل المثال، لم يكن يطرح أمام الأمة كحزب خاص ببني أمية المعدودين، إلاّ أن هؤلاء بتحالفهم مع أناس رأوا أن مصالحهم تقتضي الوقوف معهم، حققوا لأنفسهم امتيازات خاصة وانفردوا بالحكم واستغلوه لأنفسهم رغم رفعهم شعارات براقة حول (الجماعة) ووحدة الأمة وما إليها..

(١) غالباً ما يحاول الحكام الذين يسمون ملوكاً وخلفاء وأمراء للمؤمنين، الايحاء بأنهم يحكمون بارادة إلهية خاصة وأنهم ظل الله في الأرض وأولياء الأمور الذين تنبغي طاعتهم وعدم الخروج =

ونحن إذا تصورنا حكومة إلهية، وتخيّلنا وجودها، فاننا لن نتصورها أكثر من حكومة تعيّن بمرسوم نبوي، يصدر عن وحي إلهي، وقد لا تصل حكومة كهذه الى الحكم، ولا تتمكن من الاستيلاء على كرسيه، إذ تقوم في وجهها قوى مضادة، تحول بينها وبين الحكم. كما أنّا حين نتخيلها مفروضة، فاننا ننزهها عن كل طغيان واستبداد وعن كل ما لا يمت إلى الفضيلة وإلى طاعة الله واحقاق الحق بسبب، ونتخيلها الحكومة المثالية في عالم تندر فيه المثاليات(١).

= عليهم. وقد روّج لأطروحاتهم فقهاء السوء ووعاظ السلاطين وواضعو الحديث الذين أرسوا عقائد غريبة لا تمت للاسلام بصلة، نسبوها الى رسول الله ﷺ وأصبحت سنة لدى جماهير واسعة من المسلمين.

تقول العقيدة الطحاوية: (.. ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا، وإن جاروا ولا ندعو عليهم ولا ننزع يداً من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل..).

ويقول ابن تيميّة: (.. ثم هم ـ أهل السنّة ـ يرون إقامة الحج والجهاد والجمع والأعياد مع الأمراء، أبراراً كانوا أو فجاراً..).

ويقول ابن قدامة المقدسي: (.. ومن ولي الخلافة واجتمع عليه الناس ورضوا به أو غلبهم بسيفه حتى صار خليفة وسمي امير المؤمنين وجبت طاعته وحرمت مخالفته).

ويقول النسفي: (.. ولا يشترط في الامام أن يكون افضل أهل زمانه ولا ينعزل الامام بالفسق والجور..).

ويقول ابو يعلى: (.. ولا نرى الخروج على أئمتناوولاة أمورنا وإن جاروا ولا ندعو عليهم ولا ننزع يداً من طاعتهم).

وينقل الباقلاني عن جمهور أهل السنّة قولهم: (.. لا ينخلع الامام بفسقه وظلمه بغصب الأموال وضرب الابشار وتناول النفوس المحرمة وتضييع الحقوق وتعطيل الحدود..) راجع الورداني/ السنّة شعب الله المختار. والسماوي/ وتنفس صبح الحسين، والمحامي أحمد يعقوب حسين/ الوجيز في الامامة والولاية. وقد وردت بعض الأحاديث المنسوبة لرسول الله ﷺ كذباً وزوراً، حاشاه منها، إذ لو صحت لكان معنى ذلك أن الرسالات جميعها ومنها الاسلام كانت تمهّد وتعد لحكم الفسقة والظلمة والمنحرفين، وان تضحيات الرسل وأصحابهم كانت من أجل هؤلاء الحكام..!

(١) وإذ ان الحديث في هذا البحث يدور حول الحكومة الاسلامية الأولى، بقيادة الرسول ﷺ فان =

هذا مجمل الأشكال الحكومية الممكنة والمتصورة، وهي ـ كما رأيت ـ كثيرة، لأنَّ كثيراً من هذه الأقسام يتشعّب إلى شعبٍ وفروع.

ـ الشكل الشرعي منها ـ

وإذا حاولنا أن نفهم الشرعي من هذه الأشكال، فعلينا أن نرجع إلى تفهّم الحقوق الطبيعية للانسان. وتفهمها يرشدنا إلى الشكل الشرعي منها.

إن الانسان له حقوقه الطبيعية في الحياة، وهي كثيرة، منها: حقوقه التي ترجع إلى الأسباب الحيوية، كحق الحصول على الطعام والشراب،

= تنزيهنا لهذه الحكومة لا يأتي بدوافع عاطفية محضة، وإنما لأن واقع حالها دلَّ على أنها حكومة نموذجية حقاً استطاعت أن تترجم لغة السماء والتعاليم الإلهية في الواقع الحياتي المعاش، وأن تظل (المثال) الرائع الذي يتطلع اليه المسلمون على اختلاف نزعاتهم ومذاهبهم وتحقق العدالة الاجتماعية على أسس فريدة لا تتاح في أيّ مذهب أو نظام آخر.

ومن الطبيعي أن يتطلّع رسول الله ﷺ إلى حكومة مشابهة لحكومته، ولا شك أنه سيقوم بإعداد رأس هذه الحكومة وتربيته وتأهيله لمهمة قيادة الأمة..

ولا شك أن الدلائل كلها كانت تشير الى امير المؤمنين عليه السلام باعتباره المؤهل الوحيد لهذه المهمة. ولعلَّ من عرفوا ذلك في وقت مبكر سعوا سعيهم لينقضوا قرار الرسول ﷺ الذي أراد أن يعلنه كتابة قُبيل وفاته، فحاولوا التشكيك به ﷺ وزعم بعضهم أنه يهجر، وأكثروا النزاع لديه الأمر الذي دفعه للتخلي عن ذلك بعد أن رأى اصرارهم على إبعاد أمير المؤمنين عليه السلام، حتى وإن كتب فيه كتاباً، فسيظل اتهامهم له بأنه يهجر قائماً.

ان الانحرافات المتعاقبة، غير المنظورة في البداية، والمعلنة في عهد الخليفة الثالث ثم خلال العهد الأموي وما تلاه، وتعاقب انظمة حكم مستترة بلباس الدين وبعض مظاهره الخارجية واعتمادها أساليبَ لا تمت للاسلام بصلة بدعوى الواقعية والدهاء وما أشبه.. أعطت انطباعاً لدى المسلمين بأن حكم رسول الله ﷺ كان ظاهرة خاصة لن تتكرر، ولا بد أن تسير الأمور ـ في عدّ تنازلي ـ نحو الأسوأ، وان من يحاول الحديث عن حكم مشابه لحكم الرسول ﷺ إنما يتحدث عن أمر مثالي لا يمكن أن يحدث على هذه الأرض تحت قيادة أي انسان... وفي وقت ما وصفوا أمير المؤمنين عليه السلام بأنه أقل دهاءً من معاوية باعتبار أنه لا يلجأ إلى الأساليب الملتوية التي كان يلجأ إليها العاهل الأموي، والتي رأوا فيها دلالة على حسن التدبير والسياسة...!

وحقوق الحركة والسكون والمشي والجلوس والنوم، ومنها حقوقه المدنيّة، كحقّه في حريته في أملاكه الخاصة، ومنها حقّه الروحي، كحقّه في حريته في عقيدته. كما أن منها حقوقه السياسية، كحقِّه في سيطرته على نفسه وحقه في توكيل غيره وعدم توكيله في الشؤون العامة، وحقه في إبداء رأيه فيها. وبالجملة إنَّ جميع هذه الحقوق في جملتها ضروب من الحرية، وهي حقوق ثابتة مقدّسة، ما لم تصل الى الاعتداء على حرية الغير[1].

ومن ذلك نفهم أن حكم الانسان لإنسان وحدّه من حريته، وتسلّطه عليه، وإدارته شؤونه العامة، أمر مخالف للحقوق الطبيعية التي هي ثابتة لكل فرد. ولن يصح ذلك إلاّ بإذن من مالك تلك الحقوق، وتوكيله إياه في إدارة شؤونه وتسليطه إيّاه على نفسه ومصالحه وأحواله وحقوقه، أو بإذن خالق ذلك المالك وتسليطه إياه على شؤون مملوكه وحقوقه.

وإذاً، فالحكومة الشرعية، هي التي تكون حائزة على إذن الأفراد وتوكيلهم. (وهذه هي الحكومة الشعبية الانتخابية)، أو على اذن خالق الأفراد وموجدهم وواهبهم تلك الحقوق الذي له أن يحدّ من حريتهم، وله أن يسلّط عليهم، لمصلحتهم، من يشاء من الصالحين من عباده.

وبالطبع لن يقول بإمكان وجود حكومة كهذه، إلاّ مَن يقول بوجود

(١) أقرّت هذه الحقوق من قبل جميع دول العالم، وما من دولة لا تتبجح بأنها لا ترعى هذه الحقوق، وما من دولة امتنعت من التوقيع عليها منذ اليوم الأول لاعلانها في الأمم المتحدة إلاّ أن انتهاكها يتم عملياً في مختلف هذه الدول بمختلف الذرائع وبأساليب سرية ومبتكرة فكأنها اتفقت أن تغض النظر عن بعضهاوأن لا يعلن إلاّ ما لا يمكن اخفاؤه.

ومع أن مواطني بعض الدول الغربية على وجه الخصوص يتمتعون ببعض هذه الحريات فعلاً إلاّ أنهم لا يمارسون بقيتها. ويمكن القول إنَّ عدم ممارسة الحريات لم يكن إلاّ في مجال الحياة العامة. . أما في دول العالم الثالث فان حريتك تقف عند حدود (الحرية) المطلقة للحاكم إذ لا يجوز التعرض لها أو مناقشتها بأي شكل من الأشكال. ولعل الحكام استفادوا من الموروثات المحرفة بشأن عدم جواز الخروج عن طاعة السلطان حتى لو جار أو اغتصب أو خان.

العظمة الإلهية، أو يحتمل ذلك، ومن يقول بإمكان النبوّة ونزول الوحي الإلهي التشريعي على الانسان.

ولن نفرض ذلك على القارىء فرضاً، بل نذكره كشكل جائز الوجود، ولو في عالم الفرض والتصوُّر، وإن كان لنا أن نفرض ذلك على القارىء، كباحثين في خلافة إسلامية تأتي بعد التسليم بنبوّة النبي. ولكنّا لن نفعل ذلك، ولن نشترط على القارىء أن يؤمن بذلك، لأنّا لا نكتب للمسلمين وحدهم.

وكل حكومة لا تكون حائزة على وكالة الشعب، ولا على إذن إلهي، تكون معتدية على الحقوق والحريات، متسلطة على ما ليس لها من الشؤون، بالنظر الأولي، **ولكن الظروف الاستثنائية قد تحتم إقامة حكومة من دون الحصول على رضا الشعب، ولا على الإذن الإلهي الخاص، وتكون الحكومة المذكورة خيراً من حكومة شعبية تحل محلها**[1].

وإذا لم يمكن ايجاد حكومة شرعية، يجب أن يتصدىٰ للحكم من يستطيع التصدّي له من باب سدّ الحاجة وبصورة موقتة، كي لا تضيع الحقوق ولا يختلّ الأمن، وتكون الحكومة موقتة غير طبيعية، ووجوب وجودها يكون كفائياً[2].

(١) هذا إذا لم تكن هناك حكومة شرعية.

(٢) وغالباً ما استغلت بعض الفئات أو الأحزاب أو القوات العسكرية حالات الفساد في بلدانها، فقامت بانقلابات بحجة إصلاح الأمور وحفظ الأمن، وأعلنت أنها ستكون حكومات مؤقتة.. غير أنها ما تكاد تمسك بالسلطة حتى تحاول الاحتفاظ بها إلى الأبد، وربما استمرت في حكمها الانتقالي لأكثر من عشرين سنة بحجة عدم وجود الظروف الموضوعية لحكومة دائمية ودستور دائم. وقد تعلن عن انهاء حكمها الموقت وتصدر دستوراً دائماً إلاّ أنها تظل في الحكم بعد أن تمكن لنفسهاوتطور أجهزتها القمعية والبوليسية.

أصلح الحكومات

وإذا أردنا أن نعرف الأصلح من هذه الأشكال الحكومية، فإنّا لا نرى قاعدة كلية مضبوطة يمكن تطبيقها في كل زمان ومكان فيما عدا الحكومة الإلهية بالمعنىٰ المثالي الذي تخيلناه على سبيل الفرض والتصوير.

إنَّ الحكومة الصالحة يجب أن تتوفر فيها شروط أهمها:

١ ـ الإخلاص لمصلحة الشعب.

٢ ـ فهمها لمصالح الشعب ولكيفية الاصلاح ولأحسن الأساليب الممكنة التطبيق.

٣ ـ الحزم في التطبيق.

٤ ـ فهم الظروف والفرص المواتية.

٥ ـ توسيع المجال من الناحية الدستورية لعمل الحكومة، حتىٰ لا تقف القيود حاجزاً في وجهها عن الاصلاح والمضيّ طويلاً في العمل.

وقد تتيسّر حكومة تجمع هذه الشروط، وقد لا تتيسّر، فالبلاد الديمقراطية إذا انتخبت ممثليها بالاجماع ـ وهو ما لا يقع ـ قد لا توفق في انتخابها، إذ يقع اختيارها على من لا يصلح للقيام بهذه المهمَّة، ومن لا تتوفر فيه الشروط المطلوبة. وقد توفق في اختيارها، فتنتخب ذوي الكفاءات الحقيقية. أما إذا كان الانتخاب أكثرياً، وهو ما يقع دائماً، فأولى بأن لا يضمن الانتخاب وصول الأكفاء إلى الحكم. فكثيراً ما تكون مبادىء الأقلّية أصلح للبلاد ـ التي لا تعتنق تلك المبادىء جهلاً ـ من مبادىء الأكثرية، وكثيراً ما تضمّ الأقلية، حكماء الأمة ونوابغها ومخلصيها، وإن حكيماً واحداً لخير من ألوف السفهاء وأنصاف المجانين، ومخلصاً واحداً خير من (ملايين) من غير المخلصين.

[الضمانة الوحيدة في الحكومة الإلهية]

والحكومة غير الشعبية وغير الإلهية من هذه الناحية كالشعبية في أنها قد تجمع الشروط المطلوبة وقد لا تجمعها. أما الحكومة الإلهيَّة فهي مضمونة الصلاح لو أمكن وجودها. فإن العظمة الإلهية العليمة بالغيوب والعواقب لن تختار غير الأكفاء الصالحين للحكم. وهذه قضية صحيحة يؤمن بها كل فرد من المفكرين، حتى أن من لا يؤمن بالعظمة الإلهية ووجودها يؤمن بهذه القضية وهي:

(أنه لو كان هناك إله، للزم أن يكون حكيماً عليماً بالعواقب، وإذا اختار بشراً للحكم، فلا بد أن يكون اختياره حكيماً وموفقاً)[1].

---

(١) ان هذا الافتراض، إذا ما كان مجرد افتراض لمن لا يؤمنون بالحكمة الإلهية وعدالتها، فانه في نظر المؤمنين بالله والمسلمين على وجه الخصوص، عقيدة ثابتة تمثّل أساس رؤيتهم الكونية ونظرتهم لله ـ سبحانه ـ والحياة عموماً.

ومن هذا المفهوم الذي يشكّل حقيقة في أذهانهم، فانهم يقرّون ـ دون تحفظ ـ بالحكمة والعلم الالهيين وسداد النظرة الإلهية المدبّرة العليمة بالعواقب والمستقبل، ويسلمون بكل ما تريده يد القدرة الإلهية القوية الحكيمة.

ولو أن الاسلام سلم من المحرّفين والمزوّرين والمؤولين وذوي النظرات الأرضية المحدودة، وانطلق الاسلام دون العقبات التي وضعها هؤلاء في طريقه كما هو معلوم، ولو أن الأوامر الإلهية نُفذت كما أريد لها، لوجدنا حقيقة الحكمة الإلهية الحكيمة..

إذ ليس من المعقول أن الله يريد أن يختم خاتم الديانات بأنماط الحكم المنحرفة التي عاشها المسلمون طوال القرون الماضية، ويسلم رسالة خاتم الرسالة للفسقة والجهلة، لو لم تتحد القوى الشرّيرة التي التفت حول هؤلاء للقضاء على الاسلام وإن كانت الذرائع والمظاهر اسلامية، فقد وجدوا على مرّ الأيام من يضع لهم الأحاديث الكاذبة ويفسّر لهم القرآن كما يشاءون.

الحكومة الإلهية الفاضلة المضمونة الصلاح، ما كان لها أن تعيش تلك الفترة القصيرة في عهد رسول الله ﷺ، لو أن العمر امتدّ بها على يد خليفته الحقيقي ووصيه، ولو أن المسلمين عاشوا

ومن جميع ما ذكرنا يفهم: انَّ أفضل الحكومات الممكنة، ولو على سبيل الفرض والتصوير، انما هي الحكومة الإلهية، فإنها الحكومة الوحيدة التي يكون صلاحها مضموناً، لا شك فيه، وأما سواها من الحكومات فليس فيها أي ضمانة، لذلك حتى في أرقى الأمم. وإذا وجدت حكومة صالحة ـ وكثيراً ما يوجد ذلك في البلاد الراقية ـ فلن يكون ذلك مطرداً ولا محتوماً.

إنَّ الحكومات المستبدة المغتصبة لحريات النَّاس ـ سواء في ذلك الارستقراطية منها والاوليغاركية والفردية، وكل حكومة تكون نتيجة لطغيان أقليَّة على أكثرية ـ لن توصل البلاد في الغالب إلى أمانيها المشروعة ومصالحها التقدمية. وإن وجد في التاريخ الصالح من هذه الأنواع، فهو ضئيل بالنسبة إلى الجائر غير الصالح.

والحكومات الشعبية كالحكومات المستبدة ايضاً في هذه الناحية؛ فان الحكام المنتخبين قد يسيرون على غير المنهج الذي يريده ناخبوهم، فيكون بقاؤهم في الحكم مدة بقاء المجلس تجربة مضرّة، وعدم اسقاط المجلس يكون نتيجة لعدم رقيّ البلاد، وإهمال حقوقها، وعدم حزمها في مطالبتها. وقد يسير ممثِّلو الأمة على المنهاج الذي تريده الأمة لنفسها، ولكن ذلك يكون ضرراً على الأمة، لأن الأمة مخطئة في منهاجها، ضالة في تفكيرها، كما نشاهده في بلاد تتعلق الى حد التفاني، برجال لا يصلحون لإدارة شؤون البلاد ولا لتمثيلها، وفي كل مرة تعيد انتخابهم، ويعيدون هم في كل مرة تمثيل فصول الرواية التي اعتادوا أن يقوموا بتمثيلها[١].

= الفترتين معاً لكانوا قد فهموا التجربة الاسلامية على حقيقتها ولم يعد بالامكان جعلهم يتنازلون عنها.

(١) وفي عصرنا الحديث رأينا أمثلة عديدة على حكام رفعوا شعارات برّاقة وضللوا شعوبهم من خلال أجهزة إعلام متخصصة، ولم تدرك تلك الشعوب، بل وحتى الفئات التي خدمت أولئك الحكام باخلاص، خطأها، إلاّ بعد أن حلّ الدمار بها.

وإذن فلن تكون هنالك ضمانة لمصالح البلاد في غير حكومة تختارها العظمة الإلهية لو كان ممكناً وجود هذا النوع من الحكم، أما إذا لم يكن مثل هذا النوع من الحكم ممكناً، فلا بد من اللجوء إلى غيره من أساليب وأنواع الحكم. وذلك يختلف حسب الظروف والأزمنة والأمكنة؛ فالبلاد الراقية بالطبع يكون خيراً لها أن تصل الى حكم ديمقراطي يمثّل ارادتها الحرة وتفكيرها الصحيح.

أما البلاد التي لم تصل إلى هذا الحد من الرقي، فلن تصلحها الديمقراطية، ولا حكم الأقليّات إلاّ عن طريق الصدف والاتفاقات. أجل: ليس في أي نوع من أنواع الحكم ضمانة لصلاحها. ولكن قد تقضي الصدف أن توفق البلاد الى انتخاب حكومة صالحة مخلصة، كما قد يتفق أن يستحوذ على الحكم فرد أو طبقة أو أقلّية، ويكون المستحوذ، رجل الحكم، إخلاصاً وتفكيراً وحزماً ونزاهةً. فالقضية إذاً تكون موكولة للصدف والاتفاقات، لا مضمونة[1].

(وإذا اتفق) أن وصلت أقلية إلى الحكم، لها مبادِئُها واصلاحاتها ومناهجها، ووفقت إلى حكم البلاد، ولو عن طريق القوة والعنف، ابتداءً، وكانت البلاد لا تزال غير مخلصة للمبادىء الصالحة الجديدة، أو غير مستقرة التفكير من هذه الناحية، فعلى الحاكم صاحب المبادىء، أن لا يفارق الحكم، إلاّ بعد تسليم مقاليد الحكم إلى من يعرف فيه الكفاءة ضمانة لنجاح مبادئه، ولسير الشعب على منهاجها.

---

(١) فالمجتمعات التي تعاني من الظلم وتعيش نتائجه لا يمكن أن تتخلص بسهولة من الآثار العميقة للظلم الطويل، ولا يمكن ايجاد صيغة واحدة للتعامل مع جميع هذه المجتمعات، خصوصاً وأنها لا تزال تستهدف بأنواع أخرى من الظلم من قبل جهات متمرسة فيه. والغريب أن اكثر الأنظمة التي تمارس (الديمقراطية) مع شعوبها، لا تجد بأساً من الحاق الظلم والحيف بالشعوب الأخرى ومساندة حكامها الظالمين.

[الفصل الثاني]

الشكل الحكومي الموافق لطبيعة المبادىء الاسلامية ولظروفها الأولى

[الاسلام.. نمط خاص في الحكم والحياة]

لقد كان من الممكن أن يكون الحكم بعد النبي ﷺ (ديمقراطياً) شعبياً، كما أمكن أن يكون حكماً أقليّاً؛ طبقيّاً دينياً، أو طبقيّاً أُسَريّاً قبليّاً، وكذلك كان يمكن أن يكون فردياً تعينيّاً مستنداً إلى تعيين النبي ﷺ؛ الى ما سوى ذلك من فروض كان ممكناً أن تكون[1].

(١) أورد المؤلف هذه الاحتمالات التي كانت واردة فعلاً. فالدلائل العديدة والزخم الكبير من الأحاديث والروايات كانت تدل على تعيين أمير المؤمنين عليه السلام وصياً، وقد ذهب الأمر برسول الله ﷺ ـ بعدما رأى حرص بعض الصحابة على أن لا يتم هذا الأمر ـ أن أمر قبيل وفاته أن يقربوا لكي يكتب كتاباً لن يضلوا بعده أبداً، وهو الأمر الذي أعلموا به فاقتحموا حجرة الرسول ﷺ ومنعوه من ذلك بحجة أنه (يهجر) ولا يعرف معنى ما يقول، مع أن أحداً من المسلمين لم يقل ذلك عن الأولين عندما أوصيا عند وفاتهما ﷺ، رغم إن آلامهما كانت شديدة الى حد اصابتهما بالاغماء..

أما الاحتمال الأول: أي قيام حكم ديمقراطي شعبي فكان جائزاً لو أن الرسول ﷺ لم يعد الأمة لاستقبال علي عليه السلام خليفة من بعده ولو لم يشد به ويعينه وصياً وإماماً وولياً للمسلمين. ملابسات التصدي للأمر الإلهي بترك جيش اسامة واقتحام غرفة الرسول ﷺ وامتلاء المدينة بالأعراب والموالين للأحزاب والبطون القرشية وترك النبي ﷺ مع عائلته لتقوم بأمر تكفينه ودفنه والذهاب الى سقيفة بني ساعدة والمظاهر الاحتفالية التي رافقت ذلك لاستلاب الخلافة =

ولكن الاسلام دين له مبادئه التعبدية الدينية المحضة، ومبادئه الاجتماعية العامة، واستيلاء حكومة شرعية على شؤون البلاد ومقدراتها، يجب أن يكون بالوسائل التي تقرّها المبادىء المذكورة وتبررها، أو على الأقل، لا تتنافى معها.

إن الاسلام حين يكون ديناً دولياً واجتماعياً ذا مبادىء، سينظر الى الحكومة والدولة بعين مبادئه، ويقدّرها بميزانه الخاص. فربّ حكومة تكون شرعية إذا نظر اليها من الناحية الشعبية ـ أي من ناحية تمثيلها للشعب بما هو شعب اجتماعي وحسب، لا بما هو شعب متديِّن بدين خاص ـ وغير شرعية إذا نظر اليها كحكومة إسلامية تمثّل ذلك الشعب وتحكمه بمبادئه الاسلامية، لأن تلك الحكومة لا تحكمه على وفق تلك المبادىء. فالشعب المسلم قد ينتخب حكومة له بما هو شعب، لا بما هو شعب مسلم، ويرخص لتلك الحكومة أن تحكمه بقوانين سويسرا الحقوقية، وقوانين ايطاليا الجزائية، وتكون حكومته حكومة شرعية، بالرغم من أن الشعب شعب مسلم، ولكن هذه الحكومة نفسها لا تكون شرعية، لو كانت تحكم هذا الشعب بتلك القوانين الأجنبية بما هو مسلم، لا بما هو شعب فقط، وإذن فللمبادىء جهة نظر خاصة، وهي تنظر الى الشيء من الناحية التي توافقها فقط[1].

= بالقوة ومحاصرة بيت أمير المؤمنين عليه السلام وفيه الزهراء والحسنان وبعض الصحابة ومحاولة اجبارهم على المبايعة ومحاولة حرق البيت والتجاوز على الصدّيقة الطاهرة بظلمها.

هذه الأحداث المتتابعة والتي أعد لها بعناية لا تتيح لنا القول إنَّ المسلمين اختاروا لأنفسهم وأن هذه كانت رغبتهم الحقيقية، والواقع أنهم فوجئوا (بالأمر الواقع) الجديد الذي كان الرسول ﷺ يمهّد لغيره ضماناً لاستمرار الاسلام ورسوخه. تقادم الأيام والتجاوزات المستمرة بعد ذلك جعل الكثيرين من المسلمين يرون أن ما حدث عند وفاة الرسول ﷺ وبعدها أمر عادي لا يُقاس بالانحرافات الجسيمة المعلَنة التي حدثت بعد ذلك.

(١) فالمؤلف يفترض هنا أن الشعب إذا ما قام لأي سبب بانتخاب حكومته وممثّليه، فان حكمهم وتمثيلهم سيكون شرعياً بنظره ما دام هو الذي أراد ذلك.. مع أن الاسلام يريد له أن يحكم =

إن الدين الاسلامي لن ينظر بعين الرضا إلى حكومة تغتصب إرادة الشعب وتستولي على مقدراته بغير رضاه. فان من مبادىء الدين الاسلامي (ان الناس مسلّطون على أموالهم)[1]، وإن كل انسان كفء لغيره، له حريته وكرامته الأدبية، وانسانيته المقدسة، فلن يجوز هجاؤه ولا اغتيابه ولا ايذاؤه، حفظاً لكرامته وحريته، ولذلك لن يجوز أن تغتصب إرادة الشعب، وأن ينتزي فرد على أمة، ويسخر برغبات الناس، ويعتدي على حرياتهم، ويطأ أعناقهم جبراً وعتواً.

وإذن فستكون حكومة كهذه في نظر الدين الاسلامي حكومة غير شرعية، وأحرى به أن لا يراها حكومة شرعية إذا كانت تخالف صريح الكتاب ونصوص السنَّة في حكمها وإدارتها، فانها حكومة يجب في نظر الدين الاسلامي جهادها وإزالتها عن كرسيّها، ولن يتفق وجوب جهادها مع اعتبارها حكومة شرعية.

كما أن الاسلام لا يجوّز أن تكون العوامل المساعدة على الوصول الى الحكم راجعة إلى ناحية طبقية أو أسريّة سلالية؛ فإن من أعظم المبادىء الاسلامية مبدأ المساواة والتكافؤ بين الناس، فاذا كان الواجب يقضي بأن يكون الخليفة من أفضل الناس أو أفضلهم وأكرمهم عند الله، فليس أكرم المسلمين عند الله أقواهم ولا أغناهم، ولا من كان من ذوي الأمجاد

= بحكمه. ولو أن حاكماً جاء بالقوة وادَّعى أنه يمثّل الاسلام ويحكم بحكمه وأنه ظلّ الله على الأرض، وسار في الناس سيرة منحرفة تخالف أحكام الاسلام ومبادئه، فانه سيكون مرفوضاً من قِبَل الشعب مهما كانت المظاهر الشكلية للحكم برَّاقة القشور.

(١) قاعدة لا تصدق على الأموال والدخول التي تحصل عن طريق الاغتصاب والاستغلال وبخس أشياء الناس والاحتكار. وتصل الى أكياس الممتلكين بأدنى سعي أو بدونه، فهنا لا تعتبر أموالهم حتى يكونون مسلَّطين عليها.

فالسلطنة الثابتة شرعاً على المال انما هي على المال المشروع. والمؤلف ـ دون شك ـ يقصد بالأموال، الأموال المشروعة المكتسبة بالجد والسعي والبعيدة عن قنوات الكسب الحرام.

الموروثة، بل أكرمهم عند الله أتقاهم[1].

وقد أعلن الاسلام على كل امتياز سلالي حرباً لا هوادة فيها، وشدّد النكير على كل عصبية قبلية وتفوق أُسَري أو طبقي بحجة أن الناس خلقوا من أصل واحد:

﴿يا أيّها الناس إنّا خلقناكم مّن ذكرٍ وأنثى..﴾[2].

ولم تتطور الفروع تطوراً يخرجها عن وحدتها النوعية الحقيقية. فإذا كان فضل الانسان وكرامته الأدبية، انما هما من أجل انسانيته، فلن يفضل أحد على أحد من هذه الناحية لاشتراك الجميع في الانسانية وعدم التفاوت الحقيقي الدموي بين الأفراد ولا بين الطبقات

«.. يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظّمها

---

(١) رغم وضوح الأهداف والمبادىء بهذا الخصوص ـ كما أوضحنا في المقدمة ـ فاننا رأينا من تسلط على الأمة بالقوة والاكراه وعاملها بقسوة متناهية معتمداً قانون الشبهة والظن الغريب عن الاسلام...

وكانت الوقفة الباسلة لأبي عبدالله الحسين عليه السلام في كربلاء ضد جيوش الانحراف الكبيرة، رغم قلة العدد وخذلان الناصر، تدلل على أن التصدي لمثل هذه الحكومات غير الشرعية مثل حكومة يزيد واجب كبير وأن الجهاد لازالتها في مقدمة الأولويات المطلوبة.. ولو أدى الأمر الى الاستشهاد، وهو ما كان عليه السلام على علم أكيد به...

ومن الطبيعي أن تعرض حكومات الظلم مناوئيها ومعارضيها كفئات خارجة عن الاسلام أو الجماعة وأنها تريد تحقيق مكاسب خاصة وما إلى ذلك من تلفيقات وأكاذيب... وظلت سلاسل الحكام تورث سلطاتها الأنباء والأحفاد، وظلت الأمة المغلوبة ضحية ذلك الى يومنا هذا..

ومن العجيب أن بعض الكتّاب الاسلاميين المعاصرين ما زالوا يشيدون بتلك السلالات المتسلطة ويبررون أعمالها وتصرفاتها لا لشيء إلاّ لأن أسلافهم كانوا يسيرون في ركابها، وقد اكتسب سلوك (السلف الصالح) ـ جملة وتفصيلاً ـ قداسة بنظرهم، حتى انهم يرون أن من العيب ـ بل من الكفر ـ مناقشتهم وإعادة النظر بمواقفهم.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٤.

بالآباء. أبوكم آدم، وآدم من تراب..»[1].

وإذن فيجب أن يكون مقياس المفاضلة بين الناس، ما هو خارج عن تلك الجهة التكوينية. وقد جاءت المبادىء الاسلامية تعلن ذلك المقياس:

﴿.. إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم..﴾[2].

وإذن فلن تعترف المبادىء الاسلامية بحكومة تستند في استيلائها على الحكم إلى أنها طبقية، أو أنها من الأقليات المفضلة، ككونها من طبقة الصحابة أو من قريش، أو من شجرة النبي ﷺ، ما لم تكن منتخبة من الشعب، حائزة على إذنه ووكالته (في الحالات الطبيعية)، أو معيّنة بمرسوم يصدره النبي ﷺ ومن هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم (في الظروف الاستثنائية).

ولا تحسبن ما جاء مأثوراً عن النبي ﷺ مما يفيد حصر الخلافة في قريش، حجة على أن حكومة الخلافة حكومة طبقية أو قبلية، فانك ستعرف في الفصل الرابع، وفي استنطاقنا بعض الآيات الكتابية، أن من العناوين ما هو معرّف مشير الى الموضوع، يقصد به مجرد الاشارة اليه، دون التعرّض إلى تعليل الحكم وذكر حيثياته التي صدر من أجلها، والعنوان المذكور

---

(١) من قول لرسول الله ﷺ يوم فتح مكة ونصّه: (... إن الله قد أذهب عنكم بالاسلام نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها. ان العربية ليست باب والد، وانما هو لسان الحق، فمن تكلم به فهو عربي. إلاّ أنكم من آدم، وآدم من التراب وإن أكرمكم عند الله اتقاكم). تفسير الصافي/ الفيض الكاشاني، ص٥٤، منشورات مكتبة الصدر/ قم ١٤١٥هـ ط١، ج٥.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٤. ينقل (الفيض الكاشاني) في (الصافي) عن (القمي) قوله ان الشعوب العجم والقبائل العرب. وفي (المجمع) عن الصادق عليه السلام (لتعارفوا) ليعرف بعضكم بعضاً، لا للتفاخر بالآباء والقبائل. ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾، فان بالتقوى تكمل النفوس وتتفاضل الأشخاص، فمن أراد شرفاً فليلتمس منها، وهو رد على من يفتخر بالأحساب والأنساب.

ـ القرشية ـ من هذا القبيل، قصد به التعريف عن موضوع الحكم لا تعليله؛ وبيان حيثياته(١).

بقي علينا أن نعرف ما إذا كان يمكن أن تكون حكومة الخلافة بعد النبي (ديمقراطية) انتخابية شعبية، وإذا أردنا معرفة ذلك فعلينا أن نفهم طبيعة المبادىء الاسلامية، وأن نفهم الظروف التي كانت تحيط بالمبادىء الجديدة، والناس حديثو عهد بها، وإذا أردنا أن نفهم ذلك، فعلينا أن نعرف ما يلي:

إن المبادىء العالمية التي تتمشى عليها الحكومات كثيراً ما تكون واسعة، يتسع صدرها لغيرها من المبادىء؛ فهي تخول كثيراً من المبادىء

(١) يشير إلى الأحاديث الواردة في بعض الصحاح والمنسوبة إلى الرسول ﷺ ومنها: «.. لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي من الناس اثنان..».

«إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة... كلهم من قريش».

«لا يزال الاسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة.. كلهم من قريش».

«لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش..».

وذكر أن أبا بكر وعمر احتجّا بأمثال هذه الأحاديث على الأنصار يوم السقيفة، وعدها علماء أهل السنَّة من مسائل الاجماع. وهذا مخالف لحديث آخر روي في صحاح أهل السنة مفاده أن الخلافة بعد رسول الله ﷺ ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً. (راجع صحيح مسلم بشرح النووي ص١٩٩ وما بعدها)... وقد حاول بعض علماء السنَّة تفسير هذا الحديث بطرق تلفيقية متنوعة بغية صرف الأنظار عن الخلفاء الحقيقيين وهم الأئمة الاثنا عشر ﷺ والذي لا يزال آخرهم الحجة المهدي من آل محمد ﷺ ينتظر اليوم الذي سيظهر فيه لكي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً.

وقد سخر أمير المؤمنين ﷺ عندما أخبر بأن قريشاً احتجت يوم السقيفة بأنها شجرة الرسول ﷺ، مشيرين إلى هذه الأحاديث، وقال لمن نقل اليه أنباء السقيفة بعد وفاة الرسول ﷺ: «احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة» ويريد بها آل بيت الرسول ﷺ.

ولو أن من نظر إلى هذه الأاديث بعين مجردة من الهوى والتعصب لم يجد على الأقل تعارضاً بين ما ورد فيها وما ورد حول خلافة أمير المؤمنين وأولاده ﷺ، بل لأكدت لهم حقيقة خلافتهم وشرعيتها.. أليسوا هم من قريش في الذروة؟

التي لها مناهجها الخاصة أن تنشأ في ظلها، وتعيش وتنمو. ويمثل هذه المبادىء الواسعة في عصرنا المبادىء (الديمقراطية) التي تتمشى عليها الولايات المتحدة الامريكية، و(بريطانيا) فانها مبادىء تحتم أن يتبع رأي الأكثرية في مرحلة التطبيق العملي، مهما كان رأي الأكثرية، ولا تحتم على هذه الأكثرية أن تعتنق مبدأً خاصاً، بل ترى أن يترك الشعب على هواه من هذه الناحية. فكل مبدأ يصبح اكثرياً يجب على البلاد أن تتمشى عليه في حياتها العملية، وبكلمة أخصر: (مبدؤها حرية المبدأ والعمل التطبيقي على مبدأ الاكثرية).

ولماكانت مبادِئُها كذلك، أمكن أن تعيش في ظلها بقية المبادىء التي لها مناهجها الخاصة وقيودها الاصلاحية التي ترى أنه لا بد منها في اصلاح حالة المجتمع، كالمبادىء الاقتصادية الجديدة التي ترى الاصلاح في تقييد حرية الفرد وامكانياته في سبيل تحصيل الثروة[١].

ومن هذا يعلم أن من المبادىء العالمية ما هو مبدأ خاص ذو قيود يراها ضرورية الوجود في سبيل تحقيق الاصلاح. ومن الطبيعي أن تتنافى تلك القيود المأخوذة مع مبادىء أخرى لها مناهجها العامة أو الخاصة المنافية لتلك القيود في الوجود، ومثاله اليوم المبدأ الشيوعي الذي يتمشى عليه (الاتحاد السّوفياتي)[٢].

(١) يشير المؤلف الى الشكل المظهري المتعارف عليه للأنظمة الديمقراطية من وجهة نظر أغلبية مواطنيها على الأقل ولا يتعرض للجوانب السلبية لهذه الأنظمة والأمراض التي يمكن أن تنشأ فيها، ما دام هذا ليس موضوع بحثه، ولا يبدو من كلامه أنه يحبذها جملةً وتفصيلاً، وإنما يشير إلى قبول المواطنين بها ما داموا يمارسون حقهم في الانتخاب واتخاذ القرارات.

(٢) الذي أصبح اليوم أثراً بعد عين في مطلع العقد الأخير من هذا القرن الأخير من الألفيَّة الثانية، بعد أن لم يستطع النظام الشيوعي أن يستوعب حاجيات الناس ويلبيها، على الرغم من مظاهر الشدة التي اتبعها الاتحاد والدول السائرة بمحوره. ان (دكتاتورية البروليتاريا) كانت ستاراً لدعم دكتاتورية قيادات البروليتاريا التي أمسكت الأمور بأيدٍ فولاذية وفرضت قيوداً كبيرة على الناس =

انَّ هذا المبدأ يرى اصلاح الحالة الاجتماعية في أن يقف موقفاً سلبياً من ثروة الأفراد، بل يقوم في جوهره على ذلك:

وهو في نشأته مبدأ أقلية من الشعب، حاولت وتريد دائماً أن يكون مبدؤها مفروضاً على البلاد، مطبقاً على الأقلية والأكثرية. ولما كان هذا شأنه، كان من واجبه أن يمنع غيره من المبادىء ويحرمها، فانَّ في اباحته إيّاها خطراً عليه، بل اباحتها تتضمن العمل على هدم الشيوعية، إذ إباحتها تقضي بامكان نموها واتساعها، حتى تصبح رأي الأكثرية، وبذلك تتمكن من إزالة الشيوعيَّة التي تريد أن تبقى مستمرة الحياة والسيطرة، ولذلك كان لا بد لها من تحريم كل مبدأ يتنافى مع بقاء سيطرة الشيوعية ويهدد قوتها بالزوال؛ ولذلك كان لا بد لبقاء الشيوعية من اقامة حكومة فردية تحتم نظامها على الشعب دائماً أو إلى أن تصبح الشيوعية نظاماً طبيعيَّاً موافقاً لمزاج الشعب وخلقه، ولن يكون ذلك إلاَّ بعد أجيال[1]. بل إن طبيعة المبادىء الاصلاحية تقضي بهذا، وإن كانت الحكومة التي تقوم على أسسها انتخابية أكثرية.

فهذه الحكومة النازية التي جاءت الى الحكم بطريقة انتخابية، قد أقامت نظامها على أسس فردية، وسرّ ذلك أنها مبادىء اصلاحية غريبة عن مزاج الشعب، فهي تريد أن تؤمن لنفسها البناء والسيطرة.

= وخصوصاً العمال والفلاحين بطبيعة الحال. ولا يعني فشل الشيوعية نجاح كافة الأنظمة المناوئة أو المغايرة لها. ولعلَّ الأمر لا يعدو فترة أخرى من الزمن تظهر فيه نتائج التناقضات والأمراض الاجتماعية في المجتمعات الأخرى التي لم تعش في ظل الشيوعية..

وإن كان الذي حدث هو العكس من ذلك تماماً، فلم تستطع السلطة السوفيتية الفردية أن تطبق المبادىء الشيوعية، وبرزت طبقات قيادية مقربة من السلطة لها امتيازاتها ومصالحها، وبقيت هذه المبادىء أحلاماً في بعض الرؤوس بعد تفشي الفساد في دول الاتحاد السوفيتي والدول السائرة بمحوره حتى انهارت بطرفة عين. ولا ننفي هنا سعي القوى المناوئة للشيوعية لاسقاطها مستغلةً الثغرات الواسعة في الاتحاد الميت.

[الانقلاب.. وسيلة وصول الحكومة (الثورية) للحكم]

هذا بالنظر الى كيفية الحكم وطبيعته، أما من ناحية وصول الحكومة التي تقوم على أسس المبادىء الثورية الى كرسي الحكم، فمن الطبيعي أن تصل الحكومة الثورية الأولى الى الحكم عن طريق انقلاب مسلح دموي، أو غير دموي.

أما الحكومة الثانية، التي تحل محل الحكومة الثورية الأولى بعد مغادرة هذه كرسيّ الحكم، فينبغي أن تصل الى الحكم عن طريق ارشاد الحكومة الأولى إلى رئيس يساعده إرشادها اليه على الوصول الى الحكم، مساعدة بصورة عملية أو عن طريق تعيينها إياه بمرسوم يجعله نائباً عن رئيس الحكومة الأولى في حال عدم حضوره. ولن يكون من الحكمة ولا من الجائز أن تغادر الحكومة الثورية الأولى كرسي الحكم قبل تأمين رئيس للحكومة الخالفة يقوم بأعباء الحكم بعد زوال الحكومة الأولى ممن يتفانون في خدمة مبادىء الثورة ويصلحون للادارة والتنفيذ بالنظر الى جدارتهم وحزمهم في الأمور، وعلمهم بأحسن الأساليب التطبيقية وقدرتهم الفكرية الخلاّقة الابداعية[1].

إذ لو ترك ذلك لاختيار الشعب لجاز أن يقع الاختيار على من هو غير مخلص أو غير كفؤ، وبذلك تصبح مبادىء الثورة في معرض الخطر، ويكون النظام الجديد مهدداً بالزوال، وكل ذلك لأن مبادىء الثورة لا تزال جديدة غريبة عن مزاج الشعب، فهي غير راسخة في النفوس ولا مستقرة! فما أقرب أن ينقلب الشعب عليها إذا رأى فرصة متوانية في تنفيذ تلك المبادىء،

---

(١) وإن كان من الممكن أن لا يكون الاختيار صحيحاً، فلا يتصف المرشح بالمواصفات المطلوبة، ولعله لم يرشح إلا لكونه مقرباً من رئيس الحكومة الأولى. ولا تعوزنا الأمثلة العديدة في هذا المجال.

ولذلك كان لا بد من تأمين قيام الرئيس المخلص القدير الذي يخلف رئيس الحكومة الأولى، وتأمين قيامه بأعباء الحكم ـ بعد زوال الحكومة الأولى ـ يعد من أعظم الواجبات الملقاة على عاتق هذه الحكومة؛ فإن لم يمكنها تأمين قيامه بعدها بأعباء الحكم تأميناً عملياً، فعليها أن تصدر مرسوماً منادياً باسمه معلناً للأمة رئيسها المنشود، كي لا تتحمل الحكومة مسؤولية الاشتراك مع الأمة في تعريض المبادىء للخطر المؤكد بأحمالها ذلك.

وإن أعظم خيانة للمبادىء أن تترك المبادىء وهي جديدة عرضة للأخطار، غير معلومة المصاير نتيجة لاهمال من هذا النوع.

وغير المبادىء الثورية من المبادىء الاصلاحية ذات القيود الخاصة كالمبادىء الثورية من هذه الناحية؛ فهذه النازية[1] قد أقامت حكومة فردية ممثلة بزعيمها (هتلر)، ولكن هذا حينما اجتاح (بولونيا) وأعلنت الحرب، وأصبحت الدولة النازية سائرة في كفاحها الخطر، لم يكتف بتعيين من يخلفه، بل أصدر مرسوماً بتعيين من خلف له هو (هرمن غورنغ) ورسم من بعد (غورنغ) خلفاً له هو (رودلف هس)، وكل ذلك محافظة منه على بقاء المبادىء النازية التي لم تزل جديدة غير راسخة في نفوس الشعب الألماني رسوخها المطلوب.

وان المبادىء الاسلامية المقدسة هي من المبادىء الخاصة التي لها مناهجها وقيودها الاصلاحية التي لا تتجاوز عنها، وتراها ضرورية محتومة، يتحتم السير عليها، والمبادىء المذكورة تريد لنفسها البقاء، وتفرض العمل على حفظ سيطرتها، ولا تترك للشعب الاختيار في اعتناقها ورفضها بعد اعتناقها، فالدين الاسلامي جملة من مبادىء، منها ما يتعلق بالعقائد

(١) تعتبر النازية نفسها حركة إصلاحية كبيرة، وقد وضعت برامج وخططاً لبناء المانيا وتغيير العالم كما هو واضح في أدبياتها وفي مذكرات قائدها هتلر (كفاحي). .

والعبادات والايقاعات والحدود والمعاملات، ومنها ما يتعلق بالمحافظة على تلك المبادىء والعمل على تقويتها والجهاد في سبيل تثبيتها لتكون خالدة وأسلوباً في الحياة أبدياً، وهذا القسم حصون دفاعية عن القسم الأول، بل قواعد توسع وفتوح، ومجموع القسمين يشكل وحدة خاصة[١] . .

وعلى كلٍ فالدين الاسلامي لا يقدس رأي الأكثرية إلى حد أن يترك لها أمر الفصل في بقائه أو إزالته، بل يحاول أن يفرض نفسه عليها، إذ تحاربه وتحاول إلغاءه[٢].

---

(١) أورد المؤلف الاسلام كمبدأ خاص له مناهجه وقيوده الاصلاحية الخاصة، كما أن للمبادىء الوضعية مناهجها الخاصة. غير أن المبدأ الإلهي المتمثل بالاسلام رغم الحملات المضادة التي شنّت عليه من الخارج والداخل بغية تحريفه أو القضاء عليه ظلّ واضحاً من خلال ثقليه الكبيرين، القرآن الكريم وقادة المسلمين، الرسول الكريم ﷺ وأهل بيت ﷺ . . .
إن رسالة الاسلام التي ترفض الآلهة المزيفة والخضوع لغير الله والشرك ترسي تصورات متكاملة أساسها الايمان المطلق بعظمة الله ووحدانيته وقدرته اللامحدودة وعدالته هنا وفي المعاد ايضاً. وبذلك تلغي التناقض القائم في ذهن الانسان حول العديد من الأمور. .
ولئن هذه الرسالة تجسّدت في صيغة تطبيقية رائعة زمن الرسول ﷺ، فانها تثبت أنها قادرة على القيام ثانية بعيداً عن أيدي الانحراف. وتمتزج في الاسلام صيغتا النظر والتدبّر لتمتزجا بالسلوك العملي اليومي، حيث أنها لم تترك صغيرة أو كبيرة إلاّ ولها حكم شرعي واضح، ويلاحظ فيها قدرتها على قيادة الحياة والتفاعل معها رغم التغيرات المظهرية لهذه الحياة.
إن الانسجام مع المبادىء الاسلامية يأتي من خلال الشعور بالرقابة الإلهية التامة ومن خلال إدراك المسلمين ان هذه المبادىء تستهدف راحتهم وسعادتهم وتحقيق العدالة في مجتمعاتهم والقضاء على التناقضات التي تنشأ في ظل الأنظمة الوضعية المختلفة. .

(٢) ليست كثرة المؤمنين أو قلتهم مقياساً على مصداقية الاسلام الذي أنزل على الرسول الكريم ﷺ مبرءاً من النقص أو العيب مع أن الاسلام يعنى أن يكون الجميع في اطاره وعلى منهجه، فقوى الاستغلال والتسلط تسعى دوماً ـ وغالباً ما تنجح ـ لتضليل الشعوب وخداعها بشعارات برّاقة وأماني كاذبة ولا تتيح لها فرصة المعرفة والنظر لكي تتبين الانحراف من عدمه، وكثيراً ما استغلت بعض مظاهر الدين وما الحق به من تزييف وتزوير للقضاء عليه. ويبدو أن الكثرة تبقى =

فالقسم الثاني لا يتضمن سوى صيانة بقية المبادىء من عبث الأقلية والأكثرية في القسم الأول؛ فالاسلام، كما يأمر بالصلاة، لا يترك المكلفين أحراراً في أن يصلوا أو ينتهكوا حرمة الصلاة بتركها أو طلب الغائها، بل يوجب على المسلمين عقابهم، وإن كانوا هم الأكثرية؛ وكما يأمر بالزكاة يأمر بمحاربة أقلية أوأكثرية تحاول منع الزكاة. وإذا كان يتوعد المرتدين عن دين الاسلام بالعقاب الأخروي، فهو لا يدعهم احراراً من هذه الناحية في الحياة الحاضرة، بل يوجب على الحكومة قتالهم وقتلهم إن كانوا قد ولدوا على دين الاسلام مهما كان عددهم، وإذا كان يترك للكتابيين حريتهم الدينية: ﴿**لا إكراه في الدين، قد تبيّنَ الرشد من الغي**﴾[1] فهو لا يمتع غير الكتابيين بهذه الحرية، بل يكرههم على قبول الاسلام.

ولو أغضينا عن كل ما يتعلق بغير المسلمين، فهو لا يتساهل مع

= على الدوام مضللة ومخدوعة.. ولهذا أشار القرآن الكريم اشارات متنوعة.. نذكر بعضها:
﴿**فمنهم مهتدٍ، وكثير منهم فاسقون**﴾ (الحديد: ٢٦).
﴿**وترى كثيراً منهم يسارعون في الاثم والعدوان**﴾ (المائدة: ٦٢).
﴿**وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً**﴾ (المائدة: ٦٤ ـ ٦٨).
﴿**ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا..**﴾ (المائدة: ٨٠).
﴿**وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم**﴾ (الأنعام: ١١٩).
﴿**وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون**﴾ (يونس: ٩٢).
﴿**وان كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون**﴾ (الروم: ٨).

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦. وهذا النص إما عام منسوخ بقوله تعالى: ﴿**جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم**﴾، وإما خاص بأهل الكتاب إذا أدوا الجزية. أما بالنسبة لمن أسلم فلا خيار بين الردّة أو البقاء على الاسلام. وقد ورد في الردّة تحذيرات وأحكام كثيرة: ﴿**ومن يرتدد منكم عن دينه، فيمت وهو كافر، فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة..**﴾ (البقرة: ٢٧٧). ﴿**ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين**﴾ (المائدة: ٢١). ﴿**ومن يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم..**﴾ (المائدة: ٥٤).

المسلمين إلى حد تخييرهم في البقاء على الاسلام أو تركه، بل يوجب قتالهم على الارتداد والفتنة: ﴿وقاتلوا حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كلّه لله﴾[1]، بل يوجب قتالهم على البغي مهما كان عددهم: ﴿وإن طائفتان من المسلمين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى، فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾[2].

وإذن فقد تبين أن الاسلام دين له مبادؤه التي لا يترك الفصل في أمرها لرأي الأكثرية، فلنْ يترك لها الخيار في البقاء عليه أو تركه، بل يوجب الجهاد والاكراه على ذلك. وهو، من ناحية تحريمه للمبادىء التي تتنافى معه ويهدده نموها بالزوال، أشد من تلك المبادىء الثورية التي ذكرناها في المحافظة على البقاء وعدم السماح بوجود ما يوجب نموه تطرق الوهن إلى كيانه الدولي، إذ أن مبادىء الثورات يمكن تعديلها وتحويرها، أما المبادىء الاسلامية فهي مقدّسة لا يحق لبشر أن يتناولها بتعديل لأنها مبادىء السماء والوحي الإلهي، فإذا كان بقاء المبادىء الثورية يقضي باقامة حكومة فردية،

(١) سورة الأنفال، الآية:٣٩. الفتنة: الشرك أو الكفر، وهي ناسخة لقوله: ﴿كفوا أيديكم﴾ ولقوله ﴿ودع أذاهم﴾. وعن الباقر عليه السلام: (لم يجيء تأويل هذه الآية بعد، ان رسول الله صلى الله عليه وآله رخّص لهم لحاجته وحاجة أصحابه، فلو قد جاء تأويلها لم يقبل منهم ولكنهم يقتلون حتى يوحّد الله وحتى لا يكون شرك). وهكذا ورد قوله تعالى: ﴿إن الدين عند الله الاسلام﴾ (آل عمران:١٩)، وهو التوحيد والتدرع بالشرع الذي جاء به محمد صلى الله عليه وآله وفي الكافي عن الصادق عليه السلام: ان الاسلام قبل الايمان وعليه يتوارثون ويتناكحون والايمان عليه يثابون. فالاسلام يمثل الشريعة العملية المطلوبة في الحياة، وقد نهت الشريعة الاسلامية عن الشرك والكفر والردّة وفرضت أقصى العقوبات بحق المرتدين عن الاسلام.

(٢) سورة الحجرات، الآية:٩. عن الصادق عن أبيه عليه السلام قال: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ان منكم من يقاتل بعدي على التأويل كما قاتلت على التنزيل، فسئل من هو؟ قال: خاصف النعل، يعني أمير المؤمنين عليه السلام فقال عمار بن ياسر: قاتلت بهذه الراية مع رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاثاً وهذه الرابعة، والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا السعفات من هجر لعلمنا أنا على الحق وأنهم على الباطل.

فالدين الاسلامي أولى بأن يوجب ذلك بالنظر الى كيفية الحكم.

وإذا كانت تلك المبادىء الثورية قضت بأن لا تغادر حكوماتها الثورية كرسي الحكم إلاّ بعد تعيين رئيس الحكومة الخالفة، فالاسلام أولى وأولى بذلك. فقد علمت أن مبادىء الاسلام بمقتضى طبيعتها تقضي بعدم ترك الأمور إلى آراء الأكثرية، بل تقضي لنفسها بالبقاء والخلود، رضيت الأكثرية أم أبت، ونتيجة ذلك وجوب اتباع الحكومة النبوية أسلوب التعيين في ايصال الخليفة الى الحكم.

[النبي ﷺ يعيّن خليفته.. لا يمكن ترك الأمة بمواجهة الأخطار والفتن.. لا بد من حفظ التجربة]

وهذا ما تقضي به ظروف مبادىء الاسلام، فإن الظروف التي كانت تحيط بالاسلام، وهو جديد أشد من ظروف المبادىء الثورية المذكورة حين مغادرة حكوماتها الأولى كرسي الحكم. فإن كل من قرأ تاريخ البلاد العربية في ذلك العصر، يعرف الفوضى التي كانت تهدد البلاد والمبادىء الجديدة، فقد عرف العالم أن (مسيلمة الكذاب) و(الأسود العنسي) ظهرا والنبي ﷺ لا يزال حياً، والقبائل العربية كانت في أكثريتها قد أسلمت اندفاعاً مع التيار الاسلامي الجديد، ولم يكن مصدر اسلامها شدة ايمانها بتلك المبادىء؛ فهي مستعدة للاندفاع في اتجاه معاكس حين تساعد الظروف على ذلك. وكان كثير من تلك القبائل يترقب أول فرصة سانحة للانتقاض. وتاريخ حروب الردة أكبر شاهد على ذلك، وعلى أن المبادىء الجديدة كانت بعد لم ترسخ في نفوس الشعب العربي، رسوخها المطلوب، فالكثير منهم كانوا يقفون في داخل نفوسهم موقفاً حيادياً بالنسبة الى تلك المبادىء، وأكثر من هؤلاء عدداً من كان يضمر العداء لها، فهو منتهز أول فرصة ومترقب أول

حادث. هذا هو الموقف من الناحية الداخلية[1].

أما من الناحية الخارجية، فقد كان الأمر أشد والخطر أعظم، ويكفيك أن تكون أعظم الدول في ذلك العصر (بيزنطة وفارس) تناصبان الدول الاسلامية العداء، وفي حالة حرب معها، وقد توفي النبي ﷺ وهو يجهز جيش أسامة[2] الى التخوم الشمالية لصد هجمات البيزنطيين أو لمقابلة تهديدهم بتهديد مثله..

وإذا كانت ظروف المبادىء الجديدة هذه الظروف، فهل يكون من الحكمة أن يترك النبي الأمة في تلك الغمرات وفي تلك الأخطار الداخلية والخارجية، دون أن يعلن تعيين خلف له، يكون أقدر أتباعه وأقواهم على تحمل المسؤوليات وأنفذهم بصيرة وأشدهم اخلاصاً[3]؟

---

(١) ولم تُسلم قريش وأهل مكة أيضاً إلاّ في السنة الأخيرة من حياة الرسول ﷺ وحكومته بعد أن أدركت المخاطر التي تهددها إن لم تفعل ذلك. ومن الطبيعي أن أولئك الذين دخلوا الاسلام من الطلقاء وغيرهم خوفاً وطمعاً وقضوا حياتهم في محاربة الاسلام وعداوته، أضمروا أن يكيدوا له ويحاربوه من الداخل، وكان من شأن تحالفات (البطون) السرية أن تمنع مسيرة الاسلام بالشكل الذي أراده الرسول ﷺ بعد وفاته وأدى الأمر إلى انتكاسات عديدة وانحرافات معلنة وإلى أن يستلم الحكم أبناء أولئك الأعداء الألدّاء بعيد حوالي اربعين سنة من وفاة الرسول ﷺ... ألم يكن الرسول ﷺ يدرك وهو ابن الجزيرة العربية وقائد المسلمين والمسدد بالوحي والعلم الإلهيين طبيعة المخاطر التي تهدد الدين الجديد إذا لم يبادر بتعيين قيادة خالفة مؤهلة للحكم. إن الذين قالوا انه لم يفعل ذلك اعتماداً على قوة العقيدة والايمان سيصمتون حتماً أمام الانحدار السريع الذي جاء بيزيد والوليد وأشباههما للحكم بعد تلك الفترة القياسية القصيرة. إن تخوفات الرسول ﷺ من استبعاد خلفائه الحقيقيين تحققت مع الأسف ومات حزيناً آسفاً.

(٢) وقد لعن الرسول ﷺ من تخلّف عن جيش أسامة بما فيهم صحابته ومنهم الشيخان بغية التمهيد لاستلام أمير المؤمنين عليه السلام الحكم دون معارضة أو عراقيل، إلاّ أن هذا الانذار النبوي رفض بحجة الاطمئنان على صحته مع أن من رفضه أراد (الاطمئنان) إلى ابعاد الخليفة الحقيقي عن الحكم.

(٣) لو كان الرسول ﷺ يريد ترك الأمر لانتخابات المهاجرين والأنصار وغيرهم من الأعراب لمهّد =

حاشا لرسول الله ﷺ أن يترك دولته ودين ربه في مهاب تلك العواصف المنذرة بالزلزال العظيم، وحاشاه أن يترك الأمر إلى انتخاب جماعات ربما لا يوفقون الى انتخاب الكفؤ الصالح لهذه المهمة الخطيرة، بل ربما لا يوفقون الى أي انتخاب ولا يتفقون على أي رأي؛ فقد كان من غير البعيد أن لا يخضع المهاجرون للأنصار ولا الأنصار للمهاجرين، وكان غير بعيد أن تنشب حرب بين هذين الفريقين من المسلمين تكون بعيدة المصاير مجهولة العواقب(١).

بل ان ما ذكرناه وبرهنّا عليه من أن مبادىء الاسلام تفرض نفسها ولا

= لذلك على الأقل قبيل وفاته ولصدرت منه تصريحات تدل على ذلك غير أن الحلف القوي الواسع الذي شمل جمهرة كبيرة من الصحابة والمعتنقين الجدد للاسلام وبطون قريش العديدة أنكر بعد ذلك أن يكون الرسول ﷺ قد مهّد لخلافة وصيه الحقيقي عليه السلام وحاول أن يؤول الأحاديث المتواترة بين المسلمين على ذلك، حتى اضطرّ إلى منع تداول حديث الرسول ﷺ جملةً وتفصيلاً بحجة: أن لدينا كتاب الله وهو حسبنا ويكفينا.. كيف جمع المسلمون الأحاديث في صحاحهم وكتبهم بعد ذلك، أليس ذلك لأنهم أدركوا أن أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وتقريراته مكملة للكتاب الكريم؟ كيف أدرك المسلمون بعد مائة عام أو مائتي عام ذلك ولم يدركه الصحابة الأوائل، لو تحتوي تلك الأحاديث زخماً هائلاً منها تشيد بأمير المؤمنين عليه السلام وتدعوا المسلمين لولايته وحبه والتمسك به وتذكّر فضائله الكثيرة التي فاقت العد والحصر؟

(١) وقد كادت الحرب أن تنشب فعلاً بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة لو لم يمل ميزان القوى لصالح المهاجرين بسبب ضخ أعداد كبيرة من الأعراف المتحالفين معهم الى المدينة وبسبب الخطة المحكمة التي نفذت في لحظات احتضار الرسول الكريم ﷺ وتغسيله ودفنه وإمساك زمام المبادرة بيد حديدية مستميتة أمام الخطر الذي كان يلوح لها إذا ما استلم أمير المؤمنين عليه السلام الحكم.

ثم كيف غاب عن فطنة الرسول ﷺ ما لم يغب عن فطنة ابي بكر وعمر اللذين أوصيا واعداً لخليفتهما رغم آلام الاحتضار الشديدة.. وهل ادعىٰ أحد من المسلمين أنهما كانا يهجران.. أم أن ما كانا يعدان له يوافق هوى الأغلبية التي لم تدخل الاسلام إلاّ مكراً ورياءً والتي كانت - بما تعرفه عن شدة أمير المؤمنين عليه السلام في الحق - ترى أن مصالحها وامتيازاتها التي تحققت سوف تزول ويتساوى الجميع أمامه.

تترك الخيار للأكثرية ولا تحترم رأيها الى درجة تفرض اتباعه، ولو أدى الى التهاون بالمبادىء الاسلامية أو رفضها ليؤدي بنا الى استنتاج وجوب اتباع أسلوب التعيين في ايصال الخلفاء الى كرسي الحكم، لا في حكومة الخلافة الأولى وحسب، بل ما دامت المبادىء غير راسخة في النفوس ولا مستقرة، وما دام مزاج الشعب بعيداً عن تلك المبادىء، ولم يتأثر بها تأثراً يعدل منه ويجعله موافقاً لها ليصبح العمل عليها طبيعة من طبائعه، وخلقاً ثابتاً من أخلاقه.

أجل يجب أن يتبع الخلفاء الصالحون اسلوب التعيين حرصاً على المبادىء؛ فيجب أن يستمر هذا الأسلوب حتى تصبح المبادىء نفسها أسلوباً لحياة الشعب والعمل عليها خلقاً من أخلاقه الثابتة، وحتى تتغير الظروف ويزول احتمال خطر العبث والتهاون بالمبادىء، فان اتباع طريقة الانتخاب قبل ذلك يعرض المبادىء للخطر المؤكد.

* * *



[الفصل الثالث]

استنطاق النصوص الدستورية الاسلامية العامة في شأن الحكومة الخالفة

[الدستور الاسلامي.. أساسه القرآن والسنّة]

إذا كان لدينا من نصوص دستورية اسلامية معتبرة في شأن الحكومة والدولة فلا بد أن تكون موجودة في القرآن الكريم أو في السنة النبوية، وما سوى ذلك مما يؤخذ من الاجماع أو غيره من الدولة لو كان معتبراً، فانما يرجع إلى المصدرين المذكورين ـ الكتاب والسنَّة ـ فالاجماع إنما يتبع إذا قام على حجّتيه شاهد منهما أو من أحدهما.

لقد ذكرنا في الفصل الذي عقدناه أولاً ـ بعنوان (أشكال الحكومات وأفضلها) ـ أن الشكل الديمقراطي هو الشكل الطبيعي للحكم، بل الشكل الشرعي ـ الموجود ـ إذا نظر اليه من دون النظر الى ملابساته، غير أن التدقيق في هذه الناحية يؤدي بنا الى تفصيل في شرعية هذا الشكل من الحكم نوضحه فيما يلي:

إن الآراء الشعبية قد تتعلق في شؤون عامة أو خاصة، تقف منها فكرة الحق والخير والجمال وأضدادها ـ الباطل والشر والقبح ـ موقفاً حيادياً، أي لا تفرضها ولا ترفضها، كما لو وافقت أكثرية مجلس على بناء جسر على الشكل الهندسي الخاص، أو مد خط حديدي على الشاطىء البحري اللبناني

مثلاً أو على تشريع يقضي بجعل يوم العمل سبع ساعات.

إن آراء الأكثرية التي تقضي بذلك آراء تتعلق بشؤون لها. فلها أن تختار فيها ما تشاء، فاختيارها إياها على وجوهها الخاصة المذكورة، واقع ضمن صلاحية تلك الآراء الشعبية، وفكرة الحق أو الخير لا تحتم هذا الوجه، كما لا تتنافى معه. وإذن يكون رأي الأكثرية تصرفاً فيما هو لها.

ولكن أداء الأكثرية أو الشعب قد تتناول أمراً بصورة تتنافى مع مقاييس الحق والخير والجمال، كما لو وافق مجلس دولة كبرى على استبعاد دولة صغرى أو وافق رأي الأكثرية على قتل الأقلية أو اضطهادها أو على عقاب طائفة من الأبرياء.

إن الديمقراطية تقضي بالعمل على آراء الأكثرية. ولو كانت من هذا القبيل، وإذا قلنا بمشروعية العمل على آراء الأكثرية دائماً، ولو تنافت مع المقاييس المذكورة، فإنا بذلك سننكر فكرة الحق والخير والجمال وأضدادها، ويصبح الحق والخير والجمال أموراً لا حقيقة لها. بل تكون تابعة لرأي الأكثرية الذي يتبدل بتبدل الأزمان والأشخاص، وبذلك نرجع إلى آراء فلاسفة (السوفسطائيين)(١) القدماء.

[ديمقراطية ضمن حدود الاسلام]

وإذن فعلينا أن نقول بشرعية الشكل الديمقراطي، وصحة العمل على آراء الأكثرية أو المجموع، إذا كانت لا تتنافى مع تلك المقاييس، أما إذا

(١) فلاسفة السوفسطائيين من السفسطة وهي التطبيق المتعمد في المجادلات أو البراهين لحجج براقة تجسد مغالطة خداعة وأكثر الحالات النمطية دلالة عليها: النظر الى الأحداث بعيداً عن سياقها وتطبيق القوانين الخاصة بمجموعة من الظواهر على مجموعة أخرى وتطبيق القوانين الخاصة بفترة تاريخية معينة على أحداث فترة أخرى. وعندما كان (لينين) يفرق بين السفسطة والجدل ذكر أن مرونة المفاهيم المطبقة بشكل ذاتي تتطابق مع السفسطة.

تنافت معها فالشعبية تتخبط في ضلال[1].

أضف إلى هذا أن الأكثرية في الغالب تكون جاهلة، وكثيراً ما لا تصل المجاميع إلى ما تصل اليه الأفراد القليلة من الآراء الصالحة والنظريات المستقيمة. والأكثرية في الغالب تتكون بالعدوى والمنبهات التحريضية، وكثيراً ما تتجاهل المصالح وتتبع الضار من الآراء وغير المخلص من الرجال وهي في ذلك الى حد يستحسن فيه ان يكون عليها قيّم ساهر على مصالحها، ووليّ اجباري يصرفها عن هواها إلى ما فيه خيرها وسعادتها، وإذا وجد مثل هذا الولي، فأصلح لها ألف مرة أن تتبعه ولو مكرهة من أن تسير على هواها خابطة في ضلالها المغرق.

[النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم..]

هذا وان الدين الاسلامي ليقف من الشعبية وآراء الجماهير موقفاً حكيماً جداً، فهو ينزل النبي ﷺ من المسلمين منزلة الولي الاجباري الذي له حق التصرف بالشؤون كما يرى، ومن الحق أن تكون للنبي ﷺ هذه الولاية المطلقة؟ أليس هو رسول الله الذي ﴿**ما ينطق عن الهوى، إن هو إلاّ وحي يوحى**﴾[2] وإذا صرفنا النظر عن هذا، أليس هو أعلم الناس

---

(١) نحن نتحدث عن الاسلام هنا. ولا بد أن الذين يدينون به يفكرون بعقليته ويحكمون بشرعيته ومقاييسه، ولذلك فاننا نجعل هذه المقاييس الأساس الأول في كل شيء.

(٢) سورة النجم، الآية: ٢ ـ ٣، وهي شهادة من الله تعالى بأن نبينا محمد ﷺ ما عدل عن الطريق المستقيم وما اعتقد باطلاً، وما كان ينطق به، وحيٌ يوحيه الله إليه. والشهادات الإلهية بحق رسوله الكريم متعددة وكثيرة نجدها متناثرة في سور القرآن الكريم.

وعن الباقر عليه السلام قوله: ما ضلّ في علي عليه السلام وما غوى، وما ينطق فيه عن الهوى وما كان ما قاله فيه إلاّ بالوحي الذي أوحي اليه.

وعن الصادق عليه السلام: إن رضى الناس لا يملك وألسنتهم لا تضبط، وكيف تسلمون مما لم يسلم منه أنبياء الله ورسله وحجج الله؟ ألم ينسبوا نبيّنا محمداً ﷺ أنه ينطق عن الهوى في ابن عمه علي عليه السلام حتى كذبهم الله فقال: ﴿**وما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى**﴾؟ =

بمصالح الأمة وأشفق الناس عليها؟

وان القرآن ليعلن في سورة الأحزاب هذه الولاية الاجبارية بشكل نص دستوري إلهي صريح:

﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾[١].

أما موقفه من ناحية لزوم الموافقة على آراء الأكثرية، فهو موقف سلبي، إلاّ إذا كان رأي الأكثرية موافقاً للحق مأمون الضلالة، وإذن يكون الحق هو المتبع وليس لعنوان الأكثرية بما هي أكثرية من قيمة، ويدلنا على عدم تقدير الاسلام لآراء الجماهير، إلاّ إذا كانت موافقة لمقاييس الحق والخير، تلك الأديان المنادية بجهل الأكثرية وضلالها ومساوئها:

﴿وان تطع أكثر من في الأرض يضلوك..﴾[٢].

= ومهما يقال في تفسير هاتين الآيتين فان الدلائل كلها تؤكد أن رسول الله ﷺ كان مسدداً بالوحي، معصوماً عن الخطأ، وما نسب اليه عكس ذلك إنما كان مصدره وعّاظ السلاطين وخدمة العروش المزيفة.

(١) سورة الأحزاب، الآية:٦، يعني أولى بهم في الأمور كلها، فانه لا يأمرهم ولا يرضى منهم إلاّ بما فيه صلاحهم ونجاحهم بخلاف النفس فلذلك أطلق، فيجب عليهم أن يكون أحب اليهم من أنفسهم وأمره أنفذ عليهم من أمرها وشفقتهم عليه أتم من شفقتهم عليها. يقول (الفيض الكاشاني) في (الصافي) عن (القمي) أنه ﷺ أبٌ لهم ويقول: يعني في الدين والدنيا جميعاً، أما في الدين فان كل نبي أب لأمته من جهة أنه أصل فيما به الحياة الأبدية، ولذلك صار المؤمنون أخوة. وورد عن النبي ﷺ أنه قال: أنا وعلي أبوا هذه الأمة، وذلك لأنهما في هذا المعنى سواء. عن (القمي) جعل الله عزَّ وجل المؤمنين أولاد رسول الله ﷺ وجعل رسول الله أباهم لمن لم يقدر أن يصون نفسه ولم يكن له مال وليس له على نفسه ولاية، فجعل الله تعالى لنبيه الولاية على المؤمنين. وجعله أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو قول رسول الله ﷺ بغدير خم: أيها الناس ألست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلىٰ.

(٢) سورة الأنعام، الآية:١١٦.

﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون . . ﴾[1].
﴿وكثير منهم فاسقون﴾[2].
﴿وقليل من عبادي الشكور . . ﴾[3].
﴿لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾[4].
إلى ما سوى ذلك من آيات كريمة صريحة في مفادها.

والسر في وقوف الاسلام هذا الموقف السلبي من آراء الجماهير ما نشاهده في آراء الجماهير من أخطاء ناشئة عن جهل الجماهير واندفاعها بالعدوى والتنابه والمحاكاة، وعبوديتها لعواطفها الجامحة، وعدم تمييزها بين منطق العقل ونزوة العاطفة واختلاطهما في شعورها وادراكها المضطرب، وأهم من هذا ضعف الموازنة والتقدير وعدم الاكتراث للمستقبل وتقديره.

فأهم شيء عندها الحاضر؛ إذ يندر أن ترى منهم من لا يقف في الأمور المهمة موقف العيص الاسرائيلي (الذي باع أخاه حق البكورة الذي له من أبيه بطبق من عدس). إن الحكماء الذين يميزون بين منطق العقل ونزوة العاطفة قليلون ونادرون جداً.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٠ ـ٦٨، سورة الرعد، الآية: ١، سورة النحل، الآية: ٣٨، سورة الروم، الآية: ٦، سورة القصص، الآية: ٣٠.
(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٦ ـ ٢٧.
(٣) سورة سبأ، الآية: ١٣.
(٤) سورة المائدة، الآية: ١٠٠.
وورد في تفسير الآية ١١٦ من سورة الأنعام: أن الأكثر في الغالب يتبعون الأهواء ﴿إن يتّبعون إلاّ الظن﴾ وهو ظنهم أن آباءهم كانوا محقين، وهم يقلدونهم جهالاتهم وآراؤهم الفاسدة. . . ومع ازدياد الوعي والثقافة في عصرنا الحالي، فانا نجد أن قوى التأثير تجنّد لمصلحتها أرقى وأحدث وسائل الاعلام لتضليل الجماهير وخداعها، وهذه الوسائل تتطور بتطور الجماهير لكي تسلبها إرادتها ووعيها.

[ديمقراطية الجماهير.. في حدود المبادىء العامة للاسلام]

إن هذا هو موقف الاسلام من آراء الجماهير، حينما تحاول أن تدلي برأيها في أمور تفصل وتتحكم فيها مقاييس الحق والخير والجمال، أو في أمور يفرضها الدين الاسلامي والوحي السماوي على الأكثرية والأقلية كالنظريات التي تتعلق بما وراء الطبيعة والعبادات والنظام المالي والحقوق التي تقررها المبادىء الاسلامية. فنظام مالي كالزكاة، لو طلبت الجماهير إلغاءه، وقررت عدم العمل عليه، لرد طلبها وقرارها ووجب اكراهها عليه[1].

أما حينما تدلي برأيها فيما لا يناقض تلك المقاييس، ولا تفرضه مبادىء الاسلام وأنظمته مما هو لها، وفي نطاق حقوقها، كالتدابير التي تتعلق بشؤون عمرانية أو ثقافية أو ما يشبه ذلك، فإن الاسلام يحترم رأيها ويؤيده، ويرى لها حق التصرف بشكل كامل غير منقوص. فالرأي إذا كان اجماعياً يحق اتباعه، وكذلك الآراء الأكثرية؛ **إذا كان يوجد في الدستور مادة تحتم اتباع الرأي الأكثري، وكانت الأمة قد وافقت على تلك المادة بالاجماع، فان الأقلية تكون بذلك قد وافقت سلفاً على تنفيذ رأي الأكثرية ودحضت بمخالفة نفسها.**

أما إذا لم توجد هذه المادة في دستور أمة، فإن رأي الأكثرية في غيرها

---

(١) فما دام الدين من الله وقد فرضه كله ونهى عن ترك بعضه والأخذ بالبعض الآخر ﴿**أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلاَّ خزيٌ في الحياة الدنيا، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب، وما الله بغافل عما تعملون**﴾ البقرة: ٨٥، فان الناس غير مخوّلين بمناقشة الأحكام والتشريعات الإلهية، وما عليهم إلاَّ أن يبحثوا عن أفضل السبل لتطبيقها والانسجام معها. والذي يؤمن بالاسلام وكتاب الله يعلم أنه الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه ويكون التزامه به عبادة يستحق عليها الثواب كما أن الخروج عليه يتبعه خزي وعقوبة في الدنيا والآخرة.

لا يجوز تنفيذه مع مخالفة الأقلية لها فيه، لأنه يكون تصرفاً في حقوق الأقلية بغير رضاها، ومن دون اذنها وفي ذلك مخالفة للحقوق الطبيعية والحريات الثابتة، كما أن في ذلك مخالفة لمبادىء الشرع الاسلامي ومواده:

«**الناس مسلّطون على أموالهم**».

«**لا يحلّ مال امرء إلاّ بطيب نفسه**».

والأموال العامة كالأموال الخاصة، لا تمتاز هذه عنها من هذه الناحية في قليل ولا كثير. وغير الأموال من الحقوق كالأموال ايضاً من دون فارق.

ومن ذلك تعلم أن الانتخابات إذا لم تكن اجماعية، وكانت أكثرية، لا تكون شرعية، إلاّ إذا كانت الأمة بأجمعها قد وافقت قبل ذلك على مادة تنص على:

«وجوب أو جواز اتباع الرأي الأكثري المخالف للرأي الأقلّي».

وحين لا تكون هذه المادة موجودة فلكي تكون الانتخابات شرعية، يلزم أن تكون اجماعية؛ فإن حق الانتخاب وعدم الانتخاب وحق التأمير وعدم التأمير من الحقوق الثابتة لكل فرد مكلف، كالحقوق المالية الخاصة والعامة، لأنها ترجع إلى حرية طبيعة وشرعية ثابتة ومقدسة لا يجوز اغتصابها. يضاف الى ذلك أن الانتخاب والتأمير يستتبع التصرف بالحقوق والأموال العامة التابعة التي لا يجوز التصرّف فيها إلاّ باذن من كل من يشترك في ملكيتها.

فإذا لم تكن هذه المادة المذكورة موجودة وموافقاً عليها بالاجماع التام ولم يوجد الانتخاب الاجماعي، كان معنى ذلك عدم وجود الانتخاب الشرعي[1].

---

(١) ولا يوجد في التاريخ الاسلامي ما يدل على اتباع أي من هذه الطرق، سواء الانتخابات العامة أو مجالس الشورى، فأبطال السقيفة كانوا خمسة والخليفة الأول عهد لخليفته بكتاب خطّي ومجلس الستة الذي اختاره الخليفة الثاني كانت تركيبته تدل على أنها لا بد أن تتخلص من =

والقول بأن الانتخابات الأكثرية تجعل من المنتخب حاكماً شرعياً للأكثرية، وان يكن حاكماً شرعياً للأقلية، معناه ايجاد حاكم للأكثرية بلا حكم ـ كوزير بلا وزارة ـ إذ المصالح المشتركة لا يجوز التصرف فيها إلاّ باذن الشركاء كلهم، وإن كانت شركة بين أقلية وأكثرية لأن الحصص فيها مشاعة غير معينة، والتصرف الاجباري ـ دفعاً للضرر عن الأكثرية وحفظاً لحقوقها ـ إنما يكون فيما إذا لم يمكن وجود حاكم شرعي بوجه من الوجوه. ومع ذلك تبقى الأقلية خارجة عن حكم حاكم الأكثرية، ولا يحق له أن يجري عليها أحكامه ويمدّ عليها رواق سلطته ويكون حكمه وتصرفه في المصالح المشتركة سداً للحاجة لا حكماً طبيعياً.

[الشورى في الاسلام مفهوم واسع.. لا ينحصر في أفراد قلائل.. الشورى ليست مؤامرة ضد الدستور الاسلامي]

وقد يناقش ـ في حصر قيمة آراء الجماهير بما إذا لم تتناف مع مقاييس الحق والخير، ولم تتناف مع المبادىء الاسلامية وفي حصر شرعية آراء الأكثرية وتصرفاتها في التأمير والمصالح العامة، بما إذا جاءت بعد موافقة جميع الأمة على مادة تنص على اتباع الرأي الأكثري ـ بأن في القرآن ما يدل على احترام رأي الأكثرية:

﴿والذين استجابوا لربهم وأمرهم شورى﴾[1].

= علي عليه السلام.. ولعلَّ الأمة لم تجمع على أحد إجماعها على علي عليه السلام بعد مقتل عثمان، بل انها كادت أن تجبره على قبول منصب الخلافة الذي فقد قوته وتأثيره بعد أن استلمه ثلاث خلفاء قبله وأصبح يطمح فيه آخرون حتى معاوية العدو اللدود لرسول الله ﷺ، أما بعد ذلك فأصبحت الخلافة شكلية ومهّد لحكم ملكي وراثي مطلق ترفع فيه بعض الشعارات وتؤدي بعض الطقوس الاسلامية ما دامت غير مضرّة بالعرش وما دامت أحد مظاهر الزينة التي يتقرب بها الخليفة إلى الأمة.

(١) سورة الشورى، الآية:٣٨، تتحدث عن المؤمنين الذين لا ينفردون برأي حتىٰ يتشاوروا =

إذ تدل الآية على مدح المؤمنين الذين تجري أمورهم على نظام شوروي، والشورى تعني العمل على آراء الأكثرية.

ولكن الآية لا تدلنا على ذلك، فان لفظ الشورى في اللغة يعني التشاور في الأمر، وعدم تسرع الفرد في تنفيذ رأيه قبل الاستشارة والانتفاع بتوجيه المخلصين من ذوي الخبرة. وربما كان هؤلاء أقلية بالنسبة إلى غيرهم، والاستشارة لا تعني لزوم العمل على ما يشار به، فلربما رأى المستشير بعد الاستيشارة أن رأيه أصوب من رأي المستشار، وكثيراً ما يتأكد للمرء صحة رأيه بعد الاطلاع على نقد غيره له، فكل ما تدل عليه الآية: حسن استطلاع الآراء، لا لزوم الأخذ بها.

أضف إلى ذلك أن الآية قد يستظهر منها أن هؤلاء الممدوحين يعملون بعد الشورى كمتوافقين غير منقسمي الرأي! فليس هناك أكثرية، بل اجماع واتفاق على أنها تعني بظاهرها الخبرة في أعضاء الشورى، وتعني بحثاً وتأملاً وتفكيراً مما لا يتسنى للجماهير التي لا تعود في عملها وآرائها عن

= ويجتمعوا عليه وذلك من فرط تيقظهم في الأمور. أو الذين يشاورون الامام عليه السلام فيما يحتاجون اليه من أمر دينهم كما قال الله: ﴿ولو ردّوه إلى الرسول وأولي الأمر منهم﴾ (النساء: ٨٣). وفي (المجمع) عن النبي ﷺ: ما من رجل يشاور أحداً إلا هُدي إلى الرشد.
وفي قوله تعالى: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم..﴾ إلى قوله: ﴿.. وشاورهم في الأمر﴾ (آل عمران: ١٥٩) يريد به أمر الحرب وغيره مما يصح أن يشاور فيه استظهاراً برأيهم وتطيباً لنفوسهم وتمهيداً لسنّة المشاورة للأمة. وعن النبي ﷺ: من استبدّ برأيه هلك، ومن شاور الرجال شاركها في عقولها. وفيه: الاستشارة عين الهداية، وقد خاطر من استغنىٰ برأيه.
وفي (الخصال) عن الصادق عليه السلام: وشاورهم في أمرك الذي يخشون الله.
ونرى أن الرسول ﷺ يستشير أصحابه في الأمور الحياتية العادية تمهيداً لسنة المشاورة البنّاءة للأمة. ولم يُذكر لنا أنه استشار أحداً في أمر أساسي من أمور الدين وهذا ما ينبغي الالتفات اليه.
إن أحد أساليب تربية الأمة استهدف وضعها على طريق المسؤولية.. مسؤولية الذين يخشون الله.

خبرة ولا تأمل ولا تفكير خصوصاً في مواقفها الانتخابية التي هي اكبر ما يهمنا في بحثنا[1].

ومهما يكن لهذه الآية من ظهور، فانها لن تتمكن أن تقاوم ظواهر الآيات السابقات، فإن ظهورها وصراحتها لا يقاومان باستظهار ضعيف كهذا الاستظهار..

وعلى كل حال فان ما يهمنا اكثر من كل شيء، انما هو ما يتعلق بتشكيل الحكومة التي تتولى ادارة المصالح العامة وإقامة الحدود والمحافظة على الأحكام ونشر المبادىء الدينية والعمل على تقوية الاسلام واطراد تقدمه وتحقيق الغاية التي تعلنها الآية الكريمة:

﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾[2].

---

(١) لم يذكر لنا أحد أن الرسول ﷺ قد استشار المسلمين أو بعضهم فيمن يوليه الخلافة من بعده، ولا شكّل مجلساً استشارياً لهذا الغرض أو غيره، وانما كانت لمساته الرقيقة في هذا المجال لا تتعدى أموراً محدودة أراد بها زرع الثقة وروح التفاهم والتشاور بين المسلمين وإرساء هذه الممارسة في المستقبل. ولم نجد لها صيغة محددة بعد وفاته.. ولا يمكن وصف اجتماع السقيفة المرتجل بأنه مجلس استشاري تمت فيه دعوة أقطاب المسلمين أو أغلبهم أو معظم الصحابة لطرح آرائهم بحرية وهدوء.. كما لا يمكن وصف اجتماع الستة بعد وفاة عمر بأنه مجلس استشاري يمثّل رأي المسلمين أو أغلبيتهم.. أما مجالس الدولة التي تجتمع حول الخليفة بعد ذلك فلم يكن عملها يتعدى ترسيخ حكمه ونفوذه وجعله يستمر إلى الأبد. والذي فعله الرسول ﷺ هو إشاراته الواضحة والصريحة الى خليفته من بعده، وهو أمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٣، فلم ينزل الاسلام ليظلّ في أيدي العابثين والمنحرفين إلى ما لا نهاية، وإذا فشلت الأمة في اختيار قائدها أو معرفته، فانها ستوفق في نهاية المطاف بتسديد ولطف إلهيين.

ورد في الكافي عن الامام الكاظم عليه السلام في هذه الآية: هو الذي أمر رسوله ﷺ بالولاية لوصيه والولاية هي دين الحق ليظهره على جميع الأديان عند قيام القائم عليه السلام، والله متم ولاية القائم =

إن على الأمة أن تختار للحكم حكومة تتمشى على هذا المنهاج، ولذلك فان عليها أن تختار من هو كفؤ لتنفيذ هذا المنهاج الذي ينطوي على أخطر المسؤوليات من ذوي العلم الواسع بالدين والسياسة ومناهج الادارة والتطبيق، ومن يتفانى في سبيل ذلك اخلاصاً وحباً للدين والصالح العام..

[تختار الأمة قائدها.. إذا لم يختر لها الرسول ﷺ]

ومن الصعب على الأمة أن توفّق في اختيارها الى هذا الحد في وقت لا تزال المبادىء الدينية جديدة غير راسخة في النفوس، وفي وقت لم تصل الأمة الى درجة من الرقي في تفكيرها، تمكنها من السهر على الصالح العام وتفهّم الحقائق.

وعلى كل فإن هذا هو تكليف الأمة، فإذا أجمعت على انتخاب حكومة تجمع الشروط، تصبح الحكومة شرعية، إذا لم يكن من هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم قد اختار حكومة لتأمين هذا المنهاج العظيم فان الأمة محتاجة الى وجود حكومة تؤمن تنفيذ هذا المنهاج؛ وحيث أن ولي الأمة قد أهمل تشكيلها، فعلى الأمة أن تقوم بهذه المهمة الصعبة التي قد توفق فيها وقد لا توفق.

[يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعو الرسول وأولي الأمر منكم][1]

= ولو كره الكافرون بولاية علي عليه السلام. قيل هذا تنزيل؟ قال: نعم، وأما غيره فتأويل.

(١) سورة النساء، الآية:٥٩، هناك عشرات الآيات تؤكد هذا المعنى وتدعو الناس إلى طاعة الله ورسوله والاستسلام المطلق للأحكام والتشريعات الإلهية التي يعبرون من خلال الاستجابة لها وممارستها عن هذه الطاعة. إن أولي الأمر المعنيين هنا هم أهل البيت عليهم السلام. فقد ورد عن (العياشي) ان هذه الآية نزلت في علي بن ابي طالب والحسن والحسين عليهم السلام. فقيل: إن الناس يقولون: فما له لم يسمّ علياً وأهل بيته في كتابه؟ قال: فقولوا لهم: نزلت الصلاة ولم يسم الله لهم ثلاثاً ولا أربعاً حتى كان رسول الله ﷺ فسّر ذلك لهم، ونزلت عليهم الزكاة ولم يسم لهم =

أما إذا اختار ولي الأمة للأمة حكومة وأعلن تعيينها، فان على الأمة أن تطيع وتخضع، فانه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وطاعة من يعينه للحكم واجبة مفروضة:

﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾.

فليس للأمة أن تخالف اختيار وليها إلى غيره؛ فإن الدستور الاسلامي، كما عرفت، ناطق بمواد ثلاث هي:

ولايته أولاً؛

ووجوب طاعته ثانياً؛

ووجوب طاعة من يؤمره ثالثاً، إذ يصبح بتأميره من أولي الأمر الذين تجب طاعتهم.

[لا استثناء لحكم الله ورسوله]

هذا وانا لنفهم من قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾، إن أولي الأمر ليسوا بأولي الأمر المنتخبين، بل هم أولوا الأمر المعيّنون بمراسيم نبوية، فإن الأمر بإطاعتهم إطاعة مطلقة

= من كل أربعين درهماً درهم حتى كان رسول الله ﷺ هو الذي فسّر ذلك لهم، ونزل الحج فلم يقل طوفوا اسبوعاً حتى كان رسول الله ﷺ هو الذي فسّر ذلك لهم، ونزلت وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ونزلت في علي والحسن والحسين عليهم السلام فقال رسول الله ﷺ في علي: من كنت مولاه فعلي مولاه، وقال: أوصيكم بكتاب الله وأهل بيتي فاني سألت الله أن لا يفرّق بينهما حتى يوردهما عليَّ الحوض فأعطاني ذلك وقال: لا تعلموهم فانهم أعلم منكم، وقال: انهم لن يخرجوكم من باب هدى ولن يدخلوكم في باب ضلالة، فلو سكت رسول الله ﷺ ولم يبين مَن أهل بيته لادّعاها آل فلان وآل فلان ولكن الله أنزل في كتابه تصديقاً لنبيه ﷺ: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ (الأحزاب: ٣٣)، فكان علي والحسن والحسين وفاطمة عليهم السلام فأدخلهم رسول الله ﷺ تحت الكساء في بيت أم سلمة، ثم قال ﷺ: اللهم ان لكل نبي أهلاً وثقلاً، وهؤلاء أهل بيتي وثقلي. فقالت أم سلمة: ألست من أهلك؟ فقال: إنك على خير، ولكن هؤلاء أهل بيتي وثقلي (الحديث).

لا يتفق مع الواقع المشاهد في أولئك الذين تختارهم الأمة أو بعضها؛ فإن الأكثرية الساحقة منهم ممن تجب الثورة عليهم وتحطيمهم وإنزالهم عن كراسيهم، وإنزال أشد العقوبات بهم، وقليل نادر منهم من يجوز السكوت عنه، وأقل من ذلك من يجوز طاعته، فهل أنزل هذا التعميم ليقصد به هذا العدد القليل؟[1].

كلا، فان ذلك لا يجوز أن يقصد في تعميم أُنزل دستوراً وقانوناً يجب تطبيق حكمه على موضوعه أينما وجد، شأن سائر القوانين التي يعمل باحكامها أينما وجد موضوعها، سيما والسياق بعيد عن التقييد، إذ نفهم منه أن طاعة أولي الأمر كطاعة الله والرسول واجبة مفروضة دائماً في كل زمان ومكان، فأينما وجدوا، ومتى وجدوا، وجبت طاعتهم، فلا يجوز أن يوجد واحد منهم ولا تجب طاعته، كما لا يجوز أن يوجد الرسول وتجوز معصيته، ولن يصح هذا أو يصدق إلاَّ إذا أريد من لفظ أولي الأمر، من عيّنوا بمرسوم نبوي، أما لو أُريد منه من اختارته الأمة أو بعضها، تكون الآية غير صحيحة المعنى، فإن أكثر هؤلاء، كما عرفت، لا تجب طاعتهم، بل تجب الثورة عليهم.

---

(١) وقد بيّنا في الصفحات السابقة من هم أولو الأمر الذين تجب طاعتهم، لا كما يقول مرتزقة السلاطين أن أولي الأمر هم المتسلطون على رقاب الأمة بالاكراه أو الخديعة أو الدجل، وانهم ما داموا في مركز السلطة فهم أولياء أمورنا، وقد رووا أحاديث كثيرة ـ ذكرنا بعضها ـ حول ضرورة إطاعة الحاكم الفاسق والظالم والمفضول ويذهبون الى حد إثبات شرعية حكومته بكونه قد تغلب قبل غيره على الحكم وأصبح ذلك أمراً واقعاً لا يجوز تغييره.
لماذا لم يشر القرآن إشارة ولو بسيطة إلى ذلك ولماذا لم يحثّ على السير في ركاب دولة الظلم؟ والجواب أن القرآن والرسول ﷺ لا يقرّان ذلك، وإذ أن أحداً لم يستطع أن يزوّر آية من القرآن لاعجازه المطلق والتام ولحفظه من قِبَل الله جلّ وعلا، فان أسلوب الحديث النبوي البسيط أتاح لهم هذه الفرصة فاستغلوها دون ابطاء لتكريس وتعزيز مصالح حكامهم الذين كانوا يدفعون لهم بسخاء ويقربونهم الى عروشهم . . .

يضاف إلى ذلك ان لو آريد من الموضوع ـ وهو أولو الأمر ـ أولي الأمر المنتخبين، لأزال الحكم موضوعه، فإن المنتخب من يكون بقاؤه في الحكم كوصوله الى الحكم، في كونه راجعاً إلى إرادة الشعب واختياره؛ فهو إذا كان وكيلاً للشعب، جاز للشعب أن يبطل وكالته، ويعدل عنه الى توكيل غيره، كما جاز له أن يوكله بادىء بدء. والآية، كما علمت، تدلّ دلالة واضحة على وجوب طاعة أولي الأمر بصورة لا تقبل الاستثناء، وإذن فله أن يصدر نهياً عن ابطال وكالته، كما له أن يعين خلفاً له وخلفاً لخلفه. وهو في كل ذلك ـ بحكم الآية ـ يجب طاعته، فتحرم الثورة عليه، ويحرم استبداله بغيره، ويجب قبول جميع تعييناته، وكيف يجب ذلك وهو وكيل، ووكالته لها حدودها، وهو يستمد مشروعية قيامه بأعباء الحكم من إرادة الشعب وإذنه، فكيف أصبح يستبد بالشعب وتجب طاعته حتى في مراسيمه التي تزيل الانتخاب من أسسه؟

ان جميع ذلك يدلنا على أن الموضوع خصوص من عين بمرسوم نبوي مباشر أو بالواسطة، وإلاّ لما وجبت طاعته من غير استثناء، وإلاّ لجاز زوال الموضوع ـ وهو الانتخاب ـ بواسطة الحكم، وهو وجوب الاطاعة من غير استثناء والحكم لا يزيل الموضوع.

وإذا كان المقصود من (اولي الأمر) خصوص من عيّنه النبي ﷺ آمراً على المسلمين، فان ذلك يدلنا على وقوع التعيين، وإلاّ لم يكن لاعلان الحكم بوجوب الاطاعة أي معنى. فالنبي إذا مات ولم يعين أحداً من الناس، حاكماً على الناس، كان معنى ذلك عدم وجود الحاكم المعين ـ بمرسوم نبوي ـ إلى الأبد، فهل من الحكمة أن يهتم الوحي بأمير لم يوجد ولن يوجد إلى الأبد، ويهتم به إلى حد أن يوجب طاعته دائماً وبصورة مطلقة لا تقبل الاستثناء.

وإذن فإن الآية تكشف بسياقها وقوة حكمها عن أمر هام جداً وهو أن الآمر المعين بمرسوم نبوي موجود حقيقة وتجب طاعته، كما تجب طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ[1]

* * *

(١) وإلاّ فما هي مواصفات ولي الأمر على ضوء الاسلام، لو لم يكن هذا الولي موجوداً ومعروفاً من قِبَل جماهير المسلمين. هل يكتفي القرآن بقوله ﴿أولي الأمر﴾ ثم لا يصفهم ولا يكونون معروفين لدى المسلمين.. وهل أن هذه دعوة لإطاعة الحكام مهما كان نوعهم وتقواهم وسلوكهم واستقامتهم...؟

لماذا نزل الاسلام إذا كان يريد ترك الظلم على ما هو عليه وترك الطواغيت يعبثون على هواهم؟ وهل أن المعني بأحكامه وقيوده الأمة المستضعفة ليزيد من ضعفها ويزيد من القوم الظالمين.

لا شك أن هذه الآية قد استغلت بفعل واضعي الأحاديث ومزوريها أسوأ استغلال، ورفعت كسيف مسلط على رقاب الأمة المسلمة لمنع أي نقد أو توجيه أو ممارسة معقولة للاسلام والحريات التي يدعو اليها.

الاشارات القرآنية التي نزلت بها الكثير من الآيات دلّت بوضوح على أولي الأمر الحقيقيين وأشادت بهم خصوصاً بأولهم أمير المؤمنين عليه السلام الذي كان يعيش بين ظهراني الأمة. كما أن الزخم الهائل من الأحاديث النبوية بفضل أهل بيته وفي مقدمتهم علي عليه السلام مع السيرة النقية المستقيمة للامام كانت حرية أن تلفت نظر الأمة اليه وتتولاه وتقلده أمرها. غير أن التوجه العفوي للأمة أوقف بحملات مدروسة كان من أهمها وقف تداول الحديث نهائياً وتأويل آيات القرآن أو صرفها عن معانيها الحقيقية وإثارة الطموحات غير المشروعة لدى زعامات البطون القرشية التي كانت وحتى قبيل وفاة النبي تشنّ حرباً ضروساً ضده وضد الاسلام. إن تعاقب الأحداث المؤلم بعد وفاة النبي ﷺ مباشرة بل وفي أيامه الأخيرة كان يدل على خطط مؤامرات موضوعها ضد المخطط النبوي لتولية أمير المؤمنين عليه السلام وهو ما اعترف به بعض أقطاب المسلمين الذين أفشلوا المخطط النبوي ووقفوا في طريق تنفيذه.



[الفصل الرابع]

استنطاق النصوص الخاصة
في شأن الحكومة الخالفة

لقد جلونا في الفصول السابقة، أن النصوص الدستورية الاسلامية لا ترى لآراء الأكثرية قيمة ولا وزناً ما لم تعاضدها مقاييس الحق والخير، وأن الأكثرية، بما هي أكثرية، لا تقضي بأن تكون الحكومة شرعية حينما تعارضها الأقلية، ما لم تكن الأقلية قد اتفقت مع الأكثرية قبل ذلك على لزوم أو جواز العمل بآراء الأكثرية، ودحضت سلفاً بمخالفة رأي الأقلية إلى رأي الأكثرية في المواقف التالية التي يحصل فيها الانشقاق في الآراء، وتتكون أكثرية وأقلية، ورأينا أن الحكمة في عدم الاعتداد بآراء الجماهير كثرة أخطائها وغلبة الجهل عليها، وتكوّن آرائها في الغالب بالعدوى والمحاكاة والمحرضات. ولدى الحقيقة أن الجماهير في الغالب لا تملك قوة الموازنة، ولا ملكة التقدير للمصاير البعيدة والنتائج المستقبلة، بل ترى في الحاضر كل شيء، ولذلك كانت آراؤها في الغالب غير مأمونة العواقب، ولا موافقة لمقاييس الحق والخير والجمال، تلك المقاييس التي يجب الاعتداد بها لا بغيرها في تقدير القيم في الناحيتين النظرية والعملية.

هذا وقد علمت أن المبادىء الثورية التي تريد لنفسها البقاء وتحاول ـ وإن كانت رأي أقلية من الشعب ـ أن تفرض نفسها على الأقلية والأكثرية

لتكون خالدة ولتبقى أسلوباً في الحياة أبديّاً ـ تحفز أصحابها والحكومة الأولى التي تقوم على أسسها أن تعمل كل ما يمكن عمله في سبيل تثبيتها واستقرارها في النفوس واطّراد تقدمها لتصبح في المستقبل مبادىء الأمة بأجمعها، وعليها أن لا تغادر كرسي الحكم إلاّ بعد تأمين قيام حكومة مخلصة لتلك المبادىء، متفانية في سبيلها، يكون رئيسها من أقدر الرجال على تنفيذ المنهاج الذي يضمن بقاء المبادىء وتقدمها.

ولأن المبادىء لا تزال غير راسخة في نفوس الأكثرية، لزم إقامة حكومة مخلصة فردية خالفة لتلك الحكومة الثورية الأولى، ولزم أن لا يترك أمر قيام تلك الحكومة لانتخاب الشعب الذي قد ينتخب غير المخلص لتلك المبادىء، وغير الكفؤ لتلك المهمة، لأن الانتخابات ـ سيما في ظروف كهذه ـ كثيراً ما لا توفق في اختيارها. فلن يجوز أن يترك مصير المبادىء للصدف والاتفاقات، بل يجب على الحكومة الأولى أن لا تغادر كرسي الحكم إلاّ بعد تعيين من يقوم بهذه المهمة العظمى[(١)].

وقد علمت أيضاً أن المبادىء الاسلامية من نوع تلك المبادىء التي تريد وتحاول أن تحتم لنفسها البقاء والخلود:

---

(١) بل ان الأمر لا يقتصر على الحكومات الثورية أو التي تحسب أنها ثورية فحسب فحتى الحكومات المستبدة والملكية (ديمقراطية أو غير ديمقراطية) تلجأ إلى أسلوب تعيين الحاكم المتخلف ولم نجد خروجاً عن هذه القاعدة إلاّ في الأنظمة الغربية الحديثة حيث أن هناك قواعد محددة للحكم ورجال السلطة... ولعل من لا يلتفت الى تعيين حاكم وحكومة خالفة قد يشكل حالة شاذة..

كيف نقبل فكرة عدم التفات الرسول ﷺ لهذا الأمر مع تشخيصه المشاكل التي تواجه الدولة الاسلامية وترك الأمور على غاربها؟ أكان الرسول هو صاحب فكرة السقيفة والممهد لها؟ لو أن الأمور لم تجر في السقيفة وفق ارادة الفئة التي خاصمت الأنصار، فأية حوادث وملابسات كنا سنشهد حينذاك..؟ كل المعطيات ترفض قبول فكرة وفاة الرسول ﷺ دون أن يولي خليفة له.

﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾[1].

وهي مبادىء لا تترك للأكثرية أمر الفصل في بقائها والغائها، بل تحتم نفسها على معتنقيها، ولا تسمح لهم حتى بتعديلها. فلو طلبت أكثرية الأمة من المسلمين الغاء قانون الزكاة لرد طلبها، وإذا أصرَّت الأكثرية على ذلك وجب اخضاعها وقتالها إذا لزم الأمر[2].

وإذا كانت مبادىء الاسلام من هذا النوع الذي لا يعلّق أمر بقائه وعدم بقائه على إرادة الشعب، بل يحتم بقاءه، ويفرض نفسه على الأقلية والأكثرية، وجب على الحكومة الأولى، وهي الحكومة النبوية أن لا تغادر الحكم إلاَّ بعد إصدار مرسوم يقضي بتعيين رئيس الحكومة الخالفة، التي تتولى المنهاج الذي يضمن للمبادىء بقاءها واطراد تقدمها ورسوخها في نفوس الشعب[3].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٣.

(٢) مع أن مبدأ استبعاد الخليفة الحقيقي لرسول الله ﷺ لم تتم من قِبَل الأكثرية من الأمة، بل من قِبَل أكثرية في بقعة جغرافية معينة محيطة ببيت الرسول ﷺ وسقيفة بني ساعدة، وهي تشكل أقلية بالنسبة لعدد المسلمين في المدينة، فلم تستدع الأمة لحضور اجتماع عام كاجتماع الغدير أو اجتماع حجة الوداع لتبلغ بما عليها أن تفعله لاختيار قائدها، وإنما بدا الأمر كمؤامرة مدبَّرة لافشال مخطط الرسول لتغييب خليفته، ولعلَّ من أراد ذلك لم يحسب حساب المستقبل وان الأمور يمكن أن تتدهور إلى الحد الذي يقبل فيه المسلمين ابناء حكام الانحراف الأمويين وغيرهم قادة لهم، وهو ما سبب تمزق هذه الأمة وتخلفها وانحدارها الى يومنا هذا.

(٣) وهو ما فعله الرسول ﷺ بكل تأكيد كما يبدو لمن يقرأ التاريخ الاسلامي وتاريخ تلك الفترة الحساسة على وجه الخصوص. فهذا الدين الذي لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاَّ وتعامل معها وأوجد لها حلاً، لا يمكن أن يتساهل بمثل هذا الأمر الأساسي. ولو افترضنا أن هناك تقصيراً بهذا الأمر لأرجعناه الى الله جلَّ وعلا عن افتراءات الظالمين والمغرضين.. وإلاَّ فهل أدلّ من آياته البينات على من اختصهم بالطهر والعصمة والمودة.. فلماذا نتساهل بها ولماذا نجتهد في تأويلها اجتهاداً غير منضبط معتمدين على الهوى والمصالح..؟

[ولاية النبي المطلقة.. «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم»]

أجل كان من الواجب تعيين رئيس تلك الحكومة بمقتضى روح تلك المبادىء، وبالنظر الى الظروف التي كانت تحيط بالمبادىء أيام النبي ﷺ، وحين وفاته، فقد كانت الحالة الداخلية غير مستقرة، بل كانت تنذر بانتقاض الشعب العربي والقبائل على تلك المبادىء، كما كانت الحالة الخارجية تنذر بالأخطار المخيفة، كما أوضحنا ذلك في بعض الفصول المتقدمة. وإذن فقد كان تعيين ذلك الرئيس ضرورة من الضرورات التي لا غنى عنها ولا محيص عن العمل على مُقتضاها في ذلك الظرف الاستثنائي. ولو لم تكن نصوص الدستور تتضمن ما يخول الحكومة النبوية مثل هذا التعيين في الحالات الطبيعية.

أما إذا علمنا بأن في صلب الدستور من المواد ما يخول الحكومة النبوية إصدار مرسوم مثل هذا التعيين حتى في الحالات الطبيعية، فان الأمر سيزداد وضوحاً وانسجاماً مع المنطق. وقد علمت أن في صلب الدستور الاسلامي مادة تجعل الحكومة النبوية صاحبة الحق في أن تتصرف في شؤون المسلمين كما تريد؛ فلها أن تعين رئيس الحكومة الخالفة، ولها أن تعين من يخلفه إذا رأت ذلك التعيين صالحاً، ونص المادة المذكورة قوله تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾[1].

إنّا لو أردنا أن نعبّر عن ما تضمنته هذه الآية بصيغة (جبرية)، لكانت إرادة النبي طرفاً أول، وأكبر متراجحة جبرية تقديرية قيمية، طرفها الثاني إرادة الأمة، وصيغتها هكذا:

«إرادة النبي أكبر من إرادة الأمة».

فهي لا تجعل من ارادة النبي ﷺ مساوياً لارادة الأمة جمعاء، بل

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦.

تجعل منها ما هي أكبر من ارادة الأمة وزناً، سواء في ذلك منها ما كان في الظروف الاستثنائية أو في الحالات الطبيعية.

أضف إلى ذلك أن التعبير في الآية يفهمنا أن إرادة النبي واذنه وتوكيله يقوم مقام إذن الأمة كلها، وتوكيلها بصورة أشمل، لأن الانتخابات الشعبية يندر جداً أن تكون اجماعية، ولكن انتخاب النبي لوكيل بالنيابة عن الأمة، وبحسب ولايته عليها، يقوم مقام الانتخاب الاجماعي الشامل، ويقوم مقامه بصورة أجدى وأحق، إذ أن الانتخاب الاجماعي الشامل، لو وقع لا يكون مضمون الصلاح، لأن الجماهير، كما عرفت، لا تتمكن من ادراك الأحق والأصلح، ومن الصعب أن تطّلع (الملايين) على طوية فرد لا يتمكن أن يختلط بالملايين، أما انتخاب النبي لفرد بعد صحبته واختباره إياه ومعرفته الحقيقية به معرفة مباشرة، فهو بالطبع مضمون الصلاح والنجاح[1].

إن قوله تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾[2] يعبّرعن جميع هذه المعاني وعن سواها من المعاني، أصرح تعبير وأبلغه.

---

(١) ومن أعلم بعلي عليه السلام من محمد ﷺ وهو نفسه وأخوه وابن عمه وربيبه وصهره؟ أترى ان الأمة ـ لو افترضنا انها اجمعت على استبعاد الخليفة المعدّ من قبل الرسول قد امتلكت الوعي المسدد بالعناية الإلهية الذي امتلكه الرسول ﷺ لتدرك ما سيحل بها بعد العدّ التصاعدي للانحراف. أترى أن عمراً الذي عرف بالزهد والتقشف كان يقبل أن يكون خليفته يزيد أو الوليد؟ اللهم إلاّ أن يكون قد خطط لذلك، وهذا ما لا نعتقد أن من يؤمنون بمناقبيته يفكرون بذلك. فهل تركت الأمة للمصادفات.. وهل حقيقة أننا لا نفهم الاشارات الأكيدة في القرآن وفي البلاغات والأحاديث النبوية، واننا لا نملك الحس والادراك الكافي لفهم لغتنا العربية التي نزل بها القرآن لكي تضيع علينا تلك الاشارات الواضحة؟

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦، وقد أوضحنا ذلك في الفصل السابق وولايته ﷺ مستمدة من ولاية الله المطلقة وهو المتفضل الوهاب المنان على خلقه بكل ما ينعمون به. وهذا التصريح الإلهي جدير أن يلتفت اليه بعناية واهتمام وأن ندرك صلاحياته الواسعة في التعامل مع أمته ومنها تعيين خليفته على هذه الأمة.

وإذا كان للنبي ﷺ هذه الصلاحية الواسعة، وكان اختياره يقوم مقام أفضل انتخاب شعبي في العالم من الناحية الدستورية ومن ناحية النتيجة المطلوبة، والصلاح المضمون، وكانت طبيعة المبادىء تقضي بعدم تركها لانتخابات لا تعرف نتائجها، وكانت ظروف تلك المبادىء حرجة لجدّتها وعدم رسوخها في النفوس وعدم الاستقرار الداخلي وشدة الخطر الخارجي - كان من أكبر الواجبات الملقاة على عاتق الحكومة النبوية، أن تقوم بتعيين رئيس الحكومة الخالفة[1].

---

(١) وهكذا صدر الانذار الإلهي بالعواقب الخطيرة التي ستترتب على عدم تبليغ الأمة بولي أمرها بعد الرسول ﷺ: ﴿يا أيها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس، إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ (المائدة: ٦٧)، ففي الجوامع عن ابن عباس وجابر عن عبدالله رضي الله عنه أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن ينصّب علياً عليه الصلاة والسلام للناس ويخبرهم بولايته، فتخوف أن يقولوا حامى ابن عمه وأن يشقّ ذلك على جماعة من أصحابه، فنزلت هذه الآية، فأخذ بيده يوم غدير خم وقال ﷺ: «من كنت مولاه فعلي مولاه» والآية تعني: إن لم تنصّ بولاية علي فيضيع أمر التوحيد ولا يخلص إيمان الله.
ورواه في المجمع عن الثّعلبي والحسكاني وغيرهما من العامة. وفي (الكافي) عند الباقر عليه السلام في حديث: ثم نزلت الولاية، وانما أتاه ذلك يوم الجمعة بعرفة أنزل الله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾ وكان كمال الدين بولاية عليّ بن أبي طالب سلوات الله وسلامه عليه. فقال عند ذلك رسول الله ﷺ: «أمتي حديثو عهد بالجاهلية، ومتى أخبرتهم بهذا في ابن عمي، يقول قائل، ويقول قائل، فقلت في نفسي من غير أن ينطق به لساني، فأتتني عزيمة من الله تبلة؛ أوعدني إن لم أبلّغ أن يعذبني، فنزلت: ﴿يا أيها الرسول بلّغ...﴾ فأخذ رسول الله ﷺ بيد علي عليه السلام فقال:
«أيها الناس، انه لم يكن نبي من الأنبياء ممن كان قبلي إلاّ وقد كان عمّره الله، ثم دعاه فأجابه، فأوشك أن أُدعى فأجيب، وأنا مسؤول وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟» فقالوا: «نشهد أنك قد بلغت ونصحت وأدّيت ما عليك، فجزاك الله أفضل جزاء المرسلين». فقال: «اللهم اشهد»، ثلاث مرات، ثم قال: «يا معشر المسلمين، هذا وليّكم من بعدي، فليبلّغ الشاهد منكم الغائب». قال أبو جعفر عليه السلام: «كان والله أمين الله على خلقه، وغيبة دينه الذي ارتضاه لنفسه».
وعنه عليه السلام: «أمر الله عزّ وجلّ رسوله بولاية علي عليه السلام وأنزل عليه: ﴿إنما وليكم الله ورسوله..﴾ الآية، وفرض ولاية أولي الأمر، فلم يدرُوا ما هي، فأمر الله محمداً ﷺ أن يفسر =

وقد يقول متوهم: «ان جميع ما ذكر صحيح، بالنظر الى النواميس الاجتماعية الطبيعية، غير أن النبي، لما كان نبياً يوحى اليه، وكان بامكان الوحي أن ينبىء النبي ﷺ بالعواقب ويفهمه مصير المبادىء ومستقبلها، كان من الممكن أن يترك الأمر انتخابياً لأنه يعلم أن المبادىء ستعيش بالرغم من كثرة الأخطار التي تتهددها، وان منهاجه سينفذ على كل حال وإن لم يعيّن رئيس حكومة خالفة، لانه يعلم بواسطة الوحي أن الأمة سوف تنتخب وتوفق في انتخابها، إذ أنه سيؤدي الى قيام حكومة صالحة قوية عازمة على تنفيذ المنهاج الذي يهيىء للمبادىء نموها واطراد تقدمها.

وإذا كان النبي ﷺ يعلم ذلك جاز له أن لا يصدر مرسوم التعيين؛ وهكذا كان، فقد مات الرسول ﷺ وقامت حكومة الخليفة الأول، فأخمدت حروب الردة ووطدت أركان الاسلام في شبه الجزيرة العربية وحملته إلى ما وراء حدودها وتتابع على الحكم، خلفاء نفذوا منهاج الرسالة كما تريده الرسالة وبذلوا أعظم الجهود في تقوية المبادىء وتكثير معتنقيها،

= لهم الآية، كما فسّر لهم الصلاة والزكاة والصوم والحج، فلما أتاه ذلك من الله ضاق بذلك صدر رسول الله ﷺ وتخوّف أن يرتدوا عن دينهم وأن يكذبوه، فضاق صدره، وراجع ربّه عز وجل، فأوحى الله تعالى اليه: ﴿يا أيها الرسول..﴾ الآية، وصدع بأمر الله تعالى ذكره، فقام بولاية علي عليه السلام يوم غدير خم، فنادى: الصلاة جامعة وأمر الناس أن يبلّغ الشاهد الغائب.

قال عليه السلام: «وكانت الفريضة تنزل بعد الفريضة الأخرى، وكانت الولاية آخر الفرايض، فأنزل الله عز وجل: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي..﴾ قال: يقول الله تعالى: لا أنزل عليكم بعدها فريضة، قد أكملت لكم الفرائض». الفيض الكاشاني ـ تفسير الصافي، م٢، ص٥١ ـ ٥٢ ـ ٥٣.

ولا شك أن النبي ﷺ أدرك أن قوة كبيرة من المسلمين سترفض مبايعة علي عليه السلام ولو أدى بها الأمر إلى الردّة وإشهار السيوف. وقد تحققت ظنونه فيما بعد، غير أنه قد صدع بأمر ربه وأدى أمانته للأمة، أما أغلبيتها فقد تخلّت عن مسؤوليتها وأمانتها وفرّطت بتلك الأمانة. ولو أن الله ـ سبحانه ـ كان يعلم أن استجابة الأمة ستكون سريعة وتلقائية لهذه الولاية، لما خاطب رسوله الحبيب ﷺ بهذه اللهجة الحازمة.

وما تزال نتائج أعمالهم باقية حية إلى زماننا هذا».

ولكن التأمل في الحوادث التاريخية الاسلامية سيؤدي بنا الى ما يناقض هذا الاستنتاج، وسيؤدي بنا الى القول بأن الرسول إذا كان قد نظر الى مستقبل الاسلام بعين تبصر الغيوب، فلا بد أن يكون قد لجأ إلى التعيين لأن علمه بالنتائج البعيدة، سيريه الأخطار واقعة بصورة محتومة؛ فهو لن يتحمل مسؤوليتها، ولن يقرّ الأمة عليها بتركه أمر الحكومة الى انتخاب يؤدي في النهاية الى افتراق كلمة الأمة وتفسخها وتضاؤل أمرها وضعف ايمانها بمبادئها[1].

---

(١) وإذا كان القرآن يدعو للوصية في الأمور العادية البسيطة مثل الثروات الشخصية وغيرها ويتحدث عنها حديثاً مسهباً ويوضحها الرسول ﷺ بنفسه، فكيف يغفل عن إرث ضخم يتعلق بمستقبل ومصير عشرات الأجيال من الأمة الاسلامية!

يقول تعالى: ﴿فلأمّه السدس من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾ (النساء: ١١).

﴿فلهنّ الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين﴾ (النساء: ١٢).

﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ (النساء: ١١).

﴿فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين﴾ (النساء: ١٢).

﴿فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾ (النساء: ١٢).

﴿كُتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين﴾ (البقرة: ١٨).

﴿شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم﴾ (المائدة: ١٠٦).

هذا في الأمور العادية الحياتية، أما في أمور الرسالة والدعوة والتبليغ فقد وردت اشارات عديدة واضحة: ﴿ووصىٰ بها ابراهيم بنيه ويعقوب﴾ (البقرة: ١٣٢).

﴿ذلك ما وصّاكم به لعلكم تعقلون﴾ (تذكرون) (تتقون)﴾ (الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣).

﴿وما وصّينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين﴾ (الشورى: ١٣).

هذا مع جملة أمور أخرى نحب أن ننبّه عليها هنا. أترى أن حامل القرآن وأمين الله ﷺ لم يفهم هذه المضامين العديدة وأغفل أمر الوصية بالأمة وترك تراث الاسلام العظيم نهباً للنزوات؟ وقد طلب الرسول ﷺ من المسلمين الوصية كتابة. فقد ورد في صحيح مسلم:

روى سالم عن ابيه أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «ما حق امرىء مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ثلاث ليال إلاّ ووصيته عنده مكتوبة».

=

[تداعيات السقيفة]

إن الأسلوب الذي سارت عليه الخلافة في إيصال الخلفاء الى الحكم ـ من انتخاب طبقي فتعيين فردي الى شكل شوروي انحصاري هو الذي أنتج تلك الأحداث الداخلية الهامة التي كان في طليعتها افتراق كلمة المسلمين في أيام عثمان، وتتابع الثورات الداخلية في عهد خلافة (الامام)، تلك الثورات الهامة التي جعلت من المسلمين معسكرين أو ثلاثة[1].

وأريقت فيها الدماء بسخاء وبدون حساب، وكان من نتائجها نشوء حزب ثوري حارب الدولة الاسلامية عشرات بل مئات السنين[2]، كما كان نتائجها وصول الحكم إلى أيدي الأمويين المعروفين بعدم تحمسهم لصيانة

= وروى ابن عمر ـ كما ورد في صحيح مسلم أيضاً ـ أن رسول الله ﷺ قال: «ما حق امرىء مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلاّ ووصيته مكتوبة عنده»، ج١١ كتاب الوصية، ص٧٤ ـ ٧٥.
وروى مسلم في الصفحة ذاتها أن ابن عمر قال: ما مرّت عليَّ ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ قال ذلك إلاّ وعندي وصيتي.
وهذه شهادات تفنّد ما يريد أن يزعمه منكرو الوصية في مثل هذا الأمر الخطير الذي يتعلق بمستقبل ومصير الأمة بل البشرية كلها لا مصير عدة شويهات وبعير . . !

(١) ولعل الصحابة الأوائل لو علموا ماذا سيحدث بعد ذلك لعدلوا عن ابعاد أمير المؤمنين عليه السلام، اللهم إلاّ أن يوجد بيننا من يعتقد أنهم قد تعمدوا ذلك وان فعلهم كان صحيحاً جملةً وتفصيلاً وكانت عواقبه جيدة. ان هؤلاء المدافعين يلحقون بهم أكبر اساءة لو فكروا بهذا الشكل.

(٢) وهم الخوارج الذين ألحّوا على علي عليه السلام بقبول التحكيم في صفين عندما دفع أهل الشام المصاحف مكيدة من معاوية وعمرو بن العاص، ثم خرجوا عليه عندما علموا نتيجة التحكيم وقالوا: «لا حكم إلاّ لله» وعسكروا بحروراء، فبعث اليهم ابن عباس فخاصمهم وحجّهم، فرجع منهم قوم كثير، وثبت قوم، وساروا الى النهروان، فعرضوا للسبيل، فسار اليه علي عليه السلام فقتلهم بالنهروان، وقتل منهم ذا الثديّة وذلك سنة٣٨هـ. وقد استطاع الخارجي عبد الرحمن بن ملجم أن يغتال أمير المؤمنين عليه السلام بينماكان يؤدي صلاة الصبح في مسجد الكوفة سنة ٤٠هـ. وقد استطاع من نجى في النهروان أن يعيدوا تشكيل فرق أخرى من الخوارج ظلّت تقاتل الخلفاء الرسميين عشرات السنين.

المبادىء الاسلامية والذين كان منهم أمثال يزيد بن معاوية، ممن كان منهاجهم يتنافى مع المبادىء الاسلامية تنافياً يكاد يكون مطلقاً، وتنافياً كان له أثره الكبير في إضعاف الروح الدينية وانتشار الفساد والرذائل وأنواع الكبائر والموبقات في صفوف المسلمين انتشاراً كان من نتائجه تبدل النفسية الاسلامية وتغيرها تغيراً تاماً في العصر الأموي والعصور التي تلته، إذ حلت الأثرة محل الايثار، والنفعية محل الصالح العام، وسيطر الاستبداد والظلم على كل أرجاء المملكة الاسلامية ولم يبق من المبادىء الاسلامية إلاَّ النواحي الشكلية؛ إذ بعدت النفوس عن كل ما هو جوهري فيه، فأصبح المسلم ينطق بكلمة التوحيد: «لا إله إلاَّ الله» بلسانه، وقد جعل لله في قلبه الف شريك ومعبود، بل هو لم يبق لله من العبادة إلاَّ تلك الطقوس الشكلية التي يأتي بها بدافع الآلية والعادة وكثيراً ما يأتي بها تقرباً لغير الله ورياء، يجر من ورائه المنافع الخاصة، فهو في الحقيقة يعبد تلك المنافع بعد أن مسخت نفسيته واستبدل بتلك الحرية الجوهرية عبوديته وضعته وانحطاطه عن مستواه الاسلامي الانساني[١].

وإن من الأحداث الهامة التي جاءت نتيجة لسير الخلافة على ذلك الأسلوب قتل علي بن ابي طالب وسواه من أصحابه الشهداء الصديقين، فقد كان قتل (علي) نتيجة من نتائج نشوء ذلك الحزب الثوري ـ حزب الخوارج ـ الذي نشأ عن قضية التحكيم التي ختمت بها حرب صفين وجاءت ذيلاً من ذيولها، وان أسباب حرب صفين تتلخص في تأمير معاوية على الشام شطراً

(١) فلا شكّ أن الملك المطلق غير المقيّد أو المنضبط جعل (الخلفاء الأمويين) ينظرون إليه كإرث شخصي ويتعاملون مع الناس على أساس ذلك، فالخلافة لم تعد إلاَّ ألفاظاً متعارفة والطقوس العامة أصبحت تؤدىٰ دون النظر الى محتواها ودلالاتها الحقيقية. اختلال المقاييس في ظل تلك الدولة وتعارضها مع المقاييس الاسلامية الصحيحة أوجد حالة من الارتباك وفجوة عميقة بين المسلمين ودينهم بعد أن استسلموا لمناهج الانحراف وأساليب المنظمة القوية، فأصبحوا ظل أمة بعد أن كانوا أمة حقيقية لها كيان ووجود واضح.

من خلافة عمر وطيلة أيام عثمان، ذلك التأمير الذي مكّن لمعاوية ـ الأموي المعادي لعلي وحزبه ـ في ارض سوريا، يضاف الى هذا قتل عثمان ـ نتيجة لانقسام كلمة المسلمين واضطراب حبلهم في أيام خلافته ـ الذي ساعد على توجيه تهمة التآمر عليه الى علي[1].

كما أن قتل الحسين وأصحابه المخلصين كان من نتائج تأمير معاوية ووصوله الى الحكم وأسبابه تتصل بتلك الأسباب التي أدت الى مصرع الامام علي عليه السلام، الى ما سوى ذلك من أوضاع شاذة عن المنهاج

---

(١) ولا شك أن الخوارج أوجدوا منطقاً متشدداً غير عقلاني ومهّدوا لظهور تيارات متطرفة تتمسك ببعض القشور والشعارات، إلاّ أنهم كانوا فيم بعد شوكة بأعين حكام الظلم والانحراف، ولذلك جاء نهي الامام علي عليه السلام عن قتالهم وقوله فيهم: «لا تقاتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه. (يعني معاوية وأصحابه)» فالخوارج من بعده وإن كانوا قد ضلّوا بسوء عقيدتهم فيه، إلاّ أن ضلتهم لشبهةٍ تمكنت من نفوسهم فاعتقدوا الخروج عن طاعة الامام مما يوجبه الدين عليهم، فقد طلبوا حقاً وتقريره شرعاً فأخطأوا الصواب فيه، لكنهم بعد أمير المؤمنين يخرجون بزعمهم هذا على من غلب على الأمرة بغير حق، وهم الملوك الذين طلبوا الخلافة باطلاً فأدركوها وليسوا من أهلها، فالخوارج على ما بهم أحسن حالاً منهم. (نهج البلاغة ـ شرح الامام محمد عبده ـ مؤسسة الأعلمي ـ بيروت ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م، ص١٣٢).
والاشارة إلى تأمير معاوية شطراً من خلالة عمر وطيلة أيام عثمان ومعاملته معاملة خاصة تختلف عن معاملة بقية الولاة والأمراء تثير الاستغراب خصوصاً من قِبَل عمر الذي اشتهر بشدته وصرامته مع عماله وقد عاقب وغيّر معظمهم لأتفه الأسباب إلاّ معاوية رغم ما كان يراه منه من تجاوزات تحدثت عنها كتب التاريخ الاسلامي بإسهاب. وكان يقول عنه: «هذا كسرى العرب» لما كان يرى من مظاهر الأبّهة التي كان يحيط بها نفسه..
ومن المؤكد أن معاوية كان أحد الأسباب الرئيسية في مقتل عثمان الذي أراد الاستجابة ـ عدة مرات ـ لمطاليب الثوار، إلاّ أن معاوية ومروان منعاه من ذلك وزيّنا له الوقوف بوجوههم رغم نصائح الامام علي عليه السلام له.. كما أن معاوية الذي استفز الثوار عندما أرسل نجدة لعثمان وأمرها أن لا تدخل المدينة حتى لو قتل عثمان، استفاد من محصلة ذلك إذ أن الثوار قتلوا عثمان فعلاً والنجدة لم تدخل المدينة. ومن المؤكد أنه أراد المتاجرة بدم الشيخ الأموي العجوز ونشر قميصه لتتاح له فرصة مناوئة أمير المؤمنين عليه السلام التي كانت الدلائل كلها تشير إلى أنه سيتولى منصب الخلافة الرسمي ـ واتهامه بأنه هو الذي حرّض على قتله.. وهو الذي حصل فعلاً.

الاسلامي، جاءت كلها نتيجة للأسلوب الذي تمشت عليه الخلافة في إيصال الخلفاء الى الحكم[1].

ولن تشك ـ إذا تأملت ـ في أن مرسوم تعيين علي، لو نفذ بعد وفاة الرسول ﷺ لنجت الأمة الاسلامية من كل تلك النكسات. فعليٌ المحافظ على كل مبادىء القرآن والرسول، لو ترأس الحكومة الخالفة، وامتدت أيام حكمه بعد الرسول ثلاثين سنة ـ بصرف النظر عن أنه لو كان أول خليفة لما

(١) فلم يكن يزيد يتستر مثل والده معاوية على انحرافاته وشذوذه، وكان يمارس رذائله على رؤوس الأشهاد دون حياء أو خوف، بعد أن استسلمت الأمة التي روّضها معاوية وأصبحت جثة هامدة بين يدي يزيد.

ومهما قيل عن ثورة الحسين عليه السلام، فانها كانت الأمر الوحيد الذي كان عليه القيام به ولم يكن له خيار في ذلك؛ فلو وضع يده بيد يزيد وبايعه لأعطى حكمه المنحرف شرعية يظل مسؤولاً عنها إلى الأبد ولضاع الاسلام ايضاً.. فما حجة من يتصدى للظلم والانحراف بعد الحسين عليه السلام لو أنه هادن الظلم والانحراف أو هادنه أو سكت عنه، وهكذا خرج رغم قوة العدو وخذلان الناصر وقلة الصديق أمام سمع الأمة وبصرها يوم عرفة من مكة متوجهاً إلى العراق لخوض المعركة ضد دولة الظلم المنحرفة رغم علمه المسبق ـ بما ورد اليه عن جده رسول الله ﷺ، وبالمعطيات التي كانت ستنجم عن المواجهة مع يزيد وحكمه ـ أنه سيموت وأصحابه فيها.

وقد بات واضحاً للأمة بعد ذلك انتصار الحسين عليه السلام في المعركة رغم استشهاده ومقتله تلك القتلة المروعة، فلم يوجد الاسلام لجيل واحد أو عدة أجيال لينتهي بعد ذلك وإنما وجد ليسود ولتتمتع البشرية بعدالته وعطائه إلى الأبد وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولئن قتل الحسين عليه السلام وانهزم الجيل الذي عاصر يزيد أمام يزيد وبدت دولة الظلم الأموية مزدهرة قوية في الظاهر، فانها حملت معها عناصر موتها منذ البداية لأنها لم تتم على أساس صحيح، وكانت ثورة الحسين عليه السلام المعول الذي هدمها وأطاح بها، إذ انتبهت الأمة اليها وأدركت السبب الذي ضحى أمام الأمة بنفسه من أجله.. وهو الاسلام، فأخذت تلاحظ وتراقب وتنتبه إلى الحكّام المنحرفين على مرّ الأزمان وتحاسبهم وتعاقبهم إذا أتيحت لها الفرصة...

صحيح أن الأهداف التي حققها الامام الحسين عليه السلام عظيمة وهائلة.. غير أن فقدان المسلمين له وقتله تلك القتلة المروعة والتمثيل بجثته وسبي عياله وأطفاله وحملهم بأخشن مركب من كربلاء الى دمشق تعدّ كارثة كبيرة لا يمكن أن ينساها المسلمون.

قتل غيلة بسيف ابن ملجم الخارجي، ولامتد عمره أكثر من ذلك ـ لاستقرت الأمور في المملكة الاسلامية ورسخت المبادىء في النفوس، واعتاد المسلمون على الخضوع للحق وتقديسه، ولتقدم الاسلام الى الامام بخطى ثابتة متزنة. وإنا نقدر، وما ذلك ببعيد أنه لو أضاف الى ذلك تعيينه حاكماً مخلصاً كفؤاً متفانياً في خدمة الاسلام، يقوم بالأمر بعده ـ والمسلمون بأجمعهم متحدو الرأي ومتفقون على العمل في سبيل تقوية الاسلام وتقدمه ـ لوصل العالم منذ ذلك العصر الى ما يصبو اليه اليوم فلا يجده، من اقامة حكومة عالمية، تقوم على مبادىء الحق والعدالة[1].

فلنا أن نقول: ان النبي ﷺ لو علم مستقبل الأمة ونظر الى ذلك بنور الوحي، لما عدا عن العمل على ما تقتضيه روح المبادىء وحراجة الظروف وصلاحيته الواسعة من اصدار مرسوم تعيين رئيس الحكومة الخالفة[2].

(١) فمن حق المؤلف والمسلمين جميعاً أن يفترضوا هذا الفرض الذي كان من الممكن أن يتحقق لو أن الأمور سارت كما أراد وخطط لها النبي ﷺ..

فعلي الشاب، الذي تربى في أحضان محمد ﷺ منذ الطفولة وآمن بالاسلام ايماناً مطلقاً لم يشبه أي تصور أو تصرف جاهلي، وكان أعلم الأمة وأتقاها وأعدلها، كان جديراً لو حكم المسلمين ثلاثين أو أربعين عام، ثم مهّد لخليفته الذي يسير على نفس خطاه.. وهكذا، ان يحقق عدالة الله على الأرض وأن يسعد مليارات البشرة وأن يبسط الاسلام على كل رقاع الأرض ولتحققت حكومة الاسلام العالمية. غير أن مخطط النبي ﷺ قبر معه ـ يا للأسف ـ ومات حزيناً مهموماً وهو يرى من يتهمه بأنه يهجر، مع أن احداً لم يتهم الذي اتهمه بأنه كان كذلك عندما خطط لسقيفة أخرى تكون نتائجها خليفة ضعيف غير مؤهّل لقيادة المسلمين ينحاز لأقاربه وعشيرته على حسابهم.

(٢) ولا بد أنه ﷺ يعلم مستقبل الأمة وحراجة الظروف. أترى أنه لا يأخذ المستقبل بعين الاعتبار ولا يعيش إلاّ لليوم الذي هو فيه؟ أليس هو شريك القرآن الناطق الذي يريد الله ـ سبحانه ـ أن يحفظه بحفظه الى قيام يوم الدين، ويريد بدوره أن يحفظ الاسلام لا في زمانه وحسب وإنما في كل زمان ومكان.

[استنطاق آية كتابية ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا..﴾]

أضف الى ذلك أن الفرض ـ وأعني به فرض اهمال التعيين اعتماداً على ما يعلمه من مستقبل الأمة بواسطة الوحي ـ غير جائز ولا صحيح من أوله، وكيف يصح ذلك؟ وهذا الوحي ينطق بتعيين ولي الأمة بعد رسول الله ﷺ في قوله تعالى:

﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون، ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا، فان حزب الله هم الغالبون﴾(1).

إذ يجمع المفسرون ـ كما نقل ذلك القوشجي في شرح التجريد وغيره ـ ويوافق إجماعهم الأخبار الدالة على نزولها في علي بن أبي طالب عليه السلام إذ تصدق بخاتمه على سائل وهو في الركوع من صلاته. وقد

(1) سورة المائدة، الآية: ٥٥ ـ ٥٦، فقد روى (الشبلنجي) في (نور الأبصار) و(الفخر الرازي) في تفسيره الكبير، في ذيل تفسير قوله تعالى: **﴿إنما وليكم الله ورسوله..﴾** الآية، واللفظ للشبلنجي، قال(ص٧٠): وعن أبي ذر الغفاري قال: صليت مع رسول الله ﷺ يوماً من الأيام الظهر، فسأل سائل في المسجد، فلم يعطه أحد شيئاً. فرفع السائل يديه الى السماء وقال: اللهم اشهد أني سألت في مسجد نبيك محمد ﷺ فلم يعطني أحد شيئاً. وكان علي عليه السلام في الصلاة راكعاً، فأومأ اليه بخنصره اليمنى وفيها خاتم، فأقبل السائل، فأخذ الخاتم من خنصره، وذلك بمرأى النبي ﷺ، وهو في المسجد، فرفع رسول الله ﷺ طرفه الى السماء وقال: اللهم إن أخي موسى سألك فقال: **﴿رب اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيراً من أهلي، هارون أخي اشدد بي أزري وأشركه في أمري﴾** فأنزلت عليه قرآناً: **﴿سنشدّ عضدك بأخيك، ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون اليكما﴾** اللهم واني محمد نبيك وصفيك، اللهم اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واجعل لي وزيراً من أهلي علياً اشدد به ظهري. قال ابو ذر: فما استتم دعاؤه حتى نزل جبرئيل عليه السلام من عند الله عز وجل وقال: يا محمد اقرأ: **﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾**. قال: نقله ابو اسحاق احمد الثعلبي في تفسيره ـ فضائل الخمسة من الصحاح ـ الفيروزآبادي ١/ ٣٨٤.

أورد في (غاية المرام) في الباب (١٨)، ٢٤ حديثاً في ذلك عن طريق الجمهور[1].

فالآية تثبت الولاية للذين آمنوا لهم هذه الصفات التي لم تكن لأحد سوى علي عليه السلام حين نزول الآية. وتثبت هذه الولاية لمن آتى الزكاة حين ركوعه، من المؤمنين بالشكل الذي تثبت به الولاية لله ولرسوله بالنسبة الى المسلمين. وقد جاء اثبات هذه الولاية للأولياء الثلاثة، بشكل يفيد حصر الولاية فيهم، كما تدل عليه (انما) ولفظ [الولي] في الآية يفيد معنى من له حق التصرف؛ إذ لا يصح حملها على معنى المحب أو الجار أو التابع أو الصديق أو الناصر أو الحليف؛ فان اثبات الصداقة والجوار والحلف والتبعية لله غير صحيح، كما أن الحصر لا يصح إذا أريد من الولي الناصر أو المحب، فان غير الأولياء الثلاثة، كالثلاثة في ذلك، فالمؤمنون الذين يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة لعدم وجود مال لديهم يحسبون من الأنصار والمحبين، كالذين يؤتون الزكاة في حال الركوع من دون فارق، خصوصاً إذا كانوا يقومون بأعمال هي أجلّ من الزكاة كالجهاد في سبيل الله وغير الجهاد من الأعمال الصالحة، كما أنه لا يصح أن يراد من الولي من يتولى ويحب. وأعني به من يجوز للمسلمين أن يركنوا اليه ويمنحوه مودتهم في مقابل من لا تجوز مودته والركون اليه ممن هو حرب على الدين، فإن إرادة هذا المعنى أيضاً تنافي الحصر، فان كل مؤمن يجوز الركون اليه وإن كان لا يؤتي الزكاة سائلاً لعدم وجوبها عليه أو لعدم استطاعته. .

---

(١) ويقول الفيض الكاشاني في تفسير الصافي ٢/ ٤٦ (. . والأخبار مما دونه العامة والخاصة في أن هذه الآية نزلت في امير المؤمنين عليه السلام حين تصدق بخاتمه في ركوعه، وذكر قصته عن ابن عباس وغيره، ويمكن التوفيق بين ما رواه في الكافي أنَّ المصدّق به كان حلة وبين ما رواه غيره واشتهر بين الخاصة والعامة أنه كان خاتماً بأنه لعلّه تصدّق في ركوعه مرّة بالحلة وأخرى بالخاتم، والآية نزلت بعد الثانية. وفي قوله تعالى: ﴿ويؤتون. .﴾ اشعارٌ بذلك لتضمنه التكرار والتجدّد كما أن فيه اشعار بفعل أولاده أيضاً.

وإذ فلن يراد بالولي إلاّ المعنى الأول وأعني به من له حق التصرف بشؤون المسلمين العامة، ولن يصح الحصر إلاّ إذا أريد هذا[1].

وان كثيرين من الناس يتوهمون العموم من الآية، إذ يرون أن الولاية ثابتة لكل مؤمن يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة في ركوعه سواء في ذلك من فعل هذا حين نزول الآية أو بعدها، ويرون أن هذا هو ظاهر الآية مؤيداً بورود الآية بصيغة الجمع.

[تخصيص.. لا تعميم]

ولكن التأمل في الآية يدلنا على أن المقصود في الآية غير العموم، فان من الصفات ما يكون سبباً في ورود الحكم على الموضوع، وبذلك يكون الحكم شاملاً لكل من شمله الوصف، وليس هذا بعزيز في كتاب الله: ﴿ومن قتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم﴾.

﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين﴾ حيث كان القتل

(١) وهذه التفاتة رائعة من المرحوم المقدس، فكلمة المولى لها عدة معانٍ منها: المحب، الجار، النزيل، الشريك، الابن، ابن العم، ابن الأخت، الصهر، القريب، الناصر، الأولى بالأمر، العم، الصاحب، المعتق، الرب، المالك، السيد غير المعتق، العبد، التابع الأحق، الأجدر. وعلى العموم لها قرابة ستة وعشرين فعلى أظهرها معنيان: السيد والعبد.. فهل جمع الرسول ﷺ الناس ليبلغهم معنى من هذه المعاني غير المنسجمة، حاشاه، بل أراد أن يقول أنه بمنزلته وانه سيدهم وقائدهم وأميرهم ومتبوعهم، وكما انه ﷺ قد استمد هذه الصفات من سيد الكون المطلق، فانه أراد التنبيه إلى ان علياً يستمد هذه الصفات منه جلّ وعلا ايضاً وذلك عن طريق تبليغه ﷺ إياهم ذلك وهو الذي لا ينطق عن الهوى.. والمسدد بالوحي والمعصوم من الخطأ أو الزلل أو السهو أو النسيان، وهكذا نفهم من لفظة الولي معنى من له حق التصرف، وليس المسلمون متساوون في ذلك وإنما أوكله الله لنبيّه ووصي نبيّه الذي أجمعت روايات معتبرة عديدة أنه هو المعنى بـ﴿الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ ولفظة الجمع هنا تفيد المفرد أيضاً كما ورد في أماكن عديدة ايضاً.

العمدي سبباً لدخول النساء، وجاء الحكم بالارث المضاعف مرتباً على أن الوارث من أولاد الموروث المذكور.

ومن الصفات ما لا يصلح تعليلاً للحكم إذ يكون سبب ورود الحكم على الموضوع شيئاً آخر غير مصرح به، ويكون الوصف المذكور مشيراً إلى الموضوع كعلامة جيء بها للدلالة عليه والتعريف به، ومثال ذلك أن نقول: (هذا الجالس يجب اكرامه). فان الجلوس لا يذكر كسبب لوجوب اكرام من يجب اكرامه ليجب اكرام كل جالس، وانما يذكر معرفاً بالموضوع ومساعداً على تعيينه، وأما السبب المبرر للأمر باكرامه فشيء آخر غير الجلوس.

ومن هذا النوع الصفات المذكورة في الآية، ذلك أن الحكم المذكور فيها وأعني به (الولاية) لا يجوز أن يكون سببه الايمان وإقامة الصلاة وايتاء الزكاة حين الركوع، فان هذه الصفات على ما لها من شأن ديني هام، لا تكفي وحدها سبباً لمنح الولاية لمن اتّصف بها، إذ الولاية مرتبة عظمى وأكبر امتياز بعد النبوة، وامتياز ينزل به الوحي، ويمنح بمرسوم إلهي، فلن تكفي الصفات المذكورة في استحقاقه، ولن تكون وحدها سبباً لمنحه، فأكبر الامتيازات التي تمنحها العظمة الإلهية إنما تمنح لأفضل فرد أو لأفضل طبقة، ممن يوجد فيه كل ما يوجد في غيره من الفضائل، ولا يوجد في غيره كل ما يوجد فيه[1]. والصفات المذكورة في الآية ليست كل الفضائل ولا كل ما يرضي العظمة الإلهية، والمؤمن الذي يتّصف بهذه الصفات وحدها، لا

(١) وفي هذا يقول أحمد بن حنبل: ما ورد لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ من الفضائل ما ورد لعلي رضي الله عنه. أخرجه الحاكم. وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عباس قال: كانت لعلي ثمان عشرة منقبة ما كانت لأحد من هذه الأمة. وأخرج الطبراني في الأوسط والصغير عن أم سلمة قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: «علي مع القرآن والقرآن مع علي، لا يفترقان حتى يردا عليَّ الحوض».. جلال الدين السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ـ دار الفكر ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م ص١٥٧ ـ ١٦٢.

يساوي من يتصف بها ولا يكتفي بها، بل يضم اليها كل الفضائل وجميع الأعمال الصالحة، ولا يقترب محرماً، فلو كان المقصود في الآية ذكر الأوصاف التي تصلح سبباً لمنح هذا الامتياز لما اكتفى بالأوصاف المذكورة فيها، بل كان من اللازم أن يوصف الذين آمنوا بأنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويعملون جميع الصالحات ويتحلون بجميع الفضائل ولا يقترفون إثماً، لأن حج البيت الحرام، وأداء الصيام والجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والاخلاص للحق والتفاني في خدمته والعلم بما أنزل الله وبالأساليب الصحيحة التقدمية والحزم في تطبيقها، والزهد في الدنيا، واجتناب جميع الآثام، كلها فضائل وأعمال صالحة، وجميعها ضرورية في تكوين الشخصية المفضلة التي تستحق أن تمنح هذا الامتياز العظيم[1].

فعدم ذكر ما يشمل جميع الفضائل والأعمال الصالحة، والاكتفاء بذكر بعض الأعمال الصالحة التي لا تصلح بمفردها سبباً لمنح الامتياز المذكور، يدلنا على أن الصفات لم تذكر كأوصاف تعليلية للحكم ـ الولاية ـ حتى يشمل الحكم كل من يتصف بها، وإنما ذكرت أوصافاً مشيرة الى الموضوع، ومساعدة على تعيينه لأن الموضوع شخص واقعي، لا كلّي عام. وقد جاءت هذه الأوصاف تعرفنا بذلك الشخص، وتساعدنا على تعيينه، وهي كالأوصاف التي نستعملها في محاوراتنا المتعارفة من أجل هذه الغاية.

(أكرم الرجل الطويل الجالس على الكرسي)، في أنها صفات معرّفة

(١) وهذه ملاحظة أخرى جميلة جديرة أن يلتفت اليها جيداً، فمواصفات الولي لا تتمثل بالذي يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة وهو راكع وحسب، فهذا أمر يستطيع أن يشترك فيه الكثير من المسلمين، وإنما وردت هذه الاشارة الإلهية في معرض التعريف بشخص معين لا غير قام بعمل معين في وقت معين وهو علي عليه السلام، وذلك في محاولة للفت الأنظار اليه والتمسك بولايته كما دعا النبي ﷺ الى ذلك صراحة في عدة مناسبات.

على شخص مخصوص، لا يعمل بها في كل مورد ولا يصح تطبيقها على كل طويل يجلس على الكرسي، لأنها لم تذكر سبباً للأمر باكرامه ليجب إكرام كل من له هذه الأوصاف، فان سبب الاكرام شيء آخر، غير الطول والجلوس على الكرسي، وأوصاف الآية مثل هذه الأوصاف، فان سبب اعطاء الولاية ما هو أسمى عن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة حين الصلاة، فان سبب اعطاء الولاية ما هو أسمى من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة حين الصلاة، وأعني به تلك الفضائل الكبرى التي احتشدت بجملتها لتملأ تلك النفس العالية المقدّسة والتي جاءت أوصاف الآية للتعريف بها ولتعيينها وحسب.

وإذا علمنا ذلك، فعلينا أن نفتّش عمن اتَّصف بها حين نزول الآية، لنعرف بها الشخص الذي تعنيه وتعرّفنا به، وقد علمت أن الأحاديث الواردة من كل طريق اسلامي، تحدثنا أن علياً هو الذي كانت له هذه الأوصاف حين نزولها، ويكفي بعد كل هذا الايضاح أن تحدثنا عنه ولا تحدثنا عن غيره.

[تصريحات النبي ﷺ بشأن علي عليه السلام تؤكد مضمون الآية الكريمة]

وهب أن الآية غامضة الدلالة على ما نحن بصدده، فإنّا بغنى عن دلالتها. فقد علمت أن رئيس الحكومة الخالفة من وظيفة الحكومة النبوية، وداخل في نطاق صلاحيتها، وعليها أن تتولى أمر إصداره بنفسها، وليس على الوحي أن ينزل بالتعيين مباشرة[1]، وإذا نزل الوحي بالتعيين يكون تفضلاً واهتماماً فوق العادة بأمر التعيين زيادة في تأكيده، ومن باب قيام الآمر الأعلى مباشرة بعمل هو من وظيفة مأموره بحسب الترتيب التسلسلي. وإنما

(١) ولعلَّ الوحي لو نزل بذلك صراحة وخالفه قسم من الأمة بعد ذلك، وهو ما كانت الدلائل تشير اليه، لرتب ذلك مسؤولية قتالهم حال رفضهم ذلك وبعد وفاة النبي ﷺ مباشرة.. ولنا أن نتصور ما يمكن أن يحدث عندئذٍ لو قامت الحرب بين المسلمين في تلك الفترة الحرجة الدقيقة... أما وأن بعض المسلمين تأوّلوا أمر الخلافة ـ حتى وإن كانوا مخطئين ـ فان ذلك يطرح عن كاهل المسلمين أمر محاربتهم ويترك حسابهم ليوم الحساب.

يقوم به الآمر الأعلى لما له من ولاية على مأموره أو لما له من الحق في ذلك بصفته الآمر الأعلى.

وها انّا حين نرجع الى نصوص السنّة النبوية، نرى أن النبي قد أدلى بتصريحات كثيرة في شأن هذا التعيين، وهي كثيرة ومتعددة الأساليب، ولكنها على كثرتها وتعدد أساليبها تجمع على تعيين علي ولياً للمسلمين بعد رسول الله ﷺ، وقد جاءت هذه التصريحات النبوية بادىء بدء في مواقف متفرقة لفرد أو لجماعة، ولكنها لم تتخذ شكل الاعلان العام إلاّ في حجة الوداع التاريخية، إذ ختم النبي مواقفه التبليغية فيها بموقفه في (غدير خم) الذي أبلغ فيه جماهير المسلمين المتجمعة أمر تعيين علي ولياً للمسلمين في شكل بلاغ عام، وإنا سنورد أولاً بعض تلك التصريحات التي أدلى بها في مواقف متفرقة[1]

---

(١) ويلخّص الشيخ عبد الحسين الاميني في موسوعته الكبير (الغدير) واقعة الغدير بقوله: (أجمع رسول الله ﷺ الخروج إلى الحج في سنة عشرة من مهاجره، وأذّن في الناس بذلك، فقدم المدينة خلق كثير يأتمون به في حجته تلك التي يقال عليها حجة الوداع. وحجة البلاغ، وحجة الكمال، وحجة التمام، ولم يحج غيرها منذ هاجر إلى أن توفاه الله، فخرج ﷺ من المدينة مغتسلاً متدهناً، مترجلاً متجرداً في ثوبين صحاريين، إزار ورداء، وذلك يوم السبت لخمس ليال أو ست بقين من ذي القعدة، وأخرج معه نساءه فكلهن في الهوادج، وسار معه أهل بيته، وعامة المهاجرين والأنصار، ومن شاء الله من قبائل العرب وأفناء الناس.

وعند خروجه ﷺ أصاب الناس بالمدينة جُدَري أو حصبة منعت كثيراً من الناس من الحج معه ﷺ، ومع ذلك كان معه جموع لا يعلمها إلاّ الله تعالى. وقد يقال: خرج معه تسعون الف، ويقال مائة الف وأربعة عشر الفاً، وقيل مائة ألف وعشرون الفاً، وقيل مائة ألف وأربعة وعشرون الفاً، ويقال أكثر من ذلك، وهذه عدة من خرج معه، وأما الذين حجوا معه فأكثر من ذلك كالمقيمين بمكة والذين أتوا من اليمن مع علي أمير المؤمنين وأبي موسى.

أصبح ﷺ يوم الأحد بيلملم، ثم راح فتعشىٰ بشرف السيالة، وصلى هناك المغرب والعشاء، ثم صلى الصبح بعرق الظبية، ثم نزل الروحاء، ثم سار من الروحاء فصلى العصر بالمنصرف، وصلى المغرب والعشاء بالتعشى وتعشى به، وصلى الصبح بالاثابة، واصبح يوم الثلاثاء بالعرج واحتجم بلحى جمل وهو (عقبة الجحفة) ونزل السقياء يوم الاربعاء، وأصبح بالابواء، وصلى هناك، ثم راح من الابواء ونزل يوم الجمعة الجحفة، ومنها الى قديد وسبت فيه، وكان يوم =

الأحد بعسفان، ثم سار فلما كان بالغميم اعترض المشاة فصفّوا صفوفاً فشكوا إليه المشي، فقال: استعينوا بالنسلان «مشي سريع دون العدو»، ففعلوا، فوجدوا لذلك راحة، وكان يوم الاثنين بمر الظهران. فلم يبرح حتى أمسى وغربت له الشمس بسرف، فلم يصلّ المغرب حتى دخل مكة، ولما انتهى الى الثنيّتين، باب بينهما، فدخل مكة نهار الثلاثاء.

فلما قضى مناسكه وانصرف راجعاً إلى المدينة ومعه من كان من الجموع المذكورات، وصل الى غدير خم من الجحفة التي تتشعب فيها طرق المدنيّين والمصريين والعراقيين وذلك يوم الخميس الثامن عشر من ذي الحجة، نزل اليه جبرئيل الامين عن الله بقوله: ﴿**يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك..**﴾ الآية. وأمره أن يقيم علياً علماً للناس ويبلغهم مانزل فيه من الولاية وفرض الطاعة على كل أحد، وكان اوائل القوم قريباً من الجحفة، فأمر رسول الله ﷺ أن يرد من تقدم منهم، ويحبس من تأخر عنهم في ذلك المكان، ونهى عن سمرات خمس، متقاربات دوحات عظام أن لا ينزل تحتهن أحد، حتى إذا أخذ القوم منازلهم، فقمّ ما تحتهن، حتى إذا ما نودي بالصلاة، صلاة الظهر، عمد اليهنَّ فصلىٰ بالناس تحتهنَّ، وكان يوماً هاجراً يضع الرجل بعض ردائه على رأسه وبعضه تحت قدميه من شدة الرمضاء. وظلل لرسول الله ﷺ بثوب على شجرة سمرة من الشمس، فلما انصرف ﷺ من صلاته، قام خطيباً وسط القوم على أقتاب الابل وأسمع الجميع رافعاً عقيرته فقال:

«الحمد لله نستعينه ونؤمن به، ونتوكل عليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، الذي لا هادي لمن ضل، ولا مضلّ لمن هدى، وأشهد أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً عبده ورسوله، أمّا بعد: أيها الناس، قد نبأني اللطيف الخبير أنه لم يعمر نبيّ إلاّ مثل نصف عمر الذي قبله، واني أوشك أن أُدعى فأجيب، وأني مسؤول وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلّغت ونصحت وجهدت، فجزاك الله خيراً. قال: ألستم تشهدون أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمداً عبده ورسوله، وأن جنّته حق وناره حق وأن الموت حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور؟ قالوا: بلى نشهد بذلك. قال: اللهم اشهد. ثم قال: أيها الناس، ألا تسمعون؟ قالوا: نعم. قال: فاني فرط على الحوض، وأنتم واردون عليَّ الحوض، وان عرضه ما بين صنعاء وبصرى، فيه أقداح عدد النجوم من فضة، فانظروا كيف تخلّفوني في الثقلين. فنادى منادٍ: وما الثقلان يا رسول الله؟ قال: الثقل الأكبر، كتاب الله طرف بيد الله عز وجل، وطرفٌ بأيديكم، فتمسكوا به لا تضلوا، والآخر الأصغر عترتي، وان اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، فسألت ذلك لهما ربّي، فلا تقدّموهما فتهلكوا ولا تقصروا عنهما فتهلكوا.

= ثم أخذ بيد علي، فرفعها، حتى رؤي بياض آباطهما، وعرفه القوم أجمعون، فقال: أيها الناس، من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: إن الله مولاي، فأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعليّ مولاه. يقولها ثلاث مرات. وفي لفظ أحمد، إمام الحنابلة: أربع مرات، ثم قال: اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه، وأحبَّ من أحبّه، وابغض من أبغضه، وانصر من نصره واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار. ألا فليبلّغ الشاهد الغائب. ثم لم يتفرقوا حتى نزل أمين وحي الله بقوله: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي. .﴾ الآية.

فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة، ورضىٰ الرب برسالتي، والولاية لعليّ من بعدي.

ثم طفق القوم يهنئون أمير المؤمنين صلوات الله عليه. وممن هنأه في مقدم الصحابة: الشيخان أبو بكر وعمر كلٌ يقول: بخٍ. بخٍ لك يابن ابي طالب أصبحت وأمسيت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة. وقال ابن عباس: وجبت والله في أعناق القوم. [وقد أوجز حسان واقعة الغدير في قصيدة مشهورة].

وقد استند الشيخ الاميني ـ رحمه الله ـ إلى مصادر عديدة موثقة لدى الفريقين والى أشهر كتب السيرة والتاريخ منها: الطبقات لابن سعد ج٣ والامتاع للمقريزي وارشاد الساري ج٦ والسيرة الحلبية ج٣ وسيرة احمد زيني دحلان ج٣ وتاريخ الخلفاء لابن الجوزي ج٤ وتذكرة خواص الأمة ص١٨ ودائرة المعارف لمحمد فريد وجدي ج٣ ومجمع الزوائد للهيثمي ج٩ وثمار القلوب ص٥١١.

وقد رواه النسائي عن زيد بن ارقم في الخصائص ص٢١ وفيه: قال ابو الطفيل: سمعته من رسول الله ﷺ فقال: وانه ما كان في الدوحات أحد إلاّ رآه بعينيه وسمعه بأذنيه. وصححه الذهبي كما في تاريخ ابن كثير الشامي ج٥ ص٢٠٨.

وأخرج حديث الغدير بألفاظ متعددة لبعض الكلمات، أخرجه احمد في مسنده ١، ص١٠٩ عن زيد بن يثيع عن علي عن النبي ﷺ في حديث: وان تؤمروا علياً رضي الله عنه، ولا أراكم فاعلين تجدوه هادياً مهدياً يأخذ بكم الطريق المستقيم. ورواه الخطيب البغدادي في تاريخه ج١ ص٤٧. وروي في الحلية في حديث ابي نعيم ج١ ص٦٤ وفي كنز العمال ج٦ ص١٦٠، وأخرجه الحافظ الكنجي الشافعي في الكفاية ص٦٧، كما روي عن الطبراني والمستدرك للحاكم ورواه ابن كثير في البداية ج٧ ص٣٦٠ عن الحاكم النيسابوري عن عبدالله بن مسعود. رواه أحمد بن حنبل من اربعين طريقاً، وابن جرير الطبري من نيف وسبعين طريقاً، والجزري

التصريحات التي لم تتخذ شكل البلاغ العام[1]

إن تصريحات النبي ﷺ الدالة على تعيين علي عليه السلام للولاية على المسلمين بعد رسول الله ﷺ كثيرة. ونريد أن نذكر منها بعض ما نقله علماء المسلمين ممن لا يقولون بنظرية التعيين التي نحن بصددها، وإليك منها ما يلي:

١ ـ ما أخرجه أبو داود (كما في الاستيعاب) وغيره باسناد صحيح الى ابن عباس: «قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب عليه السلام: أنت وليّ كل مؤمن بعدي»[2].

= المقري من ثمانين طريقاً، وابن عقده من مائة وخمس طرق، وابو سعيد السجستاني من مائة وعشرين طريقاً، وابو بكر الجعابي من مائة وخمس وعشرين طريقاً، وفي تعليق هداية العقول ص٣٠ عن الأمير محمد اليمني (أحد شعراء الغدير في القرن الثاني عشر): ان له مائة وخمسين طريقاً.

(١) يشير المؤلف رحمه الله إلى جملة محدودة من الأحاديث النبوية الشريفة بخصوص ولاية أمير المؤمنين عليه السلام على المسلمين، وهذه الأحاديث ربما لم تكن في نطاق المحافل أو الاجتماعات العامة كالغدير وربما لم يحضرها سوى عدد محدود من الناس، ومع ذلك فان لها قوة الزام حديث الغدير نفسه ما دام قد صرّح بها النبي ﷺ..

وربما صرّح الرسول ﷺ بهذه الأحاديث بعيد الغدير ـ وربما قبله والله أعلم ـ تثبيتاً لمضمون البلاغ العام في الغدير ولاعداد المسلمين نفسياً لتقبل هذه الولاية والاستجابة لها، فقد كان يعلم ﷺ أن هناك فئة من أصحابه لا تميل الى ذلك لأسباب شتى فأراد القاء الحجة على الجميع.

(٢) مسند الامام أحمد ٥/ ٢٥ بسند صحيح والاستيعاب لابن عبد البر بهامش الاصابة ٣/ ٢٨ والاصابة لابن حجر ٢/ ٥٠٩، وترجمة الامام علي من تاريخ دمشق لابن عساكر ١/ ٤١٦ ح٤٩٠. راجع الوجيز في الامامة/ المحامي أحمد حسين يعقوب، ووردت أحاديث صحيحة مسندة مشابهة لهذا الحديث كقوله ﷺ لعلي عليه السلام: «أنت وليّي في الدنيا والآخرة» «.. انه وليكم بعدي» «.. وهو وليكم بعدي» «علي مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن بعدي» وهي أحاديث مشهورة لدى الفريقين.

٢ ـ ما صحّ عن عمران بن حصين ـ وأخرجه غير واحد من أصحاب السنن كالنسائي في الخصائص العلوية وأحمد بن حنبل من حديث عمران في أول ص٤٣٨ من ج٤ من مسنده والحاكم في ص١١١ من الجزء الثالث من المستدرك والذهبي في تلخيص المستدرك مسلماً بصحته على شرط مسلم، وأخرجه الترمذي باسناد قوي كما عن الاصابة للعسقلاني ـ إذ قال:

(بعث رسول الله سرية واستعمل عليهم علياً بن أبي طالب، فاصطفى من الخمس جارية، فأنكروا ذلك عليه، وتعاقد أربعة منهم على شكايته الى النبي ﷺ إلى أن قال: فأقبل عليهم رسول الله ﷺ والغضب يبصر في وجهه فقال: ما تريدون من علي! إن علياً مني وأنا منه، وهو ولي كل مؤمن بعدي[1].

٣ ـ حديث بريدة ـ كما عن الجزء الخامس من مسند أحمد في ص٣٥٦ وعن الجزء الثالث من مستدرك الحاكم في ص١١٠ ـ بعث رسول الله ﷺ بعثين الى اليمن، على أحدهما علي وعلى الآخر خالد بن الوليد فقال: إذا التقيتم بعلي، فعليّ على الناس، وإن افترقتما، فكل واحد منكم على جنده إلى أن قال: فاصطفى علي امرأة من السبي لنفسه، فكتب معي إلى رسول الله ﷺ فلما أتيت النبي ﷺ دفعت اليه الكتاب، فقرىء عليه، فرأيت الغضب في وجهه، فقلت: يا رسول الله، هذا مقام العائذ بك، بعثتني مع رجل وأمرتني أن أطيعه ففعلت ما أرسلت به، فقال رسول الله ﷺ: «لا تقع في علي، فانه مني وأنا منه، وهو وليكم بعدي»[2].

---

(١) صحيح الترمذي ٢/ ٢٩٧ وابو داود الطيالسي في مسنده ٣/ ١١١ وابو نعيم في حليته ٦/ ٢٩٤ والمتقي في كنز العمال ٦/ ٣٩٩ نقلاً عن ابن جرير وعن ابي شيبة وفي ٦/ ١٥٤ والنسائي في خصائصه ص٢٣ اضافة للمصادر التي ذكرها الشيخ قدس سره.

(٢) وقد ورد ان النبي كرر (.. فانه مني وأنا منه، وهو وليكم بعدي) مرتين وذكره الهيثمي ايضاً في مجمعه ٩/ ١٢٧ وقال رواه احمد والبزاز باختصار، ورواه النسائي في خصائصه ص٢٣ =

وعن الطبراني: أنه أخرج هذا الحديث، وجاء فيما أخرجه: ان النبي ﷺ خاطب بريدة قائلاً: «يا بريدة، أما علمت أن لعلي أكثر من الجارية التي أخذ، وأنه وليكم بعدي» وان طرق هذا الحديث الى بريدة كثيرة وكلها معتبرة.

٤ ـ ما عن الجزء السادس من كنز العمال في ص٣٤٦ قوله ﷺ من حديث جاء: «يا علي سألت الله فيك خمساً فأعطاني أربعة ومنعني واحدة، إلى أن قال: «وأعطاني انك ولي المؤمنين بعدي»[1].

= باختلاف بعض الألفاظ، والهيثمي ثانياً في ٩/١٢٨ وقال فيه: «. . فخرج ـ أي رسول الله ﷺ مغضباً فقال: ما بال أقوام ينتقصون علياً، من تنقّص علياً فقد تنقصني، ومن فارق علياً فقد فارقني. إن علياً مني وأنا منه، خلق من طينتي وخلقت من طينتة ابراهيم وأنا افضل من ابراهيم (إلى أن قال): يا بريدة أما علمت أن لعلي أكثر من الجارية التي أخذ؟ وانه وليكم بعدي؟ فقلت: يا رسول الله، بالصحبة، ألا بسطت يدك فبايعتني على الاسلام جديداً. قال: فما فارقته حتى بايعته على الاسلام (قال) رواه الطبراني في الأوسط.

وذكره المتقي في (كنز العمال) ٦/ ١٥٤ مختصراً وقال: أخرجه ابن ابي شيبة عن عبدالله بن بريدة عن ابيه. . وقد ذكر في المصادر التي أشار اليهاالعلامة الشري ـ رحمه الله ـ راجع فضائل الخمسة للفيروز آبادي ١/ ٣٨٨ ـ ٣٨٩.

ومن المعلوم أن القوم وجدوا سبيلاً للتقليل من أهمية هذه الأحاديث بزعم أن الرسول ﷺ بشر يتكلم على الرضا والغضب وانه يخطيء ويصيب ويميل لأهله وقرابته لأنهم أهله وقرابته، محاولين انتزاع العصمة منه لتبرير أعمالهم وتصرفاتهم و(اجتهاداتهم) ولعل وعّاظ الدولة الأموية المأجورين كانوا أشد النشطاء في هذا المجال لتنفيذ مخطط معاوية الانحرافي، وهو مخطط مدروس وموضوع بعناية لتستفيد منه كل دول الظلم والانحراف.

(١) واشارة الى هذه الخصلة الخامسة جاء في الرياض النضرة ٢/ ٢١٣ وكنز العمال ٦/ ٤٠٢ قالا: عن عبدالله بن الحارث قال: قلت لعلي بن ابي طالب عليه السلام: أخبرني بأفضل منزلتك من رسول الله ﷺ، قال: بينا أنا نائم عنده وهو يصلي، فلما فرغ من صلاته قال: يا علي، ما سألت الله عز وجل من الخير إلاّ سألت لك مثله، وما استعذت الله من الشر إلاّ استعذت لك مثله. قالا: اخرجه المحاملي، وذكره الهيثمي ايضاً في مجمعه ٩/ ١١٠ وقال في آخره: ولا سألت الله عز وجل شيئاً إلاّ أعطانيه، غير أنه قيل لي لا نبي بعدك. قال: رواه الطبراني في الأوسط وذكره =

٥ ـ ما أخرجه ابن السكن عن وهب بن حمزة، قال: كما عن الاصابة وعن الجزء السادس من كنز العمال في ص١٥٥ ـ سافرت مع علي فرأيت منه جفاء، فقلت: لئن رجعت لأشكونّه، فرجعت، فذكرت علياً لرسول الله ﷺ، فنلت منه، فقال: «لا تقولن هذا لعلي، فانه وليكم بعدي».

وعن الطبران أنه أخرجه في الكبير عن وهب، غير أنه قال: «لا تقل هذا لعلي، فهو أولى الناس بكم بعدي»[1].

٦ ـ ما أخرجه ابن ابي عاصم عن علي مرفوعاً ـ كما عن الجزء السادس من كنز العمال في ص٣٩٧ ـ: ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى. قال: «من كنت وليّه فهو وليّه»[2].

= المتقي ايضاً في كنز العمال ٦/ ١٥٩ ـ ٣٩٢ وقال فيهما: أخرجه ابو نعيم في فضائل الصحابة وفي ص٤٠٦ وقال: أخرجه ابن ابي عاصم وابن جرير والطبراني وابن شاهين والنسائي في خصائصه بطريقين ص٣٧ ـ ٣٨.

(١) راجع كنز العمال ٦/ ١٥٥ (ح٢٥٧٥) و٣٩٧ حيث ورد قوله ﷺ لأحد أصحابه: «لا تقع في علي فانه منّي وأنا منه وهو وليكم بعدي».
ووردت لفظة: (انه وليكم بعدي) في حديث لرسول الله ﷺ أمام أصحابه في معرض رده على انتقاد علي عليه السلام بأخذ جارية من السبي: «إن لعلي اكثر من الجارية التي أخذ، انه وليكم بعدي». . راجع صحيح الترمذي ٥/ ٢٩١ ح٣٧٩٦، وخصائص أمير المؤمنين للنسائي ص٩٧، والمناقب للخوارزمي ص٩٢، والاصابة لابن حجر ٢/ ٥٠٩، وحلية الأولياء لأبي نعيم ٦/ ٢٩٤، وأسد الغابة ٤/ ٢٧، وترجمة الامام علي من تاريخ دمشق لابن عساكر ١/ ٤٠٠ ـ ٤٠١ ح٤٦٦ ـ ٤٦٨، وجامع الأصول لابن الاثير ٢/ ٤٧٠، وكنز العمال ١٥/ ١٢٤ (راجع الوجيز في الامامة والولاية/ المحامي احمد يعقوب) وأحاديث الولاية كثيرة ومتواترة إلاّ أن محاولات طمسها سارت باتجاهين أولهما منع رواية الحديث عموماً ومنها هذه الاحاديث وثانيهما تفسيرها تفسيراً خاطئاً.

(٢) وهذا بيان وجهه النبي ﷺ كما يبدو لجماعة من المسلمين ولعلّ ذلك قد يكون في المسجد حيث يحتشد الناس للصلاة حيث أرادهم ﷺ أن يستجيبوا لولاية علي عليه السلام، إن الاشارة =

إن هذه الأحاديث متساندة يعضد بعضها بعضاً، وهي بمجموعها، تقوم مقام أصح الأحاديث، وتصلح لأن تثبت حادثة من الحوادث التاريخية، حيث لا يقف في وجهها استبعاد طبيعي ولا ناموس تطوري، ولا قاعدة اجتماعية، بل هي موافقة للسير الطبيعي وللقواعد الاجتماعية القاضية ـ كما عرّفت في بعض الفصول الماضية. إذ علمت أن طبيعة المبادىء الاسلامية وظروفها الحرجة، كانت تحتم تعيين ولي للمسلمين يخلف النبي، من ذوي الكفاءات الحقيقية ـ بصدور مثل هذه التصريحات، مقدمة لاصدار بلاغ عام في هذاالشأن، هذا إذا نظر الى الأحاديث المذكورة من ناحية سندها وصلاحيتها لاثبات ما تنقله.

أما من ناحية دلالتها على ما نحن بصدده، فانها صريحة جلية في ذلك، ولا يصح صرفها الى غيره، إذ لا معنى لارادة الصديق والجار، فانه ليس امتيازاً، ولا رتبة للنبي أن يكون صديق أحد أو جاره، ومثل الجار الحليف والحافظ، وأما الناصر فلن يراد، فان النبي وعلياً نصيران للمسلمين، ولكن الانصار كثيرون، فلن يصح حصر النصرة في علي بعد النبي، ومع ذلك فان علياً ناصر في زمن الرسول ﷺ للمسلمين، كما هو ناصر لهم بعد الرسول، ولن يصح حصر ولايته بهذا المعنى، بما بعد وفاته ﷺ، كما أن وصف النبي بالمحب، غير صحيح في مقام كهذا، فان حب الرسول للمسلمين ليس امتيازاً للنبي يرفعه عن غيره من عامة المسلمين، ولا هو المحب الوحيد لهم، كما أن علياً يحب المسلمين في زمن الرسول، كما يحبهم بعده، كما أنه لن يصح أن يراد من لفظ الولي من يحب ويركن اليه، فان ذلك غير مقصور على عليّ عليه السلام والنبي ﷺ.

= الواضحة به عليه السلام من قِبَل القرآن الكريم والرسول العظيم ﷺ قابلتها حملة شديدة لطمس فضائله ورفوض فكرة مبايعته وبذلك خسرت الأمة خسارة فادحة لاتزال تعاني منها إلى اليوم.

فلن يجوز صرفها إلى غير ما هي ظاهرة فيه، فان الولاية المذكورة هي الولاية المستمدة من المادة الدستورية القرآنية ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ كما هو صريح الحديث السادس الذي مرَّ نقله[1].

تصريح يتخذ طابع البلاغ العام

أما الموقف الذي اتخذ فيه التصريح شكل بلاغ عام، فقد كان في حجة الوداع، إذ وقف النبي ﷺ موقف المبلغ العام يخطب الجماهير في (غدير خم)، إذ هو في طريقه الى المدينة، وقبل وصوله اليها، وحيث الجماهير قد قفلت مع النبي راجعة من الحج، ويوشك ان تصل الى مفارق طرقها ـ ويعلن لهم تعيين عليّ ولياً عليهم.

فعن (الطبراني) أنه أخرج ـ بسند مجمع على صحته ـ وقد صرح بذلك جماعة من الاعلام منهم (ابن حجر) في صواعقه ـ عن (زيد بن أرقم) قال: (خطب رسول الله بغدير خم تحت شجرات فقال:

«أيها الناس، يوشك أن أدعى فأجيب، واني مسؤول وانكم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد انك بلغت وجاهدت ونصحت، فجزاك الله خيراً. فقال: أليس تشهدون أن لا إله إلاَّ الله وأن محمداً عبده ورسوله، وان جنته حق، وان ناره حق، وان الموت حق، وان البعث حق بعد الموت، وان الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور؟ قالوا: بلى نشهد بذلك.

---

(١) فانها تدل على ولي الأمر الذي ينبغي أن يولوه أمورهم والذي هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم ايضاً ومن تنبغي عليهم طاعته دون تحفظ أو معارضة. وعندما تساق الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة بهذا الشكل فانها تدل على أن أمر تولية علي عليه السلام لم تكن رغبة نبوية خاصة وانما هي تعيين إلهي. وإلاَّ فأي قرآن أو حديث نرغب أن ينزل الينا بخصوص الانسان المؤهل لمنصب الخلافة، بل المصمم لها إذا ما شئنا الدقة في التعبير؟

قال: اللهم اشهد. ثم قال: «يا أيها الناس، ان الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه، فهذا مولاه، يعني علياً، اللهم والِ من ولاه وعاد من عاداه»). رواه ابن جرير والحكم والترمذي عن زيد، وأرسل ابن حجر صحته ارسال المسلمات[1].

وعن الجزء الرابع من مسند الامام احمد ص٣٧٢ عن زيد بن ارقم: قال (نزلنا مع رسول الله بوادي يقال له وادي خم، فأمر بالصلاة، فصلاها بهجير، قال: فخطبنا، وظلل لرسول الله بثوب على شجرة سمرة من الشمس، فقال: أولستم تعلمون، أولستم تشهدون أني أولى بكل مؤمن من نفسه؟ قالوا: بلىٰ. قال: فمن كنت مولاه فعلي مولاه اللهم والِ من والاه، وعاد من عاداه. إه)[2].

---

(١) وفي الاحصائية الدقيقة التي أوردها الشيخ عبد الحسين الاميني النجفي ـ رحمه الله ـ ذكر أن رواة حديث الغدير من الصحابة مائة وعشرة صحابياً ومن التابعين اربعة وثمانون تابعياً وذكر أن رواة حديث الغدير من أئمة الحديث وحفّاظه والأساتذة هم ثلثمائة وستون وان المؤلفين في حديث الغدير من الفريقين هم ستة وعشرون.

كما أن حديث تهنئة الشيخين ابي بكر وعمر علياً امير المؤمنين يوم الغدير نقلت عن ستين مصدراً، ويكاد يكون هذا الحديث متواتراً لدى المسلمين في أشهر كتبهم وصحاحهم رغم الحملة القوية لمنع تداول الأحاديث النبوية بعد وفاة النبي ﷺ، ولو أن الحرية أتيحت للمسلمين لتداول هذه الأحاديث لكان حديث الغدير في مقدمتها ولسبب تداوله حرجاً كبيراً للذين تسلموا زمام الخلافة.

(٢) كما رواه الامام أحمد بلفظ آخر ص٣٧٢ عن ميمون ابي عبدالله قال: كنت عند زيد بن أرقم، فجاء رجل من أقصى الفسطاط، فسأله فقال: ان رسول الله ﷺ قال: ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى. قال: من كنت مولاه فعليّ مولاه. قال ميمون: فحدثني بعض القوم عن زيد أن رسول الله ﷺ قال: اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه.

وقد ذكر الفيروز آبادي في فضائل الخمسة عدة روايات وردت في مسند أحمد حول هذا الموضوع ص٣٩٩ وما بعدها. كما أورد عدة مصادر معتمدة لدى فئات كبيرة من المسلمين وخصوصاً أهل السنة. ولعلَّ حديث الغدير أشهر حديث تواتر بين المسلمين وهناك أمة من فطاحل العلماء ـ كما ذكر الشيخ الاميني ـ حكموا بتواتر الحديث وشنّعوا على من أنكر ذلك. =

وعن الامام أحمد في جزء مسنده المذكور ص٢٨١، أنه أخرج من حديث البراء بن عازب من طريقين، قال: كنا مع رسول الله، فنزلنا بغدير خم، فنودي فينا: الصلاة جامعه، وكسح لرسول الله ﷺ تحت شجرتين، فصلىٰ الظهر، وأخذ بيد علي، فقال: «**ألستم تعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلىٰ. قال: ألستم تعلمون أني أولى بكل مؤمن من نفسه؟ قالوا: بلىٰ. قال: فأخذ بيد علي فقال: من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه. قال: فلقيه عمر بعد ذلك فقال: هنيئاً يا ابن أبي طالب، أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة**»[1].

= وقد أفرد شمس الدين الجزري رسالة في اثبات تواتره ونسب منكره الى الجهل. وعن الفقيه ضياء الدين المقبلي: ان لم يكن معلوماً فما في الدين معلوم. وعن العاصمي: حديث تلقته الأمة بالقبول وهو موافق بالأصول. وعن الغزالي: انه أجمع الجمهور على متنه. واتفق عليه جمهور أهل السنة. وعن البدخشي: حديث صحيح مشهور ولم يتكلم في صحته إلاّ متعصب جاحد لا اعتبار بقوله. وأنه حديث متفق على صحته، وان صدره متواتر يتيقن أن رسول الله قاله، وذيله زيادة قوية الاسناد وأنه حديث صحيح قد أخطأ من تكلم في صحته. وأنه حديث مشهور كثير الطرق جداً. والألوسي: نعم ثبت عندنا أنه ﷺ قاله في حق علي. وانه حديث صحيح لا مرية فيه. والاصبهاني: حديث صحيح ثابت لا أعرف له علة، قد رواه نحو مائة نفس منهم العشرة المبشرة.

وقد ذهب التعصب والهوى والجهل بالذي أنكروه حداً قالوا فيه انه ما أخرجه إلاّ احمد في مسنده، وحاولوا، رغم أن الامام احمد بن حنبل مقبول لديهم، الطعن بمسنده، مع أن أغلبية أهل السنة ان كل ما في مسند أحمد فهو مقبول/ الغدير ١، ص٢٠ ـ ٢١.

(١) وقول ابي بكر وعمر لعلي عليه السلام: «أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة» رواه الفخر الرازي في تفسيره الكبير في ذيل تفسير قوله تعالى: ﴿**يا أيها الرسول بلّغ ما أُنزل اليك من ربك**﴾، حيث قال ما لفظه: «نزلت الآية في فضل علي بن ابي طالب عليه السلام، ولما نزلت هذه الآية أخذ بيده وقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعاد من عاداه، فلقيه عمر فقال: هنيئاً لك، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة».

كما ذكره الخطيب البغدادي في تاريخه ج٨ ص٢٩٠ بسند عن ابي هريرة.. وذكر في (فيض القدير) ج٦ ص٢١٧ و(ذخائر العقبىٰ) للمحب الطبري ص٦٨ و(الرياض النضرة) ج٢ ص١٧٠ =

البلاغ حادث تاريخي واقع

إن موقف النبي يوم الغدير، وإعلانه هذا البلاغ، أمر واقع، وحادث تاريخي لا شك فيه، وقد روي هذا الحديث من طرق كثيرة، وكان موقف الغدير حادثاً مشهوراً في كل عصر من العصور الاسلامية، ويكفينا دليلاً على صحة الحديث وجود ثلاثين راوياً للحديث من أصحاب رسول الله في عهد خلافة علي، ممن وجد منهم في الرحبة، إذ جمع أمير المؤمنين الناس، فقال: أنشد الله كل امرء مسلم سمع رسول الله ﷺ يقول يوم غدير خم ما قال، إلاّ قام، ولا يقم إلاّ من رآه بعينيه وسمعه بأذنيه، فقام ثلاثون من الناس، فشهدوا أنه أخذه بيده، فقال للناس: أتعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم، قالوا: نعم، قال ﷺ: من كنت مولاه فهذا مولاه، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه، أخرجه الامام أحمد في الجزء الرابع من مسنده ص٣٧٠.

= قال: عن سالم قيل لعمر: انك تصنع بعلي شيئاً ما تصنعه بأحد من أصحاب رسول الله ﷺ، قال: انه مولاي. وذكره (ابن حجر) في الصواعق المحرمة ص٢٦ وأخرجه (الدارقطني)، وفي الرياض النضرة ج٢ ص١٧٠ ايضاً، قال: وعن عمر انه قال: عليّ مولى من كان رسول الله ﷺ مولاه، قال: أخرجه ابن السمان.

أما قول النبي ﷺ يوم غدير خم في علي عليه السلام: من كنت مولاه فعلي مولاه فقد روي كما أشرنا في كافة الصحاح وكتب السير ومنها صحيح الترمذي ج٢ ص٢٩٨ وصحيح ابن ماجة ص١٢، اضافة لمسند أحمد بن حنبل الذي أشار اليه المؤلف رحمه الله ج٤ ص٢٨١ والمحب الطبري في الرياض النضرة ج٢ ص١٦٩، كما ورد في مستدرك الصحيحين للحاكم ج٣ ص١٠٩ - ١١٠ - ٣٧١ - ١١٦ عن زيد بن ارقم وعن سعد بن مالك وبريدة الاسلمي وغيرهم، والنسائي في خصائصه عن ابن عباس والمناوي في (فيض القدير) ج٦ ص٢١٨ والسيوطي في (الدر المنثور) والهيثمي في مجمعه ج٩ ص١٠٤ وكذلك في ص٣٦٨ - ٣٣٢ من ج٤ من مسند أحمد بن حنبل وكذلك في ص١٥٢ و٣٦٦ و١١٨ و١١٩ و٨٨ و٨٤ و٣٠٧ و٢٧٠ و٤١٩ و٣٥٠ و٥٤٠ اضافة للعدد الكبير من المفسرين وأصحاب الصحاح، مع أن آخرين مثل ابن تيمية حاولوا أن ينكروه مستندين الى تعصبهم وجهلهم.

كما أخرج في ص١١٩ من الجزء الأول من مسنده عن عبدالرحمن بن ابي ليلىٰ قال: شهدت علياً ينشد الناس، فيقول: أنشد الله من سمع رسول الله ﷺ يقول يوم غدير خم: من كنت مولاه فعلي مولاه، لمّا قام فشهد، ولا يقم إلاّ من قد رآه. قال عبدالرحمن: فقام اثنا عشر بدرياً كأني أنظر الى أحدهم، فقالوا: نشهد أنا سمعنا رسول الله يقول يوم غدير خم: ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجي امهاتهم، فقلنا: بلىٰ يا رسول الله. قال: فمن كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه. (إه)[1].

ان ذلك مما يدلنا على شهرة الحديث بين الناس، شهرة لا يمكن اخفاؤها. لقد جمع أمير المؤمنين عليه السلام الناس في عهد خلافته، وهو بعيد عن الحجاز، بلد الحديث، فشهد له ثلاثون صحابياً منهم اثنا عشر بدرياً، ولو كان في الحجاز أو لو جمع كل من سمع الحديث من الأحياء يوم ذاك، لعُد الشهود بالمئات، ولو طلب الشهود الاحياء قبل خلافته، وبعد وفاة

(١) أفرد الشيخ الاميني ـ رحمه الله ـ فصلاً كاملاً عن الاحتجاج ببيان الغدير وأول حجاج وقع به ما كان من أمير المؤمنين عليه السلام بمسجد الرسول ﷺ بعد وفاته ثم يوم الشورى سنة ٣٣هـ حيث اعترف به كل المشاركين دون استثناء، وكذلك أيام عثمان بحضور اكثر من مائتي رجل حيث اعترفت صفوة من الصحابة المشهود لهم بالصدق والاستقامة بذلك منهم زيد بن ارقم والبراء بن عازب وسلمان وأبو ذر والمقداد وعمار فقالوا: نشهد...

ومنها مناشدة أمير المؤمنين عليه السلام الناس يوم الرحبة سنة ٣٥ ـ التي ذكرها المرحوم المؤلف أعلاه ـ وقد تظافرت اليها الأسانيد في كتب العلماء، وقد وقف الشيخ الاميني على رواية أربعة صحابيين وأربعة عشر تابعياً وأورد اسماء اعلام الشهود من الصحابة منهم أبو ايوب الانصاري وابو الهيثم بن التيهان وخزيمة بن ثابت الانصاري وابو هريرة الدوسي وحبشي بن جنادة وسهل بن حنيف وعامر بن ليلى الغفاري وعبدالله بن ثابت الأنصاري خادم رسول الله ﷺ وعبيد بن عازب وعدي بن حاتم وقد نصَّ الامام احمد على أن عدة الشهود في ذلك اليوم كانت ثلاثين وأخرجه الحافظ الهيثمي في مجمعه وكذلك سبط ابن الجوزي في التذكرة ص١٧ والسيوطي في تاريخه ص٦٥ والسيرة الحلبية ٣/ ٣٠٢.

رسول الله بقليل، لعد الشهود بالألوف إذا لم يتعمدوا كتمان الشهادة، كما أنه لو طلب أن يروي الحديث من سمعه ولو بواسطة، لكان عدد الشهود أضعاف الثلاثين.

إن هذه الحادثة من الحوادث التي لو وقعت لكانت موافقة للنواميس الاجتماعية وللظروف الزمانية والمكانية وللقوانين التطورية ونقلها المستفيض، بل المتواتر على هذا النحو كافٍ لاثباتها. وعلى كل حال فان علماء المسلمين، ورواة الحديث لم يرتابوا في صحتها، وإنما ارتابوا في دلالة الكلمات النبوية على تعيين علي خليفة بعد رسول الله ﷺ(١).

---

(١) مع أنها أدق الكلمات التي تعبّر عن ذلك، بل ان معنى الولاية المطلقة أول ما يتبادر الى الأذهان عندما نسمع الآية القرآنية الكريمة وبيان الرسول ﷺ في الغدير، فهل يعقل أنه يجمع تلك الأعداد الغفيرة من الناس في حر الظهيرة ليعني بقوله امراً آخر غير هذا الأمر الخطير الذي يتعلق بمستقبل الأمة ومصيرها؟

وقد شهد ببيان الغدير العديد من الصحابة ومنهم من كان يناوىء علياً عليه السلام منهم طلحة الذي ندم على خروجه عليه، فانصرف عن القتال يريد العودة لولا أن قتله مروان. كما أن حديث الركبان الذين خاطبوا امير المؤمنين عليه السلام بلفظ مولانا ذاكرين بيان غدير خم، ومنهم أبو أيوب الانصاري معروف مشهور أخرجه احمد بن حنبل وغيره. وأعلام الشهود فيه من الصحابة تسعة منهم اربعة بدريون.

وقد احتج ببيان الغدير أمير المؤمنين في صفين وشهد عليه نحو سبعين بدرياً من الأنصار والمهاجرين، كما احتجت به الصديقة فاطمة بنت رسول الله ﷺ والامام الحسن السبط عليه السلام سنة ٤١ لما أجمع على صلح معاوية، وكذلك الامام الحسين عليه السلام سنة ٥٨هـ قبل موت معاوية بسنتين حيث احتمع في سرادقه نحو من مائتي رجل من الصحابة وكان عدد المجتمعين من بني هاشم والتابعين المعروفين بالنسك والصلاح أكثر من سبعمائة رجل، حيث استنكر أولاً صنيع معاوية بأهل البيت وشيعتهم ثم سألهم إن كانوا قد سمعوا عن رسول الله ﷺ أو من الثقاة من الصحابة شهاداته بحق أهل بيته وتطرق الى حديث الغدير فأيدوا سماعهم لذلك، يقول الصحابة: اللهم قد سمعنا وشهدنا، ويقول التابعون: اللهم نعم، قد حدثني من أصدقه وائتمنه من الصحابة. كما احتج بحديث الغدير عبدالله بن جعفر على معاوية بعد استشهاد امير المؤمنين عليه السلام واحتج به برد على عمرو بن العاص، وعمرو بن العاص على معاوية وعمار بن =

[رسول الله ﷺ.. وليٌّ وأب]

ولدى التأمل في أخبار الحادثة نرى فيها صراحة تامة فيما نحن بصدده. لقد علمت في الفصل الثالث، وفي هذا الفصل، أن المادة الدستورية القرآنية تعطي النبي الصلاحية الواسعة الى حد انها تجيز له في الظروف الاستثنائية والطبيعية أن يتصرف في شؤون المسلمين العامة كما يرى، وان يعين من بعده خليفة لادارة تلك الشؤون، وان المادة المذكورة تجعل تصرف النبي قائماً مقام تصرف المسلمين، فليس تصرفه تصرف حاكم في رعيته، بل تصرف ولي يقوم مقام من يليه، فأفعاله أفعالهم، واذنه اذنهم، بل هو في تصرفه يقوم مقام تصرف الأمة بأجمعها، تصرفاً مضمون الصلاح. وان نص المادة الدستورية التي تفيد كل هذا وأكثر من هذا قوله تعالى: ﴿**النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم**﴾.

صراحة البلاغ في التعيين

وقد جاء النبي ﷺ يوم غدير خم يمهّد لما يحاوله من ابلاغهم تعيين علي عليه السلام ببيانه لهم ما له من صلاحية مفروضة في القرآن الكريم مذكّراً إياهم بتلك المادة التي تنصّ على حقه في كل تصرف يراه في شؤون المسلمين، ليعرفوا أن العمل الذي سيقوم به، داخل ضمن صلاحيته، وأن عليه أن يختار للمسلمين من يلي أمورهم لأنه أولى بهم من أنفسهم، فعليه أن ينصح لهم ولا يترك أمرهم فوضى، وبعد أن ذكّرهم بهذه المادة القرآنية التي يعرفها كل سامع منهم، صدع ببلاغه العام، وأتبعها بمادة دستورية مثلها في شأن علي عليه السلام تخوله الصلاحية التي هي للنبي ﷺ بمقتضى المادة الأولى القرآنية، ذلك أن المادة الدستورية القرآنية توسع صلاحية النبي ﷺ إلى درجة أنها تجيز له ـ فيما يتعلق بشؤون المؤمنين ـ رسم مادة مثلها في

= ياسر على عمرو بن العاص، واصبغ بن نباتة وغيرهم.

حق غيره، وها هو يفعل ذلك، فيصدر مرسوماً في حق علي عليه السلام يتضمن مادة هي أخت المادة الأولى التي نزل بها الوحي في شأن النبي صلى الله عليه وآله.

ومن هذا تعلم من الولي في لفظ (من كنت مولاه..)، من هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، إذ لا يتناسب هذا السياق، ولا ذلك الموقف التاريخي، مع صرفها الى معنى الصديق أو الوارث، أو المحبوب أو الناصر أو السيد مالك الرقيق، فانها بجميعها تتنافى مع قوله: «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم»، كما أن ارث النبي صلى الله عليه وآله من غيره ليس شيئاً يهتم به، والنبي أعلى من أن يوضع في رتبة صديق، كما أن الاهتمام بتمليك عبد لعليّ إلى هذه الدرجة، لا يكون من عاقل، فكيف يكون من سيد الأنبياء وأعظم الحكماء!

وكذلك لو كان المقصود منها بيان نصر علي لمن ينصره النبي صلى الله عليه وآله، أما صرفها الى معنى المحبوب، ففيه ما في غيره، يضاف الى ذلك انه يكون اخباراً من النبي صلى الله عليه وآله غير مطابق للواقع؛ فان من الناس من يحب النبي صلى الله عليه وآله ولا يحب علياً؛ ولفظ البلاغ لفظ تبليغ واخبار عن أمر واقع، ومن ذلك كله يتضح:

ان مقصود الرسول صلى الله عليه وآله لم يكن سوى تبليغ مرسوم بتعيين علي رئيساً للحكومة الخالفة، بتعبير يتضمن مادة موسومة من النبي تعطي علياً من الصلاحية مثل الصلاحية التي للنبي بمقتضى المادة الدستورية القرآنية، ليكون علي عليه السلام كالنبي صلى الله عليه وآله أولى بالمؤمنين من أنفسهم[1].

(١) فمعنى (الولي) الذي أراده النبي صلى الله عليه وآله لا بد أن يكون نفس المعنى الذي أراده للتدليل على خليفته من بعده.. فولاية النبي صلى الله عليه وآله على المؤمنين ولاية مطلقة بموجب الدستور الاسلامي المأخوذ من الآية القرآنية الصريحة، وتصريحه بأن ولاية علي كولايته صلى الله عليه وآله تدل على أنها ولاية مطلقة ايضاً وانه أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأحق من ينبغي أن يتولى ويطاع في الأمور كلها الحياتية والدينية، وهذا أشمل من مفهوم الخلافة أو الأمرة وغيرها. فهو يعطيه عليه السلام الصلاحية التامة =

صيغة البلاغ من أفضل الصيغ

إن كثيرين يتساءلون عن سبب اختيار النبي ﷺ لفظ: (من كنت مولاه..) للتعبير عن مقصوده في بلاغه العام في شأن علي عليه السلام، ويرون أنه كان يتمكن أن يقول: هذا خليفتي أو وصيي عليكم من بعدي، أو إمامكم من بعدي، أو هذا أميركم أو حاكمكم، أو من جعلته حاكماً أو أميراً عليكم من بعدي، وبذلك يكون بلاغ النبي ﷺ نصاً مقصوداً رافعاً لكل التباس في شأن تعيين علي.

ولكن التأمل في هذه الصيغ جميعها يجعلنا نفضل الصيغة النبوية عليها بأجمعها، **فإنه لو لم تكن المادة القرآنية ﴿النبي أولى بالمؤمنين﴾ موجودة بنصها الخاص، لما كانت ادارة جميع شؤون المسلمين العامة في هذه الحياة من وظائف النبي المعلومة**، فان في القرآن مواد كثيرة في ما يتعلق بالنبي، منها ما يوجب الأخذ بما يأتي به، والترك لما ينهى عنه، ومنها ما يتعلق بشؤون الحرب وتحريض المؤمنين عليها، وإعداد القوة لها، ولكنها بأجمعها، حتى تلك التي تأمر باطاعته المطلقة، لا تفهمنا أن من وظائف النبي ادارة شؤون الحياة الدنيا.

أجل، إن النبي تجب اطاعته إذا أصدر أوامره، ولكنا لم نفهم بعد أن من أوامره ما يتعلق بادارة شؤون الحياة، إذ أن وظيفة النبوة وظيفة دينية تتعلق بشؤون العالم الآخر، ولا نعرف أن من وظائفه ما هو دولي يتعلق بشؤون الحياة الحاضرة، ولكن المادة القرآنية المذكورة: ﴿النبي أولى

= للتصرف والنظر في أمور ومصالح المسلمين ويرتب عليهم طاعته كما يطيعون الله ورسوله، باعتبار أنها مفروضة منهما ولم يجعلها في ذلك قيداً باعتبار أنهما يعلمان من هو وما هي مؤهلاته. ولو كانت دعوة الله ورسوله لاطاعة كل (متأمر) نصّب نفسه ولياً لوضعت لذلك شروط وشروط، وإلاّ فهل يعقل أن يدعو الله المسلمين لاطاعة الفسقة والمنحرفين؟ فأي اسلام سيكون هذا يا ترى؟

بالمؤمنين. .﴾ جاءت تعلمنا أن للنبي وظيفة دولية عامة، وأن له في ادارة شؤون المسلمين الصلاحية الواسعة. والحكومة لن تكون حكومة إلاّ إذا كانت لها هذه الوظيفة الادارية الدولية، فلو أراد النبي أن يعين رئيس حكومة، وحاول أن يفهم المسلمين انه رئيس حكومة، وأن يفهمهم ذلك بلغة اسلامية قرآنية، لما وسعه إلاّ أن يذكر المادة: ﴿النبي أولى بالمؤمنين﴾، فان هذه المادة هي المادة الاسلامية الوحيدة العامة التي تعطيه رئاسة الحكومة والوظيفة الدولية العامة.

أما الصيغ الأخرى الباقية، فانها لن تقوم مقام هذه الصيغة؛ لأن منها ما يؤدي معنى الصيغة النبوية من ناحية، ولا يقوم مقامها من ناحية أخرى، فان التعبير بالأمير والحاكم يفهمنا أن الوظيفة وظيفة حكم وأمر، ولكنه لا يفهمنا سعة الصلاحية وحدودها. إنا نفهم من الأمير من وظيفته اصدار الأوامر، ولكنا لا نفهم منه موارد الأوامر وحدودها ومحل صدورها. ولعلها تنحصر في النواحي الدينية، أو فيما هو أخروي. ولو أغضينا عن كل هذا، فان لفظ الأمير لا يفهمنا أن بين المسلمين وأميرهم، علاقة أكثر من علاقة بين أمير ومأمور.

ولكن قوله ﷺ: «من كنت مولاه..» بعد قوله: «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم..» يدلنا على تلك الصلاحية الدولية الواسعة التي تكاد لا تتعدى في معناها ادارة شؤون المسلمين العامة في النواحي الحيوية والدنيوية الدولية الحاضرة. كما أنه يفهمنا أن لا تقابل بين النبي والمؤمنين، وان العلاقة بينه وبينهم ليست علاقة تشبه علاقة بين أمير ومأمور، وانما هي علاقة الأب الحكيم بأبنائه المحبوبين لديه الأعزاء عليه، ولا تقابل بينه وبنيهم، ولا تفرقة، وانما هو وليهم، ومن هو كالأب لهم، ومن يعمل لصالحهم، وهو في عمله يقوم مقامهم، وهذا ما هو أسمى من

(الديمقراطية)، فهو لا يريد أن يقيم عليهم أميراً، بل ولياً وأباً لهم[1].

أضف الى ذلك، أن الأمرة تكون للظالم، كما تكون للنبي ﷺ، والنبي يريد أن يمنح علياً رتبة لا يرقىٰ اليها أحد إلاّ النبي أو من هو مثله، ولا يريد أن يمنحه منصباً يكون للنبي العادل وللجائر الظالم. وأين منصب من هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم من منصب يرقىٰ اليه العادل مرة والظالم مراراً؟

إن منصب من هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، منصب يخص مقام النبوة ومن يخلفها، ولا يتسع لسواهما. ومن هذا نعلم أن التعبير بصيغة الأمرة في قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾ لا ينقض ما ذكرناه، فان التعبير بالامرة في الآية لا ينافي أن يحاول النبي ﷺ اعطاء عليّ رتبة لا ينالها إلاّ النبي أو من هو قريب منه في الدرجة.

أضف الى ذلك أن الآية جاءت لبيان الحكم لا لبيان الموضوع؛ فكل ما جاءت لبيانه انما هو الزامه الأمة باطاعة الله والرسول وأولي الأمر، وليست هي في مقام تفسير الموضوع ـ أولي الأمر ـ وإلاّ لكان اللازم بيان مقدار ما له من صلاحية واسعة أو غير واسعة وبيان الموارد التي تكون محلاً لاصدار الأوامر من الشؤون الدينية أو من شؤون الحياة الحاضرة، وتدبير مصالحها العامة، ولا يبعد حين ذاك أن تختار لبيان ذلك صيغة كالصيغة

(١) فالديمقراطية صيغة حياتية موضوعة لجأت اليها بعض الشعوب في غياب الصيغ الكفيلة بتحقيق سعادتها وأمنها بعد أن تحرفت الأديان وتسلّط الطغاة. أما في حضور قائد الأمة ووليها الحقيقي وأبيها وأمين الله على الرسالة، فان الآراء الشخصية والاعتبارات الخاصة تصبح لا قيمة لها بل تستجيب الأمة استجابة تامة للولي الأمين وهو النبي ﷺ الذي أرشد الأمة إلى وليّها من بعده.

النبوية التي ترجع في الحقيقة الى الصيغة القرآنية: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾[١].

أما صيغة الخلافة، فهي كما عرفت لا تدل على الناحية الدنيوية والصلاحية الدولية إلاً بالعموم، وبتعبير أوضح هي تدل على أنه يخلف النبي ووظيفة النبوة في ما يُتبادر منها الى الذهن دينية أكثر منها دنيوية ودولية، فهي إن دلّت على الأخيرة تدل باطلاقها وعدم تقييدها، ولا تدل عليها بصراحة كالصيغة النبوية..

ودون صيغة الخلافة في الظهور صيغة الامامة، فانها إن دلّت على ذلك فلن تدل إلاّ باطلاقها المرسل، ومن الممكن تجاهل دلالتها على ذلك حتى بالاطلاق، فان ما يفهم من الامامة إنما هو الناحية الدينية، فالامام من يقتدى به، ولا يلزم أن يكون حاكماً دنيوياً ورئيس حكومة ودولة، بل ربما يدّعي ظهورها في خصوص الناحية الدينية، أما صيغة الوصاية، فالتعبير بها ـ بصرف النظر عن عدم ظهورها الدولي المطلوب ـ لا يتناسب مع مكانة المسلمين الذين ليسوا بقاصرين ليكونوا بحاجة الى الوصاية عليهم، وإن احتاجوا الى من يلي امورهم ويدير شؤونهم العامة[٢].

---

(١) وقد بيّنا في مقدمة الفصل الثالث مضمون هذا البيان القرآني.

(٢) فلفظة الولي أشمل وأدق من لفظة الامام ولفظة الخليفة وقد تحدثنا عن المعنى الذي أراده النبي ﷺ عندما تحدث عن ولاية الله أولاً وولايته هو ﷺ على المسلمين، وولاية علي من بعده التي أرادها أن تكون كولايته شاملة وأراد منهم أن يعلموا أنه هو ايضاً أولى بالمؤمنين من أنفسهم كما هو حاله ﷺ وانهم ملزمون بطاعته والتزام نهجه وإلاً فان الخروج عليه يعتبر خروجاً على النبي ﷺ والاسلام. ولاية النبي ﷺ المطلقة للمسلمين ومن بعدها ولاية أمير المؤمنين عليه السلام لهم لا تتنافى مع الولاية المطلقة لله الخالق المالك، لأن من شأن ولايتهما المستقيمة أن تضع المسلمين على الطريق المؤدية اليه سبحانه والى دينه القويم الحق.

النبي ﷺ يرى في اتّباع علي عليه السلام، الضمانة الوحيدة لتنفيذ منهاج الحكومة النبوية

وإن من التصريحات التي أدلى بها النبي ﷺ ـ في شأن أهل بيته مما يتناول علياً بصورة مؤكدة بوصفه أفضل أهل البيت[1] ـ ما يدل على أن النبي

---

(١) أحاديث النبي ﷺ في أهل بيته وخصوصاً في علي عليه السلام أكثر من أن تحصى في كتاب واحد، رغم الحصار المشدد على رواية الحديث بعد وفاة الرسول ﷺ وحتى رفعه في العهد الأموي ـ وفي عهد امير المؤمنين عليه السلام بالطبع ـ حيث ترك المجال لتسريب كم هائل من الأحاديث المكذوبة والمزورة المعدّة لترويج الانحراف ولمواجهة زخم الأحاديث الواردة في حق علي وأهل البيت عليهم السلام . . وهذه بعض الأحاديث التي أوردها الحافظ جلال الدين السيوطي في تاريخ الخلفاء ص١٥٧ وما بعدها، قال الامام احمد بن حنبل: ما ورد لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ من الفضائل ما ورد لعلي رضي الله عنه. أخرجه الحاكم. وأخرج الشيخان عن سعد بن ابي وقاص «أن رسول الله ﷺ خلف علي بن ابي طالب في غزوة تبوك، فقال: يا رسول الله تخلفني في النساء والصبيان؟ فقال: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ غير أنه لا نبي بعدي» أخرجه أحمد والبزار من حديث ابي سعيد الخدري. والطبراني من حديث اسماء بنت قيس، وأم سلمة، وحبشي بن جنادة وابن عمر وابن عباس وجابر بن سمرة والبراء بن عازب وزيد بن أرقم. وأخرجا عن سهل بن سعد «أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر، لأعطين غداً يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله». . . فأعطاها لعلي عليه السلام أخرجه الطبراني من حديث ابن عمر وعلي وابن ابي ليلى وعمران بن حصين عن ابن عباس.

وأخرج الترمذي والحاكم عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يأمرني بحب أربعة، وأخبرني انه يحبهم. قيل: يا رسول الله، سمهم لنا، قال: عليّ منهم ـ يقول ذلك ثلاثاً ـ وأبو ذر والمقداد وسلمان» وأخرج الترمذي والنسائي وابن ماجة عن حبشي بن جنادة، قال: قال رسول الله ﷺ: «عليّ مني وأنا من علي».

كما أخرج عن ابن عمر قوله ﷺ له عليه السلام في حديث: «أنت أخي في الدنيا والآخرة». وأخرج البزاز والطبراني في الأوسط عن جابر بن عبدالله، وأخرج الترمذي والحاكم عن علي عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: أنا مدينة العلم وعلي بابها.

وأخرج عن سعيد بن المسيب قال: كان عمر بن الخطاب يتعوذ من معضلة ليس فيها أبو الحسن.

كان يرى في حكومة علي الضمانة الوحيدة لتنفيذ منهاج الحكومة النبوية.

فقد جاء مروياً بطرق صحيحة، تصريحات كثيرة في شأن أهل البيت، منها قوله ﷺ: «إني تارك فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا؛ كتاب الله، وعترتي أهل بيتي».

وفي كثيرٍ، منها التصريح بأن القرآن والعترة لن يفترقا[1]، وفي تصريحات كثيرة في شأن علي بالخصوص[2]، ما يدل على أن علياً لا يفارق الحق وانه لا يفارق القرآن، ومجموع هذه الروايات ثابت. فقد ذكر ابن حجر في الصواعق، أن الأحاديث الواردة في شأن الثقلين ـ الكتاب والعترة ـ كثيرة ومروية من طرق عشرين ونيف من الصحابة، واذن فهي روايات كثيرة لا مجال لانكار صحتها، خصوصاً إذا ضم اليها ما ورد في علي، مما يدل على

---

(١) وقد ذكرنا في هامش سابق تفصيلات كثيرة عن ذلك فراجعها.

(٢) والأحاديث في شأن فضائل أمير المؤمنين(ع أكثر من أن يضمها مجلد واحد وقد استفاضت كتب الفريقين وصحاح المسلمين الموثوقة بذكر هذه الأحاديث ولعل وضوحها وكثرتها هما اللذان أعميا كثيراً من الأبصار والبصائر عنها، وإلاَّ فمن يستطيع التطلع إلى الشمس؟ وكما أن الكثيرين يغفلون عن ذكر عجائب الله في أنفسهم لأنهم ألفوا أن يروها منذ بداية حياتهم، فان آخرين اعتادوا على سماع الكم الهائل من فضائل أمير المؤمنين يتحدث بها القرآن الكريم والرسول الأمين ﷺ فلم يلقوا اليها بالاً ولم يتدبروها كما لم يتدبروا القرآن ﴿**أم على قلوب أقفالها**﴾.

لقد روى حديث الثقلين اكثر من عشرين صحابياً. وجاء في مسند الامام أحمد بن حنبل حديث الثقلين بعدة طرق، فقد روي بطريقين عن زيد بن ثابت أن النبي قال: «إني تارك فيكم خليفتين: كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء والأرض (أو ما بين السماء الى الأرض)، وعترتي أهل بيتي، وانهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض».

وروى عن ابي سعيد الخدري أن الرسول ﷺ قال: «إني أوشك أن أدعى فأجيب، واني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله عز وجل وعترتي. كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الأرض، وعترتي أهل بيتي. وان اللطيف أخبرني انهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض. فانظروني كيف تخلفوني فيهما» ورواه ايضاً عن زيد بن ارقم. مسند احمد بن حنبل٥ ص١٨١، ٣/ ١٧، ٤/ ٣٧١ وراجع كتاب أمير المؤمنين للمقدس المرحوم الامام محمدجواد الشري.

أن علياً لا يفارق القرآن أو لا يفارق الحق[١]، وان طاعته طاعة للرسول، ومعصيته معصية له[٢].

إن هذه الروايات بمجموعها سواء كان منها في شأن علي بالخصوص، وما كان منها وارداً في شأن أهل البيت، تدل على أن في اتباع علي ضمانة، لا تعدّ لها ضمانة، وان في اتباعه أماناً من الضلال، وفي هذا ما يدل دلالة واضحة على أن علياً هو الرجل الذي ينطبق منهاجه على منهاج النبي.

* * *

لقد علمت فيما سبق أن النبي ﷺ، وهو ذو الرسالة الدينية الإلهية، إنما جاء صادعاً برسالته، عاملاً على نشر مبادئها وتثبيتها في النفوس، وعلى اطّراد تقدمها. وهو لذلك يعمل على انشاء حكومة يتلخص منهاجها في تطبيق مبادىء الرسالة والعمل على حفظها وتثبيتها، ليصبح العمل عليها خلقاً من أخلاق الشعوب، وطبعاً ثابتاً في نفوس الأفراد، وهو يعمل ايضاً على بقاء هذه الدولة واستمرار حياتها، لتتحقق الغاية من الرسالة، تلك الغاية التي أرسل الرسول من أجلها: **﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون﴾**.

* * *

وقد تعلم أن استمرار حياة الدولة والحكومة التي تتولى تنفيذ المنهاج النبوي، يتوقف على تأمين رئيس للحكومة التي تخلف الحكومة النبوية

(١) أخرج الطبراني في الاوسط والصغير عن أم سلمة، قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: «علي مع القرآن والقرآن مع علي لا يفترقان حتى يردا عليَّ الحوض»، تاريخ الخلفاء/ السيوطي ص١٦٢.

(٢) وقد دعا الرسول ﷺ إلى طاعته في يوم الدار منذ أن كان صبياً بقوله لأقاربه «فاسمعوا له وأطيعوا» وكان ﷺ ينظر بنور الله إلى المستقبل/ راجع عن هذا الحديث بالتفصيل كتاب أمير المؤمنين للامام المقدس محمد جواد الشري ص٥٠٢ وما بعدها.

لتقوم باعبائها. ورئيس كهذا لن يجوز أن يترك أمر قيامه بأعباء الحكم لانتخابات لا تعرف نتائجها ومدى نجاحها، فان الرئيس المطلوب، يجب أن يكون مخلصاً متفانياً في الاخلاص للمبادىء الاسلامية، عالماً بأحسن الأساليب التطبيقية التقدمية، حازماً في تطبيقها، وبتعبير آخر، يجب أن يكون مصيباً في نظرياته وأساليبه في جملتها، فان من الأخطاء ما يكفي وقوعه مرة واحدة في تدهور الأمة وتراجع المبادىء تراجعاً يؤثر في توجيه مصيرها ومستقبلها، وليست الشواهد على ذلك في التاريخ قليلة، فأنت تعلم أن من الأخطاء التي وقعت في تاريخ الحكومات الاسلامية، ما كان وقوعه مرة واحدة كافياً لوصول المسلمين إلى ما وصلوا اليه من التقهقر في كل ناحية من نواحي الحياة.

فقد تعلم أن القائد العظيم (موسى بن نصير)، كان قد قرر ـ بعد أن تم فتح اسبانيا ـ أن يهاجم اوربا هجوماً متواصلاً إلى أن يتم فتحها واخضاعها للدولة الاسلامية، وكان هذا المشروع ممكن التحقيق، لو ترك القائد وشأنه؛ فان العالم المسيحي، يوم ذاك كان مفكك القوى، منحل العناصر، ولم يكن قد وجد رجل كشارل مارتل يتمكن من توحيد الصفوف ليواجه الخطر المفاجىء، وكانت الجيوش الاسلامية يوم ذاك لا تزال في أوج قوتها، إذ كانت لا تزال في دور الحضارة حيث لم تدخل في دور المدنية، وإذن فقد كانت الفكرة ممكنة التحقق والوقوع، وكانت الفرصة مواتية، بل كانت الفرصة الوحيدة التي لن تعود مرة ثانية، وبالرغم من كل هذا، رأى الخليفة الأموي يوم ذاك ـ الوليد بن عبد الملك ـ أن يستدعي القائدين ـ موسى وطارق ـ من اسبانيا، ولا يعيدهما إلى عملهما، وبذلك ضاعت الفرصة العظيمة التي لا تقدّر بثمن، فكان استدعاؤهما وعدم تمكين موسى من تحقيق فكرته، أكبر كارثة على مستقبل الاسلام[1].

---

(١) يقول ابن قتيبة في (الامامة والسياسة) ٢/٨٨ وما بعدها أن موسى سار. . . يفتتح له المدائن =

ومثل هذا الخطأ في التأثير على مستقبل الدولة الاسلامية إثارة الخلفاء الأمويين النعرات القبلية والعنعنات الرجعية بين القبائل العربية وفي صفوف الجنود، مما كان له أسوأ الأثر على وحدة الأمة العربية الى غير ذلك من الحوادث والأخطاء التي كان ارتكابها ولو مرة واحدة بعيد الأثر في ارجاع المسلمين الى الوراء.

ولذلك كان تأمين قيام الرئيس الكفؤ واجباً من أهم الواجبات، وكفاءته تعني لزوم توفر شروط فيه تجعله بعيداً عن الخطأ حليفاً للحق.

ولما كانت الانتخابات لا تكفل قيام ذلك الرئيس الكفؤ، إذ أن الألوف والملايين لا تتمكن من معرفة ذلك الكفؤ الذي يضمن قيامه بأعباء الحكم، تنفيذ المنهاج النبوي، لأن الملايين لا تتمكن من الاطلاع على طوية الفرد الصالح. وكان على النبي أن يرشد الأمة الى ذلك الرئيس الذي يصلح للقيام بهذه المهمة ضمانة لنجاح المبادىء وتنفيذ المنهاج، لذلك كله جاءت هذه

= يميناً وشمالاً حتى انتهى الى مدينة الملوك وهي طليطلة.. وذكروا أن الوليد بن عبدالملك بن مروان لما بلغه سير موسى بن نصير الى الأندلس، ظنَّ أنه يريد أن يخلع ويقيم فيها ويمتنع بها، وابطأت كتب موسى عليه، لاشتغاله بما هنالك من العدو وتوطيئه لفتح البلاد، فأمر الوليد القاضي أن يدعو على موسى إذا قضى صلاته.. وقد أوفد موسى وفداً الى دمشق لحمل الأخبار السارة بالفتح، وكان موسى قد كتب الى الوليد: انها ليست كالفتوح.. انها الجنة (هكذا ذكر في وفيات الأعيان)..

وذكروا أن موسى خرج من طليطلة بالجموع غازياً يفتح المدائن جميعاً، حتى دانت له الأندلس.. ثم مال الى أفرنجة حتى انتهى الى سرقسطة فافتتحها، وافتتح ما دونها من البلاد الى الأندلس ثم سار حتى جاوزها بعشرين ليلة.. وذكر ابن الأثير ان الوليد ارسل رسولاً إلى موسى يأمره بالرجوع اليه من الاندلس.. فساءه ذلك ومطل الرسول.. فقدم عليه رسول آخر للوليد يستحثه ٣/ ٢١٢ وقد عاد موسى بأموال وغنائم هائلة وذلك قبيل هلاك الوليد بأربعين يوماً...

وبعودته انتهت تلك الفتوحات، ولو أنه استمر فيها لفتح أوربا كلها.. غير أن نزوة للخليفة المريض سولتها له نفسه جعلته يلح عليه بالرجوع، ليبدأ صراع آخر بينه وبين خليفته (سليمان) حول الأموال والغنائم.. وهكذا نرى أمثال هذه اللقطات المؤسفة في تاريخنا الحزين.

التصريحات معلنة ذلك الرئيس المنشود، ومعلنة إياه بصورة تتناسب مع مقام النبوة والرسالة الدينية التي جاءت لتحقيق الحق ونفي الضلال. لذلك فهي تفهم الأمة بأبلغ أسلوب وأصرحه، ان الغاية التي أرسل الرسول من أجلها، وهي تحقيق الحق والهدى وظهور دين الحق على الدين كله، إنما تتحقق باتباع علي الذي لا يفارقه الحق والقرآن:

«إني تارك فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي».

* * *

الفهرس

الفصل الأوّل : (أشكال الحكومات وأفضلها)

الفصل الثاني : (الشكل الموافق لطبيعة المبادىء الاسلامية)

الفصل الثالث : (استنطاق النصوص الاسلامية)

الفصل الرابع : (استنطاق النصوص الخاصة)











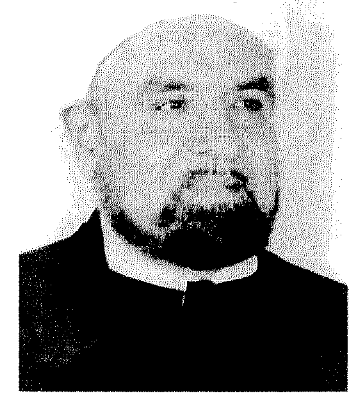


المؤلف والكتاب

«الخلافة في الدستور الاسلامي» الذي صدر سنة ١٩٤٦م من أهم الكتب التي حسمت الجدل بشأن الخلافة بأسلوب علمي مبتكر بعيد عن الأنفعال والتشنج وحرب النصوص، وقد مهد لجيل من الكتاب والمفكرين الاسلاميين الذين عرضوا التجربة الاسلامية العظيمة بصدق ووعي.

وقد لقي الكتاب حفاوة كبيرة في اوساط جامعة النجف الاشرف، التي تخرج منها مؤلفه (العلامة الامام محمد جواد الشري) واشادت به شخصيات علمية مرموقة كالعلامة المرجع الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء والعلامة المحقق السيد محمد تقي الحكيم والعلامة محمد رضا المظفر وغيرهم من كبار العلماء والمفكرين.

تآليفه، العديدة في مختلف الموضوعات الاسلامية لم تكن سوى جانب واحد من جوانب نشاطاته التغيرية المتنوعة التي دلت على نبوغ استثنائي وعزيمة صادقة لخدمة الاسلام في كل قارات الارض خدمة حقيقية تتجاوز حدود المساجد والمراكز والاوطان.



تحركاته الميدانية اليومية المستمرة في المراكز والتجمعات الاسلامية والكنائس والبيوت والتجمعات العامة والمدارس اقترنت بحركة دؤوبة من جولات وحوارات لتعزيز المواقف الاسلامية ألقى فيها عدة الاف من المحاضرات باللغتين العربية والانكليزية وفق خطاب مؤثر مدروس.

دار المرتضى
للطباعة والنشر والتوزيع
لبنان - بيروت - ص.ب. ٢٥/١٥٥ الغبيري - تلفاكس: ٠١/٨٤٠٣٩٢
Printed in Lebanon